

في ظلال القرآن

الجزء التاسع والعشرون

بقلم
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية
مبنى الباني أمبيلي وشركة

في ظلال القرآن

أجزاء التاسع والعشرون

بفلم
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بإذن إشراف الكعبة المحمدية
مبنى الباني أمينين وشركاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من سورة الملك والقلم والحاقة والمعارج ونوح والجن والمزمل والمدثر
والإنسان والمرسلات

سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاسُهَا ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقُدُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ، فَأَرِجْ الْعَبْرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ؟ * ثُمَّ أَرْجِعْ الْعَبْرَ كَرْتَيْنِ يُنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْعَبْرُ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ .

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُدَبِّرُونَ عَذَابُ جَهَنَّمَ * وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ * قَالُوا : بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ !

« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ،

وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ * أَمِنْتُمْ * مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ؟ *
أَمْ أَمِنْتُمْ * مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ؟ فَمَتَّعْنَاهُمْ نَذِيرًا * وَلَقَدْ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ تَكْوِيرُ ؟

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ؟ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ،
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ؟
إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ؟ بَلْ لَجُّوا
فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى ؟ أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟

« قُلْ : هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ * قُلْ : هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

« وَيَقُولُونَ : مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ،
وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا . وَقِيلَ : هَذَا الَّذِي
كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ؟ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ ؟

« قُلْ : هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ؟ » ..

هذا الجزء كله من السور السكية . كما كان الجزء الذي سبقه كله من السور الدنية . ولكل
منها طابع مميز ، وطعم خاص . . . وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من

تقرآن كقطع سورة «المدثر» ومطلع سورة «الزلزل» . كما أن فيه سوراً يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالى ثلاث سنوات كسورة «القلم» . وبحوالى عشر سنوات كسورة «الجن» التى يروى أنها نزلت فى عودة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الطائف ، حيث أودى من حريق . ثم صرف الله إليه نقرأ من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ، بما حكته سورة الجن فى هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبى طالب قبيل الهجرة بمأمو عامين . وإن كانت هناك رواية أخرى هى الأرجح بأن السورة نزلت فى أوائل البعثة .

والقرآن المكى يعالج - فى الغالب - إنشاء العقيدة . فى الله وفى الوحي ، وفى اليوم الآخر . وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق تعرفاً يحمل الشعور به حياً فى القلب ، مؤثراً موجهاً موحياً بالمشاعر اللائقة بعدد يتجه إلى رب ، وبالأدب الذى يأنزله العبد مع الرب ، وبالقيم وللوازين التى يزن بها السلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا فى السور المكىة السابقة ، وسنرى نماذج منه فى هذا الجزء .

والقرآن للندى يعالج - فى الغالب - تطبيق تلك العقيدة وذلك التصور وهذه الموازين فى الحياة الواقعية ؛ وحمل النفوس على الانضلاع بأمانة العقيدة والشرعية فى معترك الحياة ، واليهوض بتكليفها فى عالم الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا نماذج من هذا فى السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء للماضى .



وهذه السورة الأولى - سورة تبارك - تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم فى السوات ، وإلى حياة فى الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان فى عالم الأرض كالجن والطير ، وفى العالم الآخر كجنهم وخزنتها . وإلى عوالم فى النيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق فى الحياة الحاضرة الظاهرة ، فى هذه الأرض . كما أنها تثير فى حسم التأمل فيما بين أيديهم وفى واقع حياتهم وذواتهم مما يمررون به غافلين .

وهى تهيئ فى النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة للتخلف من تصور الجاهلية ودكودها ؛ وتفتح للنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل

والبصيرة ترمز آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، فترى هناك يد الله للبدعة ، وتحس حركة الوجود للنبتة من قدرة الله . وتؤوب من الرحلة وقد شرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض - على سعتها - إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء .

للموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولكن السورة تبت حركة التأمل فيها وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه ، ومن حكمة الله وتديره : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » .

والسواء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال . ولكن السورة تبت حركة التأمل والاستغراق في هذا الجمال والكمال وماوراءها من حركة وأهداف : « هو الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . . . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . . . » .

والحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية اللطف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والانتظار : « وأعدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربههم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تمور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : مازلل الله من شيء ؟ إن أثم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! » .

والنفوس في الجاهلية لا تنكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه ، ولا تلقى بالا إلى الغيب وما يحويه . وهي مستغرقة في الحياة الدنيا عجموسة في قفص الأرض الثابتة المستقرة . فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التي لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء ؟ وتهز في حسم هذه الأرض الثابتة التي يطمنون إليها ويسترقون فيها « إن الذين يغشون برهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم

أو اجبروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . أأنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أأنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير ..

والطير . إنه خلق يروونه كثيرا ولا يتدبرون معجزته إلا قليلا . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنتظر وقلوبهم لتتدبر ، وترى قدرة الله الذى صور وقدر : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما عسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شئ بصير » .

وهم آمنون فى دارهم ، مطمئنون إلى مكاتهم ، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره . ولكن السورة تهزم من هذا السبات النفسى ، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجو من حولهم تهزم على قهر الله وجبروته الذى لا يحسبون حسابه : « أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا فى غرور » .

والرزق الذى تتاله أيديهم ، إنه فى حسم قريب الأسباب ، وهى بينهم تنافس وغلاب . ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هناك فى السماء ، ووراء الأسباب للعلامة لهم كما يظنون : « أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور ..

وهم سادرون فى غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم سألون . فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقا ، فى صورة متحركة موحية : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » .

وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله فى ذوات أنفسهم من استمدادات ومدارك ؟ ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب . فالسورة تذكركم بنعمة الله فيما وهبهم ، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة فى تنور المستقبل للثيب وراء الحاضر الظاهر ، وتدبر النهاية من هذه البداية : « قل : هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأنف ، قليلا ما تشكرون . قل : هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون » .

وهم يكذبون بالمت والحشر ، ويسألون عن مواعده . فالسورة تصوره لهم واقعا مفاجئا قريبا يسوءهم أن يكون : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . فلما رأوه زلزلة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذى كنتم به تدعون ! ..

وهم يترصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذي يقض عليهم مضجهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجلود ! فالسورة تذكركم بأن هلاك الخفنة المؤمنة أو بقاها لا يؤثر فيها ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب ، فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم المصيب : « قل : أرايتم إن أهلكتني الله ومن معي أورحنا فن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ قل : هو الرحمان آمننا به وعليه توكلنا فستمعون من هو في ضلال مبين »

وتتذرم السورة في ختامها بتوقع ذهاب الماء الذي به يعيشون ، والذي يجره هو الله الذي به يكفرون ! « قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟ » ..
إنها حركة . حركة في الحواس ، وفي الحس ، وفي التفكير ، وفي الشعور .

ومفتاح السورة كلها ، ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها ، هو مطلعها الجامع الموحي :
« تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » ..

وهن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تنفرع سائر الصور التي عرضتها السورة ، وسائر الحركات المثنية والظاهرة التي نهت القلوب إليها .

فمن الملك ومن القدرة كان خلق اللوت والحياة ، وكان الابتلاء بها . وكان خلق السماوات وزينتها بالمصاييح وجعلها رجوما للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجهر . وكان جعل الأرض ذلولا للبشر . وكان الحسف والحاسب والتكبر على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير في السماء . وكان القهر والاستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الدرة في الأرض والحشر . وكان الاختصاص بلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان اللاء الذي به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد ..

فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيعاداتها مستمدة من إيعاء ذلك المطلع ومبدولاه الشامل الكبير : « تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » ١١

وحقائق السورة وإيعاداتها تتوالى في السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول للطلع المجلد الشامل ، بما يصيب منه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها في سياقها بالتفصيل :

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير » ..

هذه التسيحة في مطلع السورة توحى بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة
الراية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحى بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتجيدها في
الكون بمد تعجدها في جناب الثبات الإلهية . وهى ترثمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ،
ويمر بها قلب كل موجود . وهى تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم ، من الكتاب
المكنون ، إلى الكون المعلوم .

« تبارك الذى بيده الملك » . . فهو المالك له ، للميمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف
فيه . . وهى حقيقة . حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو
الاعتماد أو الطلب من غير المالك للميمن المتصرف في هذا الملك بلاشريك ؛ كما تخليه من العبودية
والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد القريب !

« وهو على كل شيء قدير » . . فلا يسجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته
شيء ، ولا يحد مشيئته شيء . يخلق ما يشاء ، ويضع ما يريد ، وهو قادر على ما يريد غالب على
أمره ؛ لا تتعلق إرادته بحدود ولا قيود . . وهى حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصوره
لمشيئة الله وقضيه من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ؛
فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أى حال . . والقيود التى ترد على تصور البشر بحكم
تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألون في تقدير ما يتوقعون من تفسير وتبدل فيما وراء
اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من
قدرة الله كل شيء بلا حدود . ويكون قدرة الله كل شيء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة
الحاضرة والواقع المحدود .



« الذى خلق للوت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » ..

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصرفه له ، وآثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته ..
أنه خلق للوت والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة
تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية . التى تنفى هذه
الحقيقة في التصور الإنسانى ؛ وتثير إلى جانبها البقطة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست

المسألة مصادفة بلا تدبير . وليست كذلك جزافا بلا غاية . إنما هو الابتلاء لإظهار المكثون في علم الله من سلوك الأناس على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل : « ليلوكم أيسم أحسن عملا » .. واستمرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبدا يقظا حذرا متلفتا وأيا للصغيرة والكبيرة في النية للسنة والعمل الظاهر . ولايدعه يغفل أوليهو . كذلك لايدعه يطمئن أويستريح . ومن ثم يحى التعقيب : « وهو العزيز النفور » ليسكب الطمأنينة في القلب الذى يرى الله وحشاه . فله عزز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب ، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار ، وحذر وتوقى ، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح !

إن الله في الحقيقة التى يصورها الإسلام لتستقر في القلوب ، لايطارد البشر ، ولايمنهم ، ولايجب أن يمدبهم . إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم ؛ وأن يحققوا تكريم الله لم ينفخ روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه . فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابقة والعون الكبير والساحة الواسعة والعفو عن كثير .



ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله في أكبر وأرفع مجاله ؛ كما يربطه من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء في الآخرة ، بعد الابتلاء بالموت والحياة :

« الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوما للشياطين ، وأعدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ، وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شيقا وهي تفور . تكاد تميز من الفظ ، كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى لقد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ، إن أتمم إلأى ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! » .

وكل ما في هذه الآيات آثار لمداول الآية الأولى ، ومظاهر للبهمة للتصرف في الملك ، والقدرة التى لايتقدها قيد . ثم هى بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء ، ثم الجزاء ..

والسماوات السبع الطباق التي تشير إليها الآية لا يمكن الجزم بمدلولها ، استقاء من نظريات الفلك ، فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح ، كما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تطبيق مدلول الآية بمثل هذه الكشف القابلة للتعديل والتصحيح . ويمكن أن نعرف أن هناك سبع سماوات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله . في السماوات بصفة خاصة وفي كل ماخلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله ، وهو يتحدى بكأله كالأرد البصر عاجزا كليلا مهورا مدهوشا . « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » . . فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب . . « فارجع البصر » .. وانظر مرة أخرى للتأكد والثبت « هل ترى من فطور ؟ » .. وهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ؟ « ثم ارجع البصر كرتين » فرمما فأنك شيء في النظرة السابقة لم تتبينه ، فأعد النظر ثم أعد « ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » ..

وأسلوب التحدى من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الخاصة التامة للتدبر هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يضيئها . فبالإضافة إلى هذه النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجليل البقيق ، الذي لا تشبع العين من تملى جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقى إعجابه وإعجابه ؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذي يبدى منه من يتأمل هذه العين من مهرجان إلى باهر رائع ، لا تخفى بدايته ، لأنها أبدا متجددة للعين والقلب والعقل .

والذي يعرف شيئا عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - يدركه الدهش والدهول . ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ؛ فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون المائل الجليل تلقيا مباشرا حين يفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحى مع الحى ؛ قبل أن يعلم بفسكه وبأرصاده شيئا عن هذا الخلق المائل العجيب .

ومن ثم يكمل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون ، وإلى تملى مشاهدته وعجابه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعا ، وفي كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار . وهو يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يحط حرفا ، كما يخاطب

العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء . وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يوصله بهذا الكون ، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والتتبع .

والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بمدان وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . .

وما السماء الدنيا ؟ لها هي الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هي النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التي نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر في السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم ، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء .

ومشهد النجوم في السماء جميل . فإني هذا شك . جميل جمالا يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتمدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . . بل إنه يختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية . . وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التي توصف هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتهم بالحبة والنداء :

وهاتان النجمتان المنفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تنانيجان !

وهذه المجموعات المتضامة للتأثرة هنا وهناك ، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء . وهي

تجتمع وتفرق كأنها رفاق ليلة في مهرجان !

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . والزهى للزهو ليلة . والنكسر الخفيض ليلة . والوليد للفتحة الحياة ليلة . والفتان الذي يدلف للفناء ليلة . . ١ .

وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر أماده .

إنه الجمال . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملأه ، ولكن لا يجد له وصفا فيما يملك . من الألفاظ والمبارات !

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ، وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود

هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التى يتبأ فيها للحياة الخالدة ، فى عالم طليق جميل ، برىء من شوائب العالم الأرضى والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشرى هى اللحظات التى يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهى فى السكون . ذلك أنها هى اللحظات التى تهيشه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهى ذاته ويتملاه .



ويذكر النص القرآنى هنا أن هذه للمصاييح التى زين الله السماء الدنيا بها هى كذلك ذات وظيفة أخرى :

« وجعلناها رجوما للشياطين » . .

وقد جربنا فى هذه الظلال على قاعدة ألا تزيد بشيء فى أمر النعيمات التى يقص الله علينا طرفا من خبرها ؛ وأن نقف عند حدود النص القرآنى لامتداده . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقا اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم فى القرآن ، وسبقت الإشارة إليها فى هذه الظلال ، ولازيد عليها شيئا ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصاييح التى تزين السماء الدنيا رجوما للشياطين ، فى صورة شهب كما جاء فى سورة أخرى : « وحفظنا من كل شيطان مارد إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . كيف ؟ من أى حجم ؟ فى أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئا ، وليس لنا مصدر آخر يجوز استفتاءه فى مثل هذا الشأن . قلنم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولوعلم الله أن هناك خيرا فى الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . فإلنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه خيرا ؟ فى مثل هذا الأمر . أمررجم الشياطين ؟

ثم يستعرد فيها أعداء الله للشياطين غير الرجوم :

« وأعتدنا لهم عذاب السعير » ..

فالرجوم فى الدنيا وعذاب السعير فى الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا . الذى أعد الله للشياطين فى الدنيا والآخرة هى ذكر السماء أولا ، ثم ما يحىء بعد من ذكر الدين كفروا . والملاقة بين الشياطين والدين كفروا علاقة ملحوظة . فلما ذكر مصاييح السماء

ذكر أخذها رجوما للشياطين . ولما ذكر ما أعد للشياطين من عذاب السعير ذكر بعده ما أعد للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين :

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير .. »

ثم يرسم مشهداً لجهنم هذه ، وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحنق شديد :

« إذا أقروا فيها صموا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ .. »

وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، قترع أنفاسها في شيق وتفور ؛ ويملاؤها جوارحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهي تتطوى على بنف وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين !

والتصير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم . ولكنه - فيما نحس - يقرر حقيقة . فكل خليفة من خلّاق الله حية ذات روح من نوعها . وكل خليفة تعرف ربها وتسبح بحمده ؛ وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتحفظ لهذا الحوجود النكر الذي تسكره فطرتها وتنفّر منه روحها . وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود .

قد جاء بصريح البارة في القرآن : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . . وورد كذلك : « يا أيها أولي البصائر ، وهي تميرات صريحة مباشرة لأجمال فيها للتأويل .

كذلك ورد « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : إئتيا طوعاً أو كرها . قالتا : آمينا طائعين » . . . مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لا ضرورة له . بل هو أبعد من اللحن للبائس الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها : « لقد جئتم شيئا إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخز الجبال . هذا ، أن دعوا للرحمان ولدا ، وما ينبغي للرحمان أن يتخذ ولدا » . . .

وكل هذه النصوص تغير إلى حقيقة . حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شيء بحمده . ودهشة الخلاق وارتياحها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، وبشدة عن هذا اللوك ؛ وتخز هذه الخلاق للاقتضاض على الإنسان في غيظ وحنق ؛ كالذي يظن في عزيز عليه كريم

على نفسه ، فيتناظ ويحرق ، ويسكاد من القيظ يتمزق . كما هو حال جهنم وهى : « ثور .
تسكاد تمزج من القيظ ا » .

كذلك نلح هذه الظاهرة فى خزنة جهنم :

« كما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟ » ..

وواضح أن هذا السؤال فى هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهى مشاركة لجهنم فى
القيظ والحرق . كما هى مشاركة لها فى التعذيب ، وليس أمر من الترذيل والتأنيب
للضائق للكروب ا .

والجواب فى ذلة وإنكسار واعتراف بالحرق والنفلة ، بعد التبيح والإنكار واتهام
الرسل بالضلال :

« قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا : مآزل الله من شيء . إن أتم إلّا فى ضلال
كبير . وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ا » .

فالذى يسمع أو يعقل ، لا يورد نفسه هذا اللورد الويد . ولا يحدد بمثل ما جحد به أولئك
لنا كيد . ولا يسارع بإتهام الرسل بالضلال على هذا النحو للتبيح الوقع ، الذى لا يستند فى
الإنكار إلى دليل . ثم ينكر ويدعى ذلك الادعاء العريس على رسل الله الصادقين يقول :
ما نزل الله من شيء : إن أتم إلّا فى ضلال كبير ا .

« فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » .

والسحق البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم فى اللوقف الذى لم يؤمنوا به
ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم ميمدون من رحمته . لارجاء لهم فى مغفرة ،
ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير اللازمون له . وإلها من محبة ! وإله
من مصير ا

وهذا العذاب ، عذاب السعير ، فى جهنم التى تشهق بأغاسها وهى ثور ، عذاب شديد
مروع حقاً . والله لا يظلم أحداً . ونحسبُ والله أعلم - أن النفس التى تكفر بربها - وقد أودع
فطرتها حقيقة الإيمان ودليله - هى نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من كل صفة تجعل لها
اعتبارا فى الوجود ، فهى كالجبر التى توقد به جهنم . وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها
هذه النار . إلى غير نجاة منها ولا فرار ا

والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنكس وترتكس في كل يوم تميشه، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يسبح بحمد ربه ، وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التي تشبه إلى عور الوجود .. ماعدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود ، الأبدية الشريرة ، الجاسية للمسوخة النفور . فأى مكان في الوجود كله تنتهي إليه ، وهى مبتوة الصلة بكل شيء في الوجود؟ إنها تنتهي إلى جهنم للتغليظة التلظية ، الحارقة . للهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة !

والمأثور في سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين في مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين في مقابل صفحة الكافرين ، تمة لمداول الآية الثانية في السورة : « ليلوكم أيكم أحسن عملا » .. يذكر الجزء بعد ذكر الأتلاء :

« إن الذين يغشون ربهم بالتيب ، لم مغفرة وأجر كبير » ..

والتيب للشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين . وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال : وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير .

ووصل القلب بالله في السرواخفية ، والتيب الذي لا تطلع عليه العيون ، هو ميزان الحسامة في القلب البشري وضمانة الحياة للضمير .. قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا طلوت ابن عباد ، حدثنا الحارث ابن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قالوا : يا رسول الله إننا نكون عندك على حال ، فإذا فارقتنا كنا على غيره . قال : « كيف أتمو ربكم ؟ » قالوا : الله ربنا في السر والعلانية . قال : « ليس ذلك النفاق » ..

فأصله بالله على الأصل . ففى انصفت في القلب فهو مؤمن صادق موصول .

وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها في السياق بما بعدها ، في تقرر علم الله بالسر والظهر ، وهو يتجدى البشر وهو الذي خلق قلوبهم ، ويسم مدخلها ومساكنها ، التي أودعها إياها :

« وأسروا قلوبكم وأجروها به ، إن عظيم بذات الصدور . ألا ينم خلق ؟ وهو اللطيف الخبير ؟ »

أسروا أو أجبروا فهو مكشوف لم الله سواء . وهو يعلم ماهو أخفى من الجهر والسر . «إنه
عليم بذات الصدور » التي لم تفارق الصدور ! عليم بها ، فهو الذى خلقها فى الصدور ، كما
خلق الصدور ! « ألا يعلم من خلق ؟ » ألا يعلم وهو الذى خلق ؟ « وهو اللطيف الخبير ؟ »
الذى يصل علمه إلى الدقيق الصغير والحقى للستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفى من الله بحركة أو سر أو نية فى الضمير ، بيدون مضحكين !
فالضمير الذى يخفون فيه ينتهم من خلق الله ، وهو يعلم دروبه وخفائيه . والنية التى يخفونها
هى كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فإذا يخفون ؟ وأين يستخفون ؟

والقرآن يبنى بقرار هذه الحقيقة فى الضمير . لأن استقرارها فيه ينشئ له إدراكا صحيحا
للأمور . فوق ماودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ، تناط بها الأمانة التى يحملها المؤمن
فى هذه الأرض . أمانة العقيدة ، وأمانة المدالة ، وأمانة التجرد لله فى العمل والنية . وهو
لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكن فيه من سر ونية هو من خلق الله الذى يعلمه
الله . وهو اللطيف الخبير . .

عندئذ يتق المؤمن النية للكونية ، والمهاجس الدفين ، كما يتق الحركة للنظورة ، والصوت
الجهير . وهو يتعامل مع الله الذى يعلم السر والجهر . الله الذى خلق الصدور فهو يعلم
ما فى الصدور .

ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التى خلقها الله ، إلى الأرض التى خلقها لهم ، وذلكما
وأودعها أسباب الحياة :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه
النشور » .

والناس لطلول ألقمهم حياتهم على هذه الأرض ؟ وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ،
واستغلالهم لثربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعا . . ينسون نقطة الله فى
تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم بهذه النعمة الهائلة ، ويصرم بها ، فى هذا التمجيد
الذى يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض للذلول .
والأرض للذلول كانت تمنى فى أذهان المخاطبين القدامى . هذه الأرض للذلة للسير فيها .

بالقدم وعلى الدابة ، وبالقائك التي تمخر البحار . وللذلة للزرع والجنى والحصاد . وللذلة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات .
وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم - فيما اهتدى إليه حق اليوم - تفصيلا يمد في مساحة النص القرآن في الإدراك .

فما يقوله العلم في مدلول الأرض الدلول : إن هذا الوصف : « ذلولاً » . الذي يطلق عادة على الدابة ، مقصود في إطلاقه على الأرض : فالأرض هذه التي راها ثابتة مستقرة ساكنة ، هي دابة متحركة . بل راحة راكضة مهطمة ! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقى براكها عن ظهرها ، ولا تمشر خطاها ، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الدلول ! ثم هي دابة حلوب مثلها هي ذلول !

إن هذه الدابة التي نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة ، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة . ثم تركز هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة ، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء . ومع هذا الركن كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحاً مطمئناً ماعى لا تترق أوصاله ، ولا تتأثر أشلاؤه ، بل لا يرتج عه ولا يدوخ ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الدلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثر اثنتين منها في حياة هذا الإنسان ، بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض . فدورة الأرض حول نفسها هي التي ينشأ عنها الليل والنهار . ولو كان الليل سرمدا لجمدت الحياة كلها من البرد ، ولو كان النهار سرمدا لاحتقرت الحياة كلها من الحر .. ودورتها حول الشمس هي التي تنشأ عنها الفصول . ولو دام فصل واحد على الأرض ما قامت الحياة في شكلها هذا كما أرادها الله . أما الحركة الثالثة - فلم يكشف ستار الغيب عن حكمتها بعد . ولا بد أن لها ارتباطاً بالتناسق الكوني الكبير .

وهذه الدابة الدلول التي تتحرك كل هذه الحركات الهائلة في وقت واحد ، ثابتة على وضع واحد في أثناء الحركة - يحده ميل محورها بمقدار $23^{\circ}5'$ لأن هذا الليل هو الذي تنشأ عنه الفصول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس ، والذي لو اختلف في أثناء الحركة لاختلت الفصول التي ترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها في هذه الحياة الدنيا !
والله جل الأرض ذلولاً للبشر بأن جعل لها جاذبية تشد بهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى ،

كما جعل لها منضطاً جويًا يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوي أقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل - حسب درجة ثقل الضغط - فلما أن يسحقه أو يموقه . ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله ، كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تركيب لضغط الهواء . والله جعل الأرض ذلولاً يسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولو كانت صخوراً صلبة - كما يفترض العلم بمد برودها وتجمدها - لتعذر السير فيها ، ولتعذر الإنبات . ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتت هذه الصخور الصلبة ، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق التي يجعلها رابو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولاً بأن جعل الهواء المحيط بها محتويًا للعناصر التي تحتاج الحياة إليها . بالنسبة الدقيقة التي لو اختلفت ماقلت الحياة ، وماطشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسجين فيه هي ٢١ ٪ تقريباً ونسبة الأوزون والتروجين هي ٧٨ ٪ تقريباً والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هي اللازمة بالضغط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولاً بألاف من هذه اللواقف الضرورية لقيام الحياة . . ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر ، وبعد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسمك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع الماء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها . . إلى آخره . . إلى آخره . وهذه اللواقف مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولاً . وهي التي جعلت فيها رزقاً ، وهي التي سمحت بوجود الحياة . وحياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنبي القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليهاكل فردوكل جيل بالقدر الذي يطبق ، وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته . ليشمر يده لله - الذي يده للكل - وهي تتولا وتولى كل شيء حوله ، وتذل له الأرض ، وتحفظه وتحفظها . ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا السكون كله وتحطم بمن عليه وماعليه !

فلذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمان الرحيم بالشئ في مناكبها والأكل من رزقه فيها :

« فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

وللناكب المرتفعات . وأالجواب . وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهلها وبطاحها من باب أولى . فحق أذن له في الشمس منها فقد أذن له في الدلول ! والرزق الذي فيها كله من خلقه، وكله من ملكه ، وهو أوسع مدلولاً مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق . فليس هو السال الذي يجده أحدم في يده ، ليحصل به على حاجياته ومتاعه . إنما هو كل ما أودعه الله هذه الأرض ، من أسباب الرزق ومكوناته . وهى في الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التى تكونت منها ، وطبيعة تقسيم هذه العناصر بهذه النسب التى وجدت بها . ثم القدرة التى أودعها الله النبات والحيوان - ومنه الإنسان - على الانتفاع بهذه العناصر .

وفى اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى :

« تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على اللقادر التى تكاد تكون متناهية فى الصغر من ثانى أكسيد الكربون الوجود فى الهواء . والتى يمكن القول بأنها تنقسمها . ولكى نوضح هذا التفاعل الكيماوى المركب المختص بالتركيب الضوئى بأبسط طريقة ممكنة نقول : « إن أوراق الشجر هى رئات ، وإن لها القدرة فى ضوء الشمس على تجزئة ثانى أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأكسجين . وبعبارة أخرى يلفظ الأكسجين ويحفظ بالكربون متحداً مع هيدروجين الماء الذى يستمد النبات من جذوره (حيث يفصل الماء إلى هيدروجين وأكسجين) . وبكمياء سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرًا أو سليلوزًا ومواد كيميائية أخرى عديدة ، وفواكه وأزهاراً . ويفنى النبات نفسه ، ويتبع فاعضاً يكفى لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفى الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذى تنسمه والذى بدونه تنهى الحياة بدخس دقائق .

« وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطخيب ، وكل ما يتعلق بعياه الزرع ، تبنى تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلفظ ثانى أكسيد الكربون ، بينما تلفظ النباتات الأكسجين . ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة ، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد فى النهاية كل الأكسجين ، أو كل ثانى أكسيد الكربون تقريباً . ومتى انقلب التوازن تماماً ذوى النبات أو مات الإنسان ، فيلقى به الآخر وشيكا .

وقد اكتشف أخيراً أن وجود ثاى أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضاً ضرورى لمعظم حياة الحيوان ، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين .

« ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضاً ، وإن كنا لا نتنسمه . فبدون الهيدروجين كان الماء لا يوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أو النباتية هى كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة ولاغنى عنه مطلقاً » (١) .

وهناك دور الأزوت أو النتروجين فى رزق الأرض .

« وبدون النتروجين فى شكل ما لا يمكن أن ينمو أى نبات من النباتات الغذائية . وإحدى الوسيطتين اللتين يدخل بها النتروجين فى التربة الزراعية هى طريق نشاط الجراثيم « بكتريا » معينة تسكن فى جذور النباتات البقلية ، مثل البسبم والحبس والبسلة والفول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب . قابل لأن يمتصه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب فى الأرض .

« وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض . وذلك عن طريق عواصف الرعد . وكما ومض برق خلال الهواء ، وحد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النتروجين ، فيسقطه للطر إلى الأرض كنتروجين مركب (٢) » (أى فى الصورة التى يستطيع النبات امتصاصها لأنه لا يقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسبته فيه حوالى ٧٨٪ كما أسلفنا) .

والأرزاق المخبوءة فى جو الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التى لا يستها . ولا نطيل شرحها . فالرزق فى ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولاً مما يفهمه الناس من هذا اللفظ . وأعماق أسبابها فى تكوين الأرض ذاتها وفى تصميم السكون كله . وحين يأذن الله للناس فى الأكل منه ، فهو يفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله ؛ كما يمنح البشر القشرة على تناولها والانتفاع بها : « قامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

وهو محدود بزمان مقدر فى علم الله وتديره زمن الابتلاء بالموت والحياة ، وبكل ما يسخره الله للناس فى هذه الحياة . فإذا انقضت فترة الابتلاء كان اللوت وكان ما بعده :

(١) كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكس من ٧٠ - ٧١

(٢) المصدر نفسه من ٧٦ - ٧٧

« وإليه النشور » ..

إليه .. وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ وللك يده ؟ ولما لجأ منه لإياله ؟ وهو على كل شيء قدير ؟

والآن - وبيننا هم في هذا الأمان على ظهر الأرض الدلول ، وفي هذا اليسر الفائق بإذن الله وأمره .. الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هذا ويرجها رجا فإذا هي تمور . ويشير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور .. يهز هذه الأرض في حشيم ويشير هذا الحاصب في تصورهم ، لينتهوا من غفلة الأمان والقرار ، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب ، ويلتقوا قلوبهم بقدر الله :

« أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟ » ..

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الدلول ، ومحبوبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم للعلوم ! يرفون كيف تحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب ، في بعض الأحيان ، عند ما يأذن الله بأن تضطرب قليلا فيرجح كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم ! ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين ، التي تكشف عن الوحش الجامع ، الكامن في الدابة الدلول ، التي يمسك الله بزمامها فلا تشور إلا بقدره ولا تجمع إلا ثوائى معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها ؟ أو يغوص في جوفها عندما تنفتح أحد أفواهها وتخسف كسفة منها . . وهي تمور .. البشر ولا يملكون من هذا الأمر شيئا ولا يستطيعون . وهم يدون في هول الزلازل والبركان والحسف كالفئران الصغيرة محصورة في قفص الرعب ، من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى للمسكة بالزمام !

والبشر كذلك يشهدون العواصف الجارفة الحاصبة التي تدمر وتخرب ، وتحرق وتصفق . وهم يذأونها ضفاف عاجزون ، بكل ما يملكون وما يعملون . والعاصفة حين تزار وتضرب بالحصى الحاصب ، وتأخذ في طريقها كل شيء في البر أو البحر أو الجو يقف الإنسان أمامها صغيرا هزلا حسيرا حتى يأخذ الله بزمامها فتلس وتلين !

والقرآن يذكر البشر الذين مخدعهم سكوت الدابة وسلامة مقادنها ، ويضربهم الأمان بنسيان خالقها ومروضا . يذكرهم بهذه الجمحات التي لا يعلكون من أمرها شيئا . والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور ، وتنفذ بالجحش وتغور . والريح الرخاء من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لا تقف له قوة في الأرض من صنع البشر ، ولا تصده عن التدمير . يحذرهم وينذرهم في تهديد يرجع الأعصاب ويخلخل للفاصل .

« فستعلمون كيف نذير » ١١١

ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع العابرين للسكدين :

« ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟ » . .

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار . ولقد أنكر الله عن كذبوا قبلهم أن يكذبوا . وهو يسألهم : « فكيف كان نكير ؟ » وهم يعلمون كيف كان ، فقد كانت آثار الدمار والحرب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير !

والأمان الذي ينكره الله على الناس ، هو الأمان الذي يوحى بالغفلة عن الله وقدرته وقدره . وليس هو الاطمئنان إلى الله وراحته ورحمته . فهذا غير ذاك . فالأمن يطمئن إلى ربه ، ويرجو رحمته وفضله . ولكن هذا لا يقوده إلى الغفلة والنسيان والانتقام في عمرة الأرض ومتاعها . إنما يدعو إلى التطلع الدائم ، والحياء من الله ، والحذر من غضبه ، والتوقى من المحبوه في قدره ، مع الإخبات والاطمئنان .

قال الإمام أحمد - بإسناده - عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهوانه . إنما كان يتبسم . وقالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا رأى غيا أو رجعا عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا التميم فرحوا رجاء أن يكون فيه للطر ، وأدرك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب وقالوا ، هذا عارض ممطرنا ^(١) »

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره ، وبما قصه القرآن من هذا في سيرة . وهو لا ينافي الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله .

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث ابن وهب .

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر بحاله وكيته إلى من يده الملك ، وهو على كل شيء قدير . فالحسف والحاصب ، والبراكين والزلازل ، والمواسف ، وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس في أيدي البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل ما يذكركه البشر عنها ففرض يحاولون بها تفسير حدوثها ، ولكهم لا يتدخلون في إحداثها ، ولا يحمون أنفسهم منها . وكل ما ينشئون على ظهر الأرض تذهب به رغبة من رجفاتها ، أو إعصار من أعاصيرها ، كما لو كان لبنا من الورق ! فأولى لهم أن يتوجهوا في أمرها إلى خالق هذا الكون ، ومنشئ نواميسه التي تحكم هذه الظواهر ، ومودعه القوى التي يتجلى جانب منها في هذه الأحداث . وأن يتعلموا إلى البهاء - حيث هي رمز للماو - فيتذكروا الله الذي يده للكل وهو على كل شيء قدير .

إن الإنسان قوى بالقدر الذي وهبه الله من القوة . عالم بالقدر الذي أعطاه الله من العلم . ولكن هذا الكون الهائل زمامه في يد خالقه ، ونواميسه من صنمه ، وقواه من إبداعه . وهذه القوى تسير وفق نواميسه في حدود قدره . وما يصيب الإنسان منها مقبور مرسوم ، وما يلمه الإنسان منها مقدور معلوم . والوقائع التي تحدث تقف هذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسرا ، ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضها ؟ وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها ، ويسخر ما هو مقدور له أن يسخره منها .

وحين ينشئ هذه الحقيقة ، ويغتر وينخدع بما يقسم الله له من العلم ومن القدرة على تسخير بعض قوى الكون ، فإنه يصبح مخلوقا مسيخا مقطوعا عن العلم الحقيقي الذي يرفع الروح إلى مصدرها الرفيع ؛ ويغفل إلى الأرض في عزلة عن روح الوجود ! بينا العالم المؤمن يركع في مهرجان الوجود الجليل ، ويتصل ياربي الوجود الجليل . وهو متاع لا يعرفه إلا من ذاق حلاوته حين يكتبها الله له !

على أن قوى الكون الهائلة تلجئ الإنسان إلى الجأء إلى موقف العجز والتسليم سواء رزق هذه الخلاوة أم حرما . فهو يكشف ما يكشف ، وينبع ما ينبع ، وينبع من القوة ما ينبع . ثم يواجه قوى الكون في انكسار الحسير الصغير الهزيل . وقد يستطيع أن يتقن العاصفة أحيانا ولكن العاصفة تمضي في طريقها لا يملك وقفها . ولا يملك أن يقف في طريقها ، وقصارى ما يبلغ إليه جهده وعلمه أن يحتمي من العاصفة وينزوي عنها . . . أحيانا . . . وأحيانا تقتله

وتسحقه من وراء جدرانہ وبنیانه . وفي البحر تتناوحه الأمواج والأعاصير فلماذا أكبر صفاته كلمة الصبي في مهب الرياح . أما الزلزال والبركان فيها ما من أول الزمان إلى آخر الزمان ! فليس إلا المعنى هو الذى يهب لبعض الناس أن « الإنسان يقوم وحده » في هذا الوجود ، أو أنه سيد هذا الوجود !

إن الإنسان مستخلف في هذه الأرض بإذن الله . موهوب من القوة والقدرة والعلم ما يشاء الله . والله كائنه وحاميه . والله رازقه وممطيه . ولو تخلت عنه يد الله لحظته لسحقته أقل القوى السخرة له ، ولأكله الدباب وما هو أسفر من الدباب . ولكنه بإذن الله ورعايته مكفوء . ومحفوظ . وكريم . فليعرف من أين يستمد هذا التكريم ، وذلك الفضل العظيم .

يبدئ بتقل بهم من لمة التهديد والذير ، إلى لمة التأمل والتذكير . في مشهد يروونه كثيرا ، ولا يتدبرونه إلا قليلا . وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهي اللطيف .

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يعسكن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير » . .

وهذه الحارقة التي تقع في كل لحظة ، تنسنا بوقوعها للتكرار ، ما تنشئ به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويضربهما ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو في الحالين : حالة الصف الناعبة ، وحالة القبض المارضة يظل في الهواء ، يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة ، ويأتي بحركات غيل إلى الناظر أحيانا أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والارتفاع !

تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه ، لا يملح النظر ، ولا يملح القلب . وهو متعة فوق ما هو مثار تذكير وتدبر في صنع الله البديع ، الذي يتأنق فيه السكالك والجمال !

والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد الثير :

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ » . .

ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير :

« ما يعسكن إلا الرحمن » ..

والرحمان يعسكن بنواميس الوجود للتناسقة ذلك التناسق المجيب ، للحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة ، المحسوب فيه حساب الخلية والنذرة .. النواميس التي تكفل توافر آلاف اللواقظ في الأرض والجو وخلقة الطير ، لثم هذه الحارقة وتكرر ، وتظل تتكرر بانتظام .

والرحمان يعسكن بقدرة القادرة التي لا تسكن ، وعنايته الحاضرة التي لا تنيب . وهي التي تحفظ هذه النواميس أبداً في عمل وفي تناسق وفي انتظام . فلا تفتقر ولا تختل ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله : « ما يعسكن إلا الرحمن » .. بهذا التعبير المباشر الذي يشي بيد الرحمن تمسك بكل طائر وبكل جناح ، والطارئ صاف جناحيه وحين يقبض ، وهو معلق في الفضاء ! « إنه بكل شيء بصير » ..

يصره ويراه . ويصر أمره ويخبره . ومن ثم يهيئ وينسق ، ويعطي القدرة ، ويرعى كل شيء في كل لحظة . رعاية الخير البصير .

وإمسك الطير في الجو كما إمساك الدواب على الأرض الطائفة بما عليها في الفضاء . كما إمساك سائر الأجرام التي لا يعسكها في مكانها إلا الله . ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يمسكون رؤيته وإدراكه ؛ وليس قلوبهم بإعماهاته وإشغاته . وإلا فصنع الله كلها إعجاز وكلها إبداع ، وكلها إحياء وكلها إيقاع . وكل قلب وكل جيل يدرك منها ما يطيقه ، ويلحظ منها ما يراه . حسب توفيق الله .

ثم ليس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفرع من الحسف والحاصب ، بدأن جال بهم هذه الجولة مع الطير الساجد الآمن . فيردد قلوبهم بين شق الفساة عوداً وبدءاً ، كما يعلم الله من أثر هذا الترداد في قلوب المباد :

« أم من هذا الذي هوجند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور » ..

وقد خوفهم الحسف وخوفهم الحاصب ، وذكرهم مصائر العابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يسود ليسألهم : من هو هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ من هو هذا الذي يدفع عنهم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ « إن الكافرون إلا في غرور » .. غرور

يهيئ لهم أنهم في أمن وفي حماية وفي مطمئنان ، وهم يتعرضون لتعذب الرحمان وبأس الرحمان ، بلاشفاعة لهم من إيمان ولاعمل يستنزل رحمة الرحمان .

ولسة أخرى في الرزق الذي يستمتعون به ، وينسون مصدره ، ثم لا يخشون ذهابه ، ثم يلجئون في التبعج والإعراض :

« أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو وتغور » ..

ورزق البشر كله - كما سلف - مقود بإرادة الله في أول أسبابه ، في تصميم هذا الكون وفي عناصر الأرض والجو . وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقاً ، ولاتعلق بمعلمهم بتاتا . فهي أسبق منهم في الوجود ، وهي أكبر منهم في الطاقة ، وهي أقدر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله .

فمن يرزق البشر إن أمسك الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك الناصر الأولى التي منها ينشأ وجود الأشياء ؟

إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهداً وأعمق جذوراً مما يتبادر إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره ، وإرساله للأسباب وإمساكها حين يشاء .

وفي هذا للدلول الكبير الواسع العميق تتطوى سائر المدلولات القرية لكلمة الرزق ، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفي طوقه ، كالعمل ، والإبداع ، والإنتاج .. وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأى نفس يتنفسه العامل ، وأى حركة يتحركها ، إلا من رزق الله ، الذي أنشأه ، ومنحه للقدرة والطاقة ، وخلق له النفس الذي يتنفسه ، وللادة التي تحترق في جسده فتحمله القدرة على الحركة ؟ وأى جهد عقلي يبذله عتبرع إلا وهو من رزق الله الذي منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأى إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلا في مادة هي من صنع الله ابتداء ، وإلا بأسباب كونية وإنسانية هي من رزق الله أصلاً ؟ .. « أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ » .. « بل لجوا في عتو وتغور » .

والتعبير يرسم خدا مصراً ، وهيئة متبججة ، بعد تقريره لحقيقة الرزق ، وأنهم عيال على الله فيه . وأقبح التو والنفور ، والتبعج والتصغير ، ما يقع من الببال في مواجهة الطعم الكاسي ،

الرازق المائل وهم خلو من كل شيء إلا ما يفضل به عليهم . وهم بعد ذلك عاتون
معرضون وقحاء !

وهو تصوير لحقيقة النفوس التي تمرض عن الدعوة إلى الله في طغيان عات ، وفي إعراض
نافر ، وتنسى أنها من صنع الله ، وأنها تعيش على فضله ، وأنها لا تملك من أمر وجودها وحياتها
ورزقها شيئاً على الإطلاق !

ولقد كانوا - مع هذا - يهيمون النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه بالضلال ؛ ويزعمون
لأنفسهم أنهم أهدى سبيلاً كما يصنع أمثالهم مع الدعوة إلى الله في كل زمان . ومن ثم يصور
لهم واقع حالهم وحال المؤمنين في مشهد حي يحسم حقيقة الحال :

« أفن يمشى مكباً على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ؟ » .. والذي
يمشى مكباً على وجهه إما أن يكون هو الذي يمشى على وجهه فملاً لا على رجله في استقامة كما
خلقه الله ، وإما أن يكون هو الذي يمشى بطريقة فينكب على وجهه ، ثم ينهض ليعثر من جديد
وهذه كذلك حال بائسة تمانى للشقة والسر والتشر ، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول !
وإن هي من حال الذي يمشى مستقيماً سوياً في طريق لا عوج فيه ولا عثرات . وهدفه أمامه
واضح مرسوم ؟ !

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله ، المحروم من هداة ، الذي
يسطدم بنواميسه ومخالفاته ، لأنه يتراضى في سيره ، ويتخذ له مساراً غير مساره ، وطريقاً
غير طريقها ، فهو أبداً في تشر ، وأبداً في عناء ، وأبداً في ضلال .

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود للهدى إلى الله ، للمتع بهداة ، الذي يسير وفق
نواميسه في الطريق الألب للسمور ، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد . وهو موكب
هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء .

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد . وحياة الكفر هي العسر
والتشر والضلال ..

فأيها أهدى ؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب !
ويتوارى السؤال والجواب ليتدأى للقلب هذا للشهد الحى الشاخص المتحرك .. مشهد
جماعة يمشون على وجوههم ، أو يتمشرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق . ومشهد

جماعة أخرى تسير مرتضة المهامات ، مستقيمة الخطوات ، في طريق مستقيم ، لهدف مرسوم .
إنه تجسيم الحقائق ، وإطلاق الحياة في الصور ، على طريقة القرآن^(١) في التعبير بالتصوير ..

وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكرهم بما وهبهم الله من وسائل الهدى ، وأدوات الإدراك ؛
ثم لم يشغوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين :

« قل : هو الذي أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون .. »
وحقيقة أن الله هو الذي أنشأ الإنسان ، حقيقة تلح على العقل البشري ، وثبت ذاتها
بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد - وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يعلم من المخلوقات - وهو
لم يوجد نفسه ، فلا بد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده .. ولما فر من
الاعتراف بخالقي . فوجود الإنسان ذاته يواجه بهذه الحقيقة . وللمارة فيها نوع من الماحكة
لا يستحق الاحترام .

والقرآن يذكر هذه الحقيقة هنا ليدكر بجانها ما زود الله به الإنسان من وسائل المعرفة :
« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » ..

وما قابل الإنسان به هذه النعمة : نعمة الإنشاء ونعمة السمع والأبصار والأفئدة :
« قليلا ما تشكرون » ..

والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التي
يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ، معجزة أدهب وأغرب . ولم يعرف بعد عنها إلا القليل .
وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد ..

وللم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر نذكر منها لحة :
« تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ، ولا يعلم إلا الله أين تنتهي . ويقول العلم : إن الاهتزاز
الذي يحدثه الصوت في الهواء ينتقل إلى الأذن ، التي تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن . وهذه
تقلها إلى التيه داخل الأذن .

« والتيه يشتمل على نوع من الأتية بين لولية ونصف مستديرة . وفي القسم اللولي وحده
أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بصبب السمع في الرأس .

(١) إراجع فصل : « طريقة القرآن » . وفصل « التخيل الحسي والتجسيم » في كتاب : « التصوير الفني
في القرآن » .

« فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف كل منها تركيبا خاصا ؟ وما الحيز الذي وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة للواجهة . هذا كله في الشيء الذي لا يكاد يرى وفي الأذن مئة ألف خلية سمعية . وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الأبواب » (١) .

« ومركز حاسة الإبصار العين ، التي تحتوي على مئة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهي أطراف أعصاب الإبصار . وتتكون العين من الصلبة والقرنية والشبكية والشبكية . وذلك بخلاف العدد المائل من الأعصاب والأوعية » (٢) .

« وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أمواد وعروطات . ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين عروط . وقد نظمت كلها في تناسب يحكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للمدبات . . وعدسة عينك تختلف في الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة ، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالجرجير مثلا » (٣) . .

فأما الآن فننتهي هذه الحاضرة التي صار بها الإنسان إنسانا . وهي قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التي استخلف بها الإنسان في هذا للكم المريض . والتي حل بها الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . أمانة الإيمان الاختياري ، والاهتداء الذاتي ، والاستقامة الإرادية على منهج الله القويم (٤) ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة ، ولا مركزها ، داخل الجسم أو خارجها ! فهي سر الله في الإنسان لم يعلمه أحد سواه .

وعلى هذه الهبات الضخمة التي أعطاها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى ، فإنه لم يشكر : « قليلا ما تشكرون » . . وهو أمر يثير الحجل والحياء عند التذكير به ، كما يذكركم القرآن في هذا المجال ويذكر كل جاحد وكافر ، لا يشكر نعمة الله عليه ؛ وهو لا يوفيقها حقها لوعاش للشكر دون سواه !



(١) منقول عن كتاب : الله والعلم الحديث للاستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧

(٢) منقول عن كتاب : المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) نقلا عن كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح القليبي ص ١١٣ :

(٤) يرجع تفسير قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال . . في ص ٤٩ - ٥١ من الجزء ٢٢ من الظلال .

ثم يذكركم أن الله لم ينشئ البشر وعينهم هذه الخصائص عبثاً ولا جزافاً لغير قصد ولا غاية . إنما هي فرصة الحياة للإبتلاء . ثم الجزاء في يوم الجزاء :

« قل : هو الذي ذرأكم في الأرض ، وإليه تحشرون » . .

واللهد : الإكتار . ويحمل كذلك معنى الانتشار . والحشر : الجمع بعد النشر في الأرجاء . وهما حركتان متقابلتان من الناحية التصويرية ، تعابلهما من الناحية المعنوية . ذلك مشهد للإكتار من الخلق ونشرهم أو نثرهم في الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر . ويجمعهما السياق في آية واحدة ، ليتقابل للشهدان في الحس والتصور على طريقة القرآن . وليتذكر البشر وهم منتشرون في الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها . هي الجمع والحشر . وأن هناك أمراً وراء هذا ، ووراء الإبتلاء بالموت والحياة .

ثم يحكى شكهم في هذا الحشر ، وارتبابهم في هذا الوعد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال الماحل للتنت . فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ؛ ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الإبتلاء . ويستوى بالقياس إليهم أن يحيى غذا أو أن يحيى بعد ملايين السنين . . فالهم أنه آت ، وأنهم محشورون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا في الحياة .

ومن ثم لم يطلع الله أحداً من خلقه على مواعده ، لأنه لا مصلحة لهم في معرفته ، ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له في التكليف الذي يطالب الناس بها استمداً للاقته . بل للمصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك للوعد ، دون الخلق جميعاً :

« قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » .

وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والخالق . وتتجدد ذات الله ووحدانته بلا شبه ولا شريك . ويتمحض العلم له سبحانه . ويقف الخلق — بما فهم الرسل ولللائكة —^(١) في مقامهم

(١) في حديث حقيقة الإسلام والإيمان . . سأل جبريل النبي — صلى الله عليه وسلم — من الساعة ، فقال :

« ما للسؤال عنها بأعلم من السائل » . . أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٣ — في ظلال القرآن [٢٩])

متأديين عند مقام الألوهية العظيم : « قل : إنما العلم عند الله . وإنما أنا نذير مبين » . . وظيف
الإنداز ، ومهقق البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .
وبيناهم يسألون في شك ويحايون في جزم ، غيل السياق القرآني كأن هذا اليوم الذي
يسألون عنه قد جاء ، وللوعد الذي يشكون فيه قد حان ؛ وكأنما هم واجهوه الآن . فكان
فيه ما كان :

« فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون » !
فقد رأوه قريبا مواجها لهم حاضرا أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم .
وبدا فيها الاستياء . وجه إليهم التأنيب : « وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون » .. هذا هو
حاضرا قريبا . وهو الذي كنتم تدعون أنه لن يكون !
وهذه الطريقة في عرض ماسيكون تتكرر في القرآن ، لمواجهة حالة التكذيب أو الشك
بمفاجأة بشورية تصويرية تقف للكذب أو الشاك وجها لوجه مع مشهد حاضرا لما يكذب
به أو يشك فيه .

ثم هي في الوقت ذاته تصور حقيقة . فهذا اليوم كائن في علم الله ؛ أما خط الزمن وبينه وبين
البشر فهو قائم بالقياس إلى البشر . وهي مسألة نسبية لأمثل الحقيقة المجردة كما هي في حساب الله .
ولو أذن الله لرأوه اللحظة كما هو في علم الله . فهذا الانتقال المفاجيء لهم من الدنيا إلى الآخرة ،
ومن موقف الشك والارتياح إلى موقف للواجهة والمفاجأة ، يشير إلى حقيقة قائمة لو أذن الله
بها لانكشفت لهم . في الوقت الذي يصور لهم هذه الحقيقة تصويرا يهز مشاعرهم .

ولقد كانوا يترصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والخفة للؤمنة التي معه أن يهلكوا
فيسترهبوا منهم ؛ وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، فتسكن هذه الزوينة
التي أثارها الدعوة في صفوفهم . كما كانوا يتجحون أحيانا فيزعمون أن الله سيهلك محمدا ومن
معه لأنهم ضالون ، ولأنهم يكذبون على الله فيا يقولون : فيها أمام مشهد الحشر والجزاء ، ينههم
إلى أن آمنيتهم حتى لو تحققت لا تصممهم من عقاب الكفر والضلال ، فأولى لهم أن يتدبروا
أمرهم قبل هذا الوعد الذي واجههم به كأنه واقع بهم :
« قل : أرايتم إن أهلكني الله ومني أو رحمتا ، فمن يغير الكافرين من عذاب
إليم ؟ » . .

وهو سؤال يردم إلى تدبر حالهم ، والتفكير في شأنهم ، وهو الأولى ! فما ينفعهم أن تتحقق أمانهم فهلك الله النبي ومن معه - كما لا يتقدم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه . والله باق لا يموت . وهو الذي ذرأهم في الأرض وإليه يحشرون ..

ولكنه لا يقول لهم : فمن يحيركم من عذاب أليم ؟ ولا ينص على أنهم كافرون . إنما يلوح لهم بالعذاب الذي ينتظر الكافرين : « فمن يحير الكافرين من عذاب أليم » .. وهو أسلوب في الدعوة حكيم . يخوفهم من ناحية ، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلو جابههم بأنهم كافرون ، وأنه لا مفر لهم من العذاب الأليم .. فرجأ جهلوا وحققوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام للباشر والتهديد .

ففي بعض الحالات يكون أسلوب التليخ أفضل في النفس من أسلوب التصريح ! ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين ، إلى تقرير موقف للؤمنين من ربهم وقتهم به وتوكلهم عليه . مع التليخ إلى اطمئنانهم لإيمانهم ، وقتهم بهدمهم ، وبأن الكافرين في ضلال مبين .

« قل : هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو في ضلال مبين » .. وذكر صفة « الرحمن » هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله وللؤمنين معه ؛ فهو لن يهلكهم كما يتخفى الكافرون أو كما يدعون .

ويوجه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى إبراز الصلة التي تربطهم بربهم الرحمن . صلة الإيمان « آمنا به » .. وصلة التوكل « وعليه توكلنا » .. عليه وحده .. والتبشير بقرى بينهم وبين الرحمن . والله - سبحانه - هو الذي يفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القرى ، ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما يقول له : لا تخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موسولون في متسبون إلى . وأنت مأذون مني أن تظهر هذه الكرامة ، وهذا القام ! قل لهم ... وهذا ودمن الله وتمكريم ..

ثم ذلك التهديد للوقوف : « فستعلمون من هو في ضلال مبين » .. وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ؛ ويدعوم إلى مراجعة موقفهم عاقبة أن يكونوا هم الضالين ! فيشرعوا للعذاب الذي سبق ذكره في الآية : « فمن يحير الكافرين من عذاب

ألم ؟ » وفي الوقت ذاته لا يجههم بأنهم ضالون فملا ، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب في الدعوة يناسب بعض حالات النفوس . .

وأخيرا يجيء الإيقاع الأخير في السورة يلوح لهم بمذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول . وهو الماء :

« قل : أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا لمن يأتسكم بماء معين ؟ » . .

ولماء النور : الفائز الداهب في الأرض لا يقدر على . وللمين : التابع الفائض للتدفق . وهي لمسة قريبة في حياتهم ، إن كانوا مازالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه . . وللك يد الله وهو على كل شيء قدير . فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ! ثم بدعهم يدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحدث !

وهكذا تنتهي هذه السورة ، وينتهي هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات ، وهذه الرحلات والجولات . في آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعا خاصا . أو كانت رحلة في عالم مجهول مغيب ، أو منظور لا تلتفت إليه الأنظار والقلوب .

إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هي سهام تشير إلى بعيد ، ويكاد كل سهم يستغل بكشف عالم جديد !

وهي تبني من قواعد التصور الإسلامي جوانب رئيسية هامة ؟ فهي تقرر في الضمير حقيقة القدرة للطفلة ، وحقيقة الهيمنة للطفلة . وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيدا للحشر والجزاء . وحقيقة السكال والجمال في صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق ، وحضوره — سبحانه — مع كل مخلوق . . . وجملة من هذه الحقائق التي يقوم عليها تصور السلم لربه . وتصوره للوجود وارتباطه بمخالف الوجود . هذا التصور الذي ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذي يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه ، واستقباله للحياة . . .

سُورَةُ الْقَلَمِ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُنْجِنُونَ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
تَمْنُونَ * وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * يَا أَيُّكُمُ الْمُنْتَوُونَ * إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَنْ سَبِيلُهُ * هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَدِينَ * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ *
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلْفٍ مِثْلٍ * هَذَا مِثْلُ مَا بِهِمْ * مَنَاجِ
لَاخِيَرٍ مُنْتَدٍ أَيْمٍ * عَقَلٌ بِمَذَلِكِ رَبِّهِمْ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ .

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ *
وَلَا يَسْتَنْتَوُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالْعِرَيمِ *
فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَلَمْ نَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ حَرِّ رَبِّكَ أَنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا
وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرٍِّ قَادِرِينَ *
فَلَمْ يَرَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ تَحْنُ خُرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : لَوْ لَا
تُسَبِّحُونَ ؟ * قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتْلَوْنَ * قَالُوا : يَا وَيْلَتَنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ،
إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * .. كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ :»

« إِنْ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ؟ * إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْيُرُونَ ! * أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بِاللَّغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ؟ * سَلَامٌ أُولَئِكَ زَعِيمٌ ؟ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ؟ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ، وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَالِكُونَ .

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبُ بِهَذَا الْخُلْدِيثِ ، سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْلَمُونَ * وَأَمْلِي لَهُمْ ، إِنْ كِيدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ؟ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ؟

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُلُوتِ إِذْ نَادَى 'وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِفْسٌ مِنْ رَبِّهِ لَتَنَبَّأَ بِالْمَرْءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

« وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » . .

لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة . سواء مطلقاً أو مجتلياً . كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلقاً قد نزل أولاً ، وأن سائرهما نزل أخيراً - ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد ، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقولهم : إنه مجنون !

والروايات التي تقول : إن هذه السورة هي الثانية في النزول بعد سورة الملق كثيرة ، ومن للفقهاء عليه في ترتيب الصحاح المختلفة أنها هي السورة الثانية ؛ ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليؤكد يتبين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التي

جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، فتقول عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك القولة الفاجرة ؛ وأخذ القرآن يرددها وينفيها ، ويهدد للناهضين للدعوة ، ذلك التهديد الوارد في السورة .

واحتمل أن مطلع السورة نزل مبكرا وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون للنبي فيه : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. جاء بمناسبة ما كان يتخوفه النبي - صلى الله عليه وسلم - على نفسه في أول الوحي ، من أن يكون ذلك جنونا أصابه .. هذا الاحتمال ضئيف . لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة ، ولأن سياق السورة للباسك يدل على أن هذا النبي ينصب على ما جاء في آخرها من قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهذا هو الأمر الذي افتتح السورة بنفيه ، كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة للتأسك الحلقات .

كذلك ذكرت بعض الروايات أن في السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهي الآيات التي ذكرت قصة أصحاب الجنة وأبلاهم ، والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الحسين وهي التي تشير إلى قصة صاحب الحوت . . ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق في مكته . وهو أنسب شيء لأن يجيء في سياق السورة عند نزولها متسقاً مع الموضوع ومع الحالة التي تعالجها .

والذي نرجعه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ؛ وأنها نزلت بعد فترة من البشة النبوية بعد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له : « وأنذر عشيرتک الأقرین » . وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم ، التي قال عنها قائلهم : « أساطير الأولین » .. وبعد ما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب النيفة التي اقتضت تلك الحملة النيفة الواردة في السورة على المكذبين ، والتهديد القاسم في أولها وفي آخرها على السواء . والشهد الأخير في السورة يوحى بهذا كذلك : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك في أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولانلق إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شيء من هذا - كما تقول الروايات الراجعة - إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

والسورة تشير إلى شيء من عروض للشركين على النبي - صلى الله عليه وسلم - للاتقاء في منتصف الطريق ، والتهادن على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة : « ودوا لو تدهن فيدهنون » .. وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية ، ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها ، وشمور للشركين بخطرها .

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل - قابلة للزيادة - بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يقل أن ثلاث سنوات مرت لم ينزل فيها قرآن . والطبعي أن تكون هناك سور كثيرة ، وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة ، تحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للكاذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا يفي أن تكون هذه السورة وسورتا اللذر والزلزل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في الصحاح ، للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي الزلزل واللذر .



لقد كانت هذه الفرسة - غرسة العقيدة الإسلامية - تودع في الأرض لأول مرة في صورتها الريفية المجردة الناصة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة ، لافي الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأرض جميعا .

وكانت النقطة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش ، ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم ، وبين الصورة الباهرة العظيمة للسقمية الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد - صلى الله عليه وسلم - متفقة في أصولها مع الحنيفية الأولى - دين إبراهيم عليه السلام - وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض ، الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقطة عظيمة بين الشرك بالله وتمدد الأرباب ، وعبادة لللائكة وتماثيلها ، والتبذ للجن وأرواحها ، وسائر هذه التصورات للضطربة للفسكة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية .. وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها ، وتملق لإرادتها بكل مخلوق .

كذلك كانت الثقة عظيمة بين الطبقة السائدة في الجزيرة، والكهنة السائدة في ديانتها، واختصاص طبقات بالذات بالسياحة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين المرب الآخرين . . وبين البساطة والساواة أمام الله والاتصال المباشر بينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت الثقة بين الأخلاق السائدة في الجاهلية والأخلاق التي جاء القرآن يبشر بها، وجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه الثقة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها . فقد كان إلى جانبها اعتبارات - ربما كانت أضخم في تقدير قريش من العقيدة ذاتها - على ضغانتها !

كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التي دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم: « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . . والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع شرف نسبه، وأنه في الذؤابة من قريش، لم تكن له مشيخة فيهم ولا رئاسة قبل البثمة . بينا كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرها، في بيئة تجعل للمشايخة والرئاسة القبلية كل الاعتبار . فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء للشيخة !

وكانت هناك الاعتبارات الماثلية التي تجعل رجلا كأبي جهل (عمرو بن هشام) يأبى أن يسلم بالحق الذي يواجهه بقوة في الرسالة الإسلامية، لأن نبيا من بني عبد مناف . . وذلك كما ورد في قصتهم الأخنس ابن شريق وأبى سفيان ابن حرب، حين خرجوا ثلاث ليل يستمعون القرآن خفية، وهم في كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع في نفوسهم شيء . فلما سأل الأخنس ابن شريق أباه عن رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه: « ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا . حق إذا تجأنا على الركب، وكنا كفرنس رهان، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فحق ندرك مثل هذه ؟ والله لا تؤمن به أبدا ولا تصدقه ! » .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية. ونفسية من ركام الجاهلية في الشعائر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الفكرة الجديدة في مغرسها بكل وسيلة قبل أن

ثبت جذورها وتعمق ، وقبل أن تمتد فروعها وتتشابك . وخاصة بعد أن تجاوزت دور الدعوة الفردية ، وأمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجهز بالدعوة ، وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز ، كما أخذ القرآن يتنزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآلهة للدعاة والتصورات للحرقة والتقاليد الباطلة .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - ولو أنه نبى ، ولو أنه يتلقى من ربه الوحي ، ولو أنه يتصل بالملأ الأعلى . . هو بشر ، تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة ، وتلك الحرب التي عنها عليه للشركون ، ويعانى وقعها النيف الأليم ، هو والحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

وكان - صلى الله عليه وسلم - يسمع ولؤمنون به يسمعون ، ما كان يقول عليه للشركون ، ويتناولون به على شخصه الكريم ، « ويقولون : إنه لجنون » . . ولم تكن هذه إلا واحدة من السخریات الكثيرة ، التي حكاها القرآن في السور الأخرى ، والتي كانت توجه إلى شخصه - صلى الله عليه وسلم - وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يسبب الكثيرين منهم على أبعدى أقربائهم الأقربين !

والسخرية والاستهزاء - مع الضعف والقلة - مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية . ولو كانت هي نفس رسول .

ومن ثم نرى في السور السكينة كسور هذا الجزء - أن الله كأنما يحتضن - سبحانه - رسوله والحفنة المؤمنة معه ، ويواسيه ويسرى عنه ، ويشى عليه وعلى المؤمنين . ويرى النصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبينا الكريم . وينبئ مايقوله للتقولون عنه ، ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ، ويضفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - :
« ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم » . .

وقوله تعالى عن المؤمنين :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل للكافرين ؟ ما لكم ؟ كيف تحسبون ؟ » . .

ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين :

« ولا تطلع كل خلاف مهين . هاز مشاء بنيم . منع للخير ممتد أئيم . عتل بمد ذاك زئيم .
أن كان ذاك مال وبنين . إذا تلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . نسمنه على الخرطوم ا » ..
ثم يقول عن حرب للكذابين عامة :
« فذرفني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يسلون . وأملى لهم إن
كيدى متين » ..

وذلك غير عذاب الآخرة للذل للتكبرين :

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم
خلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..
ويضرب لهم أصحاب الجنة - جنة الدنيا - مثلاً على عاقبة البطر . تهديدا للكبراء قرش
المنزئين بأموالهم وأولادهم بمن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب مالم من مال وبنين .
وفي نهاية السورة يوصي النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر الجميل : « فاصبر لحكم ربك
ولا تكن كصاحب الحوت » ..

« ومن خلال هذه اللواسة وهذا الثناء وهذا التشيت ، مع الجملة القاصمة على الكذابين
والتهديد الرهيب ، يتولى الله سبحانه - بدأتمحرهم في ذلك الأسلوب النيف .. من خلال هذا
كله بتبين ملامح تلك الفترة . فترة الضعف والقلة ، فترة للمانة والشدّة ، وفترة المحاولة القاسية
لغرس تلك النمرة السكرية في تلك التربة المنيّة ا

كذلك نلح من خلال أسلوب السورة وتفسيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التي كانت الدعوة
الإسلامية تواجهها . وهى ملامح فيها سداجة وبدائية في التصور والتفكير والشاعر
والاهتمامات والمشكلات على السواء :

نلح هذه السداجة في طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - « إنه
لجنون » ا وهو اتهام لاحبكة فيه ولا براعة ، وأسلوب من لا يبعد إلا الشتمة القليظة قولها بلا
تمهيد ولا برهان ، كما يفعل السنج البدائيون .

ونلحها في الطريقة التي يرد الله بها عليهم فريتهم ردا يناسب حالهم : « ماأنت بنعمة ربك
بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لملى خلق عظيم . فستبصر . ويصرون . بأبيكم

الفتون » . . وكذلك في التهديد المكشوف العنيف : « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث .
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدي متين » .

ونلمحها في رد هذا السب على رجل منهم : « ولانطع كل حلاف مهين . هاز مشاء بنميم .
مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك ذئب ... » .

ونلمحها في القصة - قصة أصحاب الجنة التي ضربها الله لهم . وهي قصة قوم سذج في تهكيرهم
وتصورهم وبطورهم ، وفي حركاتهم كذلك وأقوالهم « وهم يتخافتون . ألا يدخلها اليوم عليكم
مسكين .. الخ » .

وأخيرا نلح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل : « أم لكم كتاب فيه تدرسون :
إن لكم فيه لما تخفرون ؟ أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟
سلمهم أيهم بذلك زعيم ؟ » . . .

وهي ملاحظ تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني ، وتفيد في دراسة السيرة ووقائمه
وخطوات الدعوة فيها ؟ ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وتلك الجماعة في أواخر
عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومدى ما نقلها من هذه السذاجة في التكبير والتصور
والشعور والاهتمام . كما يتضح في أساليب الخطاب فيها بعد ، وفي الحقائق والشاعر والتصورات
والاهتمامات بعد عشرين عاما لازيد . وهي في حياة الأم ومضة لا تذكر . ولا تقاس إليها تلك
الثقلة الواسعة الشاملة . . التي انتقلت الجماعة في هذا الوقت القصير . والتي تسلمت بها قيادة
البشرية طارضت بصورتها وأخلاقها إلى القمة التي لم ترضع إليها قيادة قط في تاريخ البشرية .
لامن ناحية طبيعة العقيدة ، ولامن ناحية آثارها الواقعية في حياة الإنسان في الأرض ، ولامن
ناحية السمة والشمول تضم الإنسانية كلها بين جوانحها في سماحة وعطف ، وفي تلبية
لكل حاجاتها الشورية ، وحاجاتها الفكرية ، وحاجاتها الاجتماعية ، وحاجاتها التنظيمية في
حقى الليادين ..

إنها المعجزة تتجلى في الثقلة من هذه السذاجة التي تبدو ملامحها من خلال مثل هذه
السورة إلى ذلك العمق والشمول . وهي ثقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة ، والضعف
إلى قوة . لأن بناء النفوس والقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف .

« ن ، والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون .

وإنك لعل خلق عظيم . فمتبصر ويصرون . بأيسر للفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع للكافرين . ودوا لوطدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هواز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بسد ذلك زميم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . منفسه على الخراطوم ..

يقسم الله — سبحانه — بنون . وبالقلم . وبالكتابة . والعلاقة واضحة بين الحرف (نون) . بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة . . فأما القسم بها فهو تمظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة . في الوقت الذي كان دورها للتقدم لها في علم الله يتطلب نمو هذه القدرة فيها ، وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . . وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

وعما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحي بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .. وأن يكون هذا الخطاب موجهاً للنبي الأُمي — الذي قدر الله أن يكون أمياً لحكمة معينة — ولكنه بدأ الوحي إليه منوهاً بالقراءة والتعليم بالقلم . ثم أكد هذه اللفتة هنا بالقسم بنون ، والقلم وما يسطرون . وكان هذا حلقة من النهج الإلهي لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذي قدره لها في علمه للكون .



يقسم الله — سبحانه — بنون والقلم وما يسطرون ، منوهاً بقيمة الكتابة مظهراً لأهميتها كما أسلفنا لئلا ينسى عن رسوله — صلى الله عليه وسلم — تلك القرية التي رماها للشركون ، مستبعداً لها ، ونمته على رسوله ترفضها .

« ما آتت بنعمة ربك بجنون » ..

فيثبت في هذه الآية القصيرة وينفي . . يثبت نعمة الله على نبيه ، في تسيير يوحى بالقرين والودة : حين يضيف سبحانه إلى ذاته : « ربك » . وينفي تلك الصفة للفترة التي لا تجتمع مع نعمة الله ، على عبد نسيه إليه وقرينه واسطفاه . .

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قومه ، من قولتهم هذه عنه ، وهم الذين علوا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأمين ، وظلوا يستودعونهم أماناتهم حتى يوم هجرته ، بعد عدائهم العنيف له ، فقد ثبت أن عليا - كرم الله وجهه - تخلف عن رسول الله أياما في مكة ، ليرد إليهم ودائعهم التي كانت عنده ، حتى وهم يحادونه ويمادونه ذلك المداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل نبوته؟ قال أبو سفيان - وهو عدوه قبل إسلامه - لا ، فقال هرقل : ما كان ليدرك الكذب على الناس ويسكذب على الله !

إن الإنسان ليأخذ العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذي يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم ، للشهور بينهم رجاحة العقل وبالخلق القويم . ولكن الحق يدعى ويصم ، والترض يقذف بالقرية دون تخرج ، وأثابها يصف قبل كل أحد ، أنه كذاب أثيم !

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون » . . هكذا في عطف وفي إنسان وفي تكريم ، ردا على ذلك الحق الكافر ، وهذا الاقتراء التميم .
« وإن لك لأجرا غير ممنون » . .

وإن لك لأجرا دائما موصولا ، لا ينقطع ولا ينتهي . أجرا عند ربك الذي ألهم عليك بالنبوة ومقامها الكريم . . وهو إنسان كذلك وتسرية وتمويس فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به الشركون . وماذا فقد من يقول له رب : « وإن لك لأجرا غير ممنون » ؟ في عطف وفي مودة وفي تكريم ؟

ثم تحيى الشهادة الكبرى والتكريم العظيم :

« وإنك لمن خلق عظيم » . .

وتجواب أرجاء الوجود بهذا التناء الفريد على النبي الكريم : وثبت هذا التناء المألوف في صميم الوجود !

ويسجز كل قلم ، ويسجز كل تصور ، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود ،

وهي شهادة من الله ، في ميزان الله ، لبيد الله ، يقول له فيها : « وإنك لعلى خلق عظيم » .
وبدلوا الخلق العظيم هو ماهو عند الله بما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين !
ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد - صلى الله عليه وسلم - تبرز من نواح شتى :
تبرز من كونها كلمة من الله الكبير للتمال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت في كيانه ،
وتردد في اللاأ الأعلى إلى ما شاء الله .

وتبرز من جانب آخر . من جانب إطاقه محمد - صلى الله عليه وسلم - لتلقيها . وهو يعلم
من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة . ماهو ؟ ما عظمتها ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداهها ؟ ما صدادها ؟
ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة للطلقة ، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .
إن إطاقه محمد - صلى الله عليه وسلم - لتلقى هذه الكلمة . من هذا الصدر . وهو ثابت .
لا ينسحق تحت ضغطها المائل - ولو أنها تامل - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقيه
لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن .. هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل .
ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة ، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة . وكان
واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدلائلها من كل شيء
آخر . أعظم بصورها عن العلي الكبير . وأعظم بتلقى محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير .
وبقائه بعدها ثابتا راسخا مطمئنا . لا يتكبر على البعاد ، ولا يتنفس ، ولا يتعاطف ، وهو الذي
ممع ماصع من العلي الكبير !

والله أعلم حيث يعمل رسالته . وما كان إلا محمد - صلى الله عليه وسلم - بعظمة نفسه هذه
- من يعمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى . فيكون كفئا لها ، كما
يكون صورة حية منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشمول ، والصدق والحق ، بحيث لا يحملها
إلا الرجل الذي يثنى عليه الله هذا الثناء . فتطيق شخصيته كذلك تلقى هذا الثناء . في تماسك
وفي توازن ، وفي طمأنينة . طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا
الثناء العظيم . ثم يتلقى - بعد ذلك - عتاب ربه له ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته ، بذات
التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة . ويملن هذه كما يملن تلك ، لا يكتم من هذه شيئا
ولا تلك .. وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم . والبعد الطائع . والبلغ الأمين .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة . وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة . وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه بشر . وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة للردوجة أن يراها ولا يحدد مداها . وأن يشير إلى مسارها البكونى دون أن يحدد هذا المسار !

ومرة أخرى أجد نفسى مشدودا للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهذه الكلمة من ربه ، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان . . . لقد كان - وهو بشر - يثنى على أحد أصحابه ، فيزكيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم . . وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر . وأصحابه يدركون أنه بشر . إنه يني نعم . ولكن في الدائرة المعلومة الحدود . دائرة البشرية ذات الحدود . . فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله . وهو يعلم من هو الله . هو بخاصة يعلم من هو الله ! هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه . ثم يصطبِر . ويتماسك ويتلقى ويسير . . . إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير !!!

إنه محمد - وحده - هو الذى يرقى إلى هذا الأفق من العظمة . . إنه محمد - وحده - هو الذى يبلغ قمة الكمال الإنسانى الجانسي لنفخة الله فى الكيان الإنسانى . إنه محمد - وحده - هو الذى يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمة الإنسانية ؟ حتى تتمثل فى شخصه حية ، تمتشى على الأرض فى إهاب إنسان . . إنه محمد - وحده - الذى علم الله منه أنه أهل لهذا المقام . والله أعلم حيث يجعل رسالته - وأعلن فى هذه أنه على خلق عظيم . وأعلن فى الأخرى أنه - جل شأنه - تهدست ذاته وصفاته . يصلى عليه هو وملائكته « إن الله وملائكته يصلون على النبي » . . وهو - جل شأنه - وحده القادر على أن يهب عبدا من عباده ذلك الفضل العظيم . .



ثم إن لهذه اللفظة دلالتها على تمجيد الناصر الأخلاقى فى ميزان الله ؟ وأصالة هذا الناصر فى الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

والناظر فى هذه العقيدة ، كالناظر فى سيرة رسولها ، يجد الناصر الأخلاقى بارزا أصيلا فيها ، تفرم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء . . الدعوة الكبرى فى هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتها مما للنية والضمير ؟ والتهى عن الجور والظلم والحداد والنش وأكل

أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور .. والتصرّيات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة المنصر الأخلاقى فى الشعور والسلوك ، وفى أعماق الضمير وفى واقع المجتمع . وفى العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء .

والرسول الكريم يقول : « إنما بشت لأتم مكارم الأخلاق » .. فىلخص رسالته فى هذا الهدف النبيل . وتتوارد أحاديثه ترى فى الحس على كل خلق كريم . وتقوم سيرته الشخصية مثالا حيا وصفحة قيمة ، وصورة رفيعة ، تستحق من الله أن يقول عنها فى كتابه الخالد : « وإنك لملى خلق عظيم » .. فىمجد بهذا الثناء نبىه - صلى الله عليه وسلم - كما فىمجد به المنصر الأخلاقى فى منهجه الذى جاء به هذا النبى الكريم . ويشد به الأرض إلى السماء ، ويسلق به قلوب الراضعين إليه - سبحانه - وهو يدلم على ما يحب ويرضى من الخلق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار القد فى أخلاقية الإسلام . فى أخلاقية لم تتبع من البشة ، ولامن اعتبارات أرضية إطلاقا ؛ وهى لاتستمد ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتفاعات التى كانت قائمة فى الجليل . إنما تستمد من السماء وتستمد على السماء . تستمد من هتاف السماء للأرض لى تتطلع إلى الأفق . وتستمد من صفات الله للطلقة لىحقها البشر فى حدود الطاقة ، كى يحققوا إنسانيتهم العليا ، وكى يصبحوا أهلا لتسكريم الله لهم واستغلافهم فى الأرض ؛ وكى يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى : « فى مقعد صدق عند ملك مقدر » .. ومن ثم فى غير مقيدة ولا محدودة بمحدود من أى اعتبارات قائمة فى الأرض ؛ إنما هى طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر ، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد . ثم إنما ليست فضائل مفردة : صدق . وأمانة . وعدل . ورحمة . وبر ... إنما هى منهج متكامل ، تعاون فى الترية التهديبية مع الشرائع التنظيمية ؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها وأعمالها جميعا ، وتنتهى فى خاتمة اللطف إلى الله . لا إلى أى اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة !

وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكألما وجمالها وتوازنها واستقامتها وإطرادها وثباتها فى محمد - صلى الله عليه وسلم - وتمثلت فى ثناء الله المنظم ، وقوله : « وإنك لملى خلق عظيم » ..

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع الشركيين ، الذين رموه بذلك البهت اللئيم ؟ ويهدمهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم للبين :

« فستبصر ويصرون . بأيكم المقتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . .

والمقتون الذين يطمئن الله نبيه إلى كشفه وتعيينه هو الضال . وأهو الممتحن الذي يكشف الامتحان عن حقيقته . وكلا للدلولين قريب من قريب .. وهذا الوعد فيه من الطمأنينة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين معه ، بقدر ما فيه من التهديد للناتئين له للفتن عليه .. أيا كان مدلول الجنون الذي رموه به . والأقرب إلى الظن أنهم لم يكونوا يقصدون به ذهاب العقل . فالواقع يكذب هذا القول . إنما كانوا يظنون به مخالطة الجنة له ، وإلحاحهم إليه هذا القول الغريب البديع - كما كانوا يظنون أن لكل شاعر شيطانا هو الذي يمد يديع القول - وهو مدلول بريد عن حقيقة حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وغريب عن طبيعة ما يوحى إليه من القول الثابت الصادق للستقيم .

وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبه . ويثبت أيهم الممتحن بما هو فيه ؟ أو أيهم الضال فيما يدعيه . ويطمئنه إلى أن ربه « هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . . وربه هو الذي أوحى إليه ، فهو يعلم أنه المهتدي ومن معه . وفي هذا ما يطمئنه وما يقلق أعداءه ، وما يثبت في قلوبهم التوجس والقلق لما سيحيي .

ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم ، وحقيقة مشاعرهم ، وهم يخافونه ويحادلونه في الحق الذي معه ، ويرمونه بما يرمونه ، وهم مزععو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية ، التي يتظاهرون بالتسميم عليها . إنهم على استمداد للتخلي عن الكثير منها في مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعونه إليه على استمداد أن يدهنوا ويلينوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكي يدهن هو ولم ويلين .. فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق . وإنما هم أصحاب ظواهر يهيمهم أن يستروها :

« فلا تطع المكذبين . ودوا لوتدهن فيدهنون » . .

فهي المساومة إذن ، والالتقاء في منتصف الطريق . كما يفعلون في التجارة . وفرق بين

الاعتماد والتجارة كبيراً فصاحب العقيدة لا يتخلل عن شيء منها ؛ لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس في العقيدة صغير وكبير . إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لا يقطع فيها صاحبها أحداً ، ولا يتخلل عن شيء منها أبداً .

وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا في أي طريق . وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان . جاهلية الأمس وجاهلية اليوم ، وجاهلية التمدد كلها سواء . إن الهوة بينها وبين الإسلام لاتعبر ، ولا تقام عليها قنطرة ، ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو التضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق !

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به للشركون للنبي صلى الله عليه وسلم ليدهن لهم ويلين ؟ ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم ، أو يتأبمهم في شيء مما هم عليه ليتأبوه في دينه ، وهم حافضون ماء وجوههم أمام جماهير العرب اعلى عادة للساومين الباحثين عن أنصاف الحلول ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان حاسماً في موقفه من دينه ، لا يدهن فيه ولا يلين . وهو فيما عدا الدين ألين لخلق جانبنا وأحسنهم معاملة وأبرهم بمشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير . فأما الدين فهو الدين ! وهو فيه عند توجيهه ربه : « فلا تطلع للكذابين » !

ولم يساوم - صلى الله عليه وسلم - في دينه وهو في أخرج للواقف العvisية في مكة . وهو محاصر بدعوته . وأصحابه القلائل يتخطفون ويمذبون ويؤذون في الله أشد الإيذاء وهم صابرون . ولم يسكت عن كلمة واحدة ينهى أن يقال في وجوه الأقوياء المتجبرين ، تأليفاً لقلوبهم ، أو دفعا لأغذام . ولم يسكت كذلك عن إصباح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد . .

روى ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق قال :

« فلما أبدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه بالإسلام . وصعد به كما أمره الله ، لم يمد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها . فلما فصل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوتهم - إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون - وحذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمه أبو طالب ومنمه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أمر الله مظهراً لأمره ، لا يرده عنه شيء .

« فلما رأيت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يمتهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ،

مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب .. عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان ابن حرب ابن أمية . وأبو البختری واسمه العاص ابن هشام . والأسود ابن المطلب ابن أسد . وأبو جهل (واسمه عمرو ابن هشام وكان يكنى أبا الحكم) والوليد ابن المغيرة ، ونيبه ومنبه ابنا الحجاج ابن عامر . . أو من مشى منهم .. فقالوا : يا أبا طالب . إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فلما أن تكفه عنا وإما أن نخلى بيننا وبينه ، فلأنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ؟ فكيفيك ! فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، وردم ردا جيلا ، فانصرفوا عنه .

« ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما هو عليه : يظهر دين الله ، ويدعو إليه . ثم شري (١) الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتذامروا (٢) فيه . وحض بعضهم بعضا عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى . فقالوا : له يا أبا طالب . إن لك سنا وشرفا ومزلة فينا . وإننا قد استنهيئك من ابن أخيك فلم تنه عنا ؟ وإننا والله لانصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا له . . ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم ولا خذلانه . قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب ابن عقبة ابن المغيرة ابن الأخنس ، أنه حدث ، أن قريشا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بثت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له : يا ابن أخي . إن قومك قد جاءوني فقالوا لي : كذا وكذا (للذي كانوا قالوا له) فأبى على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق . قال : فظن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسله وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عم والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه مازكرته » . . قال : واستبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكي . ثم قام . فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي . قال : فأقبل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلك لشيء أبدا .

(١) زاد واشتد .

(٢) تبتغوا وحض بعضهم بعضا عليه .

فهذه صورة من إصرار النبي - صلى الله عليه وسلم - على دعوته في اللحظة التي تخلى عنه
فيها عمه . حاميه وكاقيه . وآخر حصن من حصون الأرض يمنه للترصين به للذمارين فيه !
هذه هي صورة قوية رائعة جديدة في نوعها من حيث حقيقتها ، ومن حيث صورها وظلالها
ومن حيث عباراتها وألفاظها ... جديدة جدة هذه العقيدة ، رائحة روعة هذه العقيدة ، قوية
قوة هذه العقيدة . فيها مصداق قول الله العظيم : « وإنك لملئ خلق عظيم » .
وصورة أخرى رواها كذلك ابن إسحاق ، كانت في مساومة مباشرة من المشركين لرسول
الله - صلى الله عليه وسلم - بعد إذ أعيام أمره . ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تعذبه وتفتته
عن دينه .

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : حدثت أن
عتبة ابن ربيعة وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - جالس في المسجد وحده : يامشر قريش . ألا أقوم إلى محمد فأكله وأعرض عليه أمورا
له لم يقبل بعضها فتعطيه أيما شاء ويكشف عنا ؟ وذلك حين أسلم حزة ، ورأوا أصحاب رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يزيدون ويكثر . فقالوا : يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام
إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا ابن أخي . إنك منا حيث
علمت : من السلطة (١) في المشيرة وللكان في النسب ؛ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ،
فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من
آبائهم . فاصمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضا . قال : فقال له رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل يا أبا الوليد اسمع » . قال : يا ابن أخي . إن كنت إنما
تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمنا لك من أموالنا حتى تكون أكرثنا مالا . وإن
كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا تقطع أمرا دونك . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك
علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رياء تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك العطب وبدلنا
فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ! أو كما قال له -
حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستمع منه قال : « أقد فرغت يا أبا
الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أسمع . فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم .

(١) أي للثروة الرفيعة المهيبة .

حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا
فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا : قلوبنا في أكنة بما تدعوننا إليه ، وفي أذاننا وقر ،
ومن بيننا وبينك حجاب ، فأعلم إننا عاملون . قل : إنا أنأنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إله
واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . . » ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها
يسمع منه . ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : « قد
سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك » .. فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف
بالله لقد جاءكم أبو الوليد بخبر الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟
قال : ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا
بالكهانة ، يا مشر قريش أطيعوني ، واجعلوا بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ،
فاعزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه
بغيركم . وإن يظهر على العرب فلسك بملككم ، وعزه عزم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا :
سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى قوله تعالى :
« فإن أعرضوا قل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . فقام مدعورا فوضع يده
على فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : أنشدك الله والرحم يا محمد ، وذلك عخافة أن
يقع النذير . وقام إلى القوم فقال ما قال !

وعلى أية حال فهذه صورة أخرى من صور للسماوة . وهى كذلك صورة من صور الخلق
العظيم . تبدو في أدبه - صلى الله عليه وسلم - وهو يستمع إلى عتبة حتى يفرغ من قوله الفارغ
الذى لا يستحق الانتباه من مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - في تصويره لقيم هذا الكون .
وفي ميزانه للحق ولعرض هذه الأرض . ولكن خلقه يحسك به لا يقطع ولا يتجمل ولا يفضب
ولا يضجر ، حتى يفرغ الرجل من مقاتله ، وهو مقبل عليه . ثم يقول في هدوء : « أقدر فرخت
يا أبا الوليد ؟ » زيادة في الإيمان والتوكيد . إنها الطمأنينة الصادقة للحق مع الأدب الرفيع في
الاستماع والحديث .. وهما مما بض دلالة الخلق العظيم .

وبصورة ثالثة للسماوة فيما رواه ابن اسحاق قال :

« واعترض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالكعبة - فبا بلقى الأسود ابن للطلب ابن أسد ابن عبدالمزى والوليد ابن للغيرة ، وأمية ابن خلف ، والناس ابن وائل السهمي . وكانوا ذوى أسنان في قومهم . فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعيد مانعبد ، وتعبد مانعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر . فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه . فأنزل الله تعالى فيهم : « قل : يا أيها الكافرون . لا أعبد مانعبدون » : السورة كلها ..
وحسب الله للماومة للضحكة بهذه للفاصلة للجازمة . وقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أمره به أن يقول ...



ثم يبرز قيمة المنصر الأخلاقى مرة أخرى في نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن إطاعة أحد هؤلاء للكافرين بالذات ، ويصفه بصفاته للزرية للغيرة ، وتوعده بالإذلال والمهانة : « ولا تطع كل حلاف مهين . هاز مشاء بنميم . مناع للخير ممتد أئيم . عتل بسد ذلك زينم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين - نسئمه على الخراطوم » ..

وقد قيل : إنه الوليد ابن للغيرة ، وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة للدثر : « ذرى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا ، وبين شهودا ، ومهدت له تمجيدا . ثم يطعم أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صمودا . إنه فكر وقدر . قتل كيف قدر ؟ ثم قتل كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدير واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر » ..

ورويت عنه مواقف كثيرة في الكيد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنذار أصحابه ، والوقوف في وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله . . كما قيل : إن آيات سورة القلم نزلت في الأخنس ابن شريق .. وكلاهما كان من خصاموا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولجوا في حربه والتأليب عليه أمدا طويلا .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة ، والتهديدات القاسمة في السورة الأخرى ، وفي سواها ، شاهد على شدة دوره سواء كان هو الوليد أو الأخنس الأول أرجح . في حرب الرسول والدعوة ، كما هي شاهد على سوء طوبته ، وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميمة ..
فهو حلاف .. كثير الحلف . ولا يكثر الحلف إلا الإنسان غير صادق ، يدرك أن الناس
يكذبونه ولا يثقون به ، فيحلف ويكثر من الحلف ليدارى كذبه ، ويستجلب ثقة الناس .
وهو مهين .. لا يحترم نفسه ، ولا يحترم الناس قوله . وآية مهانته حاجته إلى الحلف ، وعدم
ثقتة بنفسه وعدم ثقة الناس به . ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه . فالمهانة صفة نفسية تلصق
بالمرء ولو كان سلطانا طاغية جبارا . والمزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من
كل أعراض الحياة الدنيا !

وهو هاز .. يهزئ بالناس ويسبهم بالقول والإشارة في حضورهم أوفى غيبتهم سواء . وخلق
الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية ؛ فهو يخالف للرودة ، ويخالف أدب النفس ، ويخالف
الأدب في معاملة الناس وحفظ كراماتهم صفروا أم كبروا . وقد تكرر ذم هذا الخلق في القرآن
في غير موضع ؛ قال : « ويل لكل همزة لمزة » .. وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم
من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلتزوا
أنفسكم . ولا تباذروا بالألقاب » وكلها أنواع من الهمز في صورة من الصور ..

وهو مشاء بنميم . يمشى بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، ويذهب بموداتهم .
وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين ، لا يتصف به ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه أو يرجو
لنفسه احتراماً عند الآخرين . حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام ، ناقل الكلام ،
المشاء بالسوء بين الأوداء . حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له ليعتصمونه في قرارة
نفوسهم ولا يودونه .

ولقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ينهى أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه حتى
صاحب من أصحابه . وكان يقول : « لا يلقى أحد عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن
أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (١) .

وثبت في الصحيحين من حديث عناه عن طلوس عن ابن عباس قال : مر رسول الله
— صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم — بقرين ، فقال . « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير .
أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن حذيفة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يدخل الجنة قتات » أى عام (ورواه الجماعة إلا ابن ماجه) .

وروى الإمام أحمد كذلك - بإسناده - عن يزيد ابن السكن . أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الذين إذا رأوا ذكر الله عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ للمشامون بالنيمة للفسدون بين الأجيال ، الباغون للبراء الصيب » .

ولم يكن بد للإسلام أن يشدد في النهي عن هذا الخلق النميم الوضيع ، الذى يفسد القلب ، كما يفسد الصبح ، ويتدن بالقاتل قبل أن يفسد بين الجماعة ، ويأكل قلبه وخلقه قبل أن يأكل سلامة المجتمع ، ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض ، ويحنى على الأبرياء في معظم الأحيان !

وهو مناع للخير . . يمنع الخير عن نفسه وعن غيره . ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير . وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته ، كما آانس منهم ميلا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - : لأن تبع دين محمد منكم أحدا لا أقمه بشئ أبدا . فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام . ومن ثم سجل القرآن عليه هذه الصفة « مناع للخير » فيما كان يفعل ويقول .

وهو معتد . . متجاوز للحق والعدل إطلاقا . ثم هو معتد على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصددهم عن الهدى وينمهم من الدين . . والاعتداء صفة ذميمة تتألمن عناية القرآن والحديث اهتماما كبيرا . . وينهى عنها الإسلام في كل صورة من صورها . حتى في الطعام والشراب : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفئوا فيه » . . لأن العدل والاعتدال طابع الإسلام الأصل .

وهو أئيم . . يرتكب للماضى حتى يحق عليه الوصف الثابت . « أئيم » . . بدون تعديد لنوع الآثام التى يرتكبها . فأنجاه التيسير إلى إثبات الصفة ، وإصاقتها بالنفس كالتعبير ! وهو بعد هذا كله « عتل » . . وهى لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من الهبات ، لا يلبسها مجموعة ألقاظ وصفات . فقد يقال : إن العتل هو التلظيز الجافى . وإنه الأكل الشروب . وإنه الشره النوع . وإنه القظ في طبعه اللئيم ، في نفسه ، السوء في معاملته . . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه : « العتل كل رغب الجوف ، وثيق الخلق ، أكل

شروب ، جوع للمال ، منوع له . . ولكن تبق كلمة « عتل » بذاتها أدل على كل هذا ، وأبلغ تصورا للشخصية الكريمة من جميع الوجوه .

وهو زعيم .. وهذه خاتمة الصفات التيممة الكريمة للتجمعة في عدو من أعداء الإسلام . وما يمدى الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم - والزعيم من معانيه اللصيق في القوم لانسب له فيهم ، وأن نسبة فيهم ظنين - ومن معانيه ، الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره . وللمنى الثانى هو الأقرب في حالة الوليد ابن المغيرة . وإن كان إطلاق اللفظ يدمنه بصفة تدعه ميئنا في القوم ، وهو الختال القخور .

ثم يعقب على هذه الصفات الدائية بموقفه من آيات الله ، مع التشنيع بهذا الموقف الذى يجرى به نعمة الله عليه بالمال والبنين :

« أن كان ذا مال وبنين إذا تلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » . .

وما أقبح ما يجرى إنسان نعمة الله عليه بالمال والبنين ؛ استهزاء بآياته ، وسخرية من رسوله ، واعتداء على دينه . . وهذه وحدها تمثل كل مامر من وصف ذميم .

ومن ثم يعمى التهديد من الجبار القهار ، يلس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ؛ كالمس وصفه من قبل موضع الاختيال بكأنته ونسبه . . ويسمع وعد الله القاطع :

« سنسمه على الخرطوم » . .

ومن معاني الخرطوم طرف أنف الخنزير البرى . . ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنه ؛ والأنف في لغة العرب يكنى به عن المزة فيقال : أنف أشم للمزى . وأنف في الرغام للدليل . . أى في التراب ؛ ويقال ورم أنه وحى أنه ، إذا غضب معتزا . ومنه الأنفة . . والتهديد يومه على الخرطوم يعمى نوعين من الإذلال والتحقير . . الأول الوسم كما يوسم العبد . . والثانى جمل أنه خرطوم كخرطوم الخنزير ؛

ومامن شك أن وقع هذه الآيات على نفس الوليد كان قاصما . فهو من أمة كانت تمد هجاء شاعر - ولو بالباطل - مذمة يتوقاها الكريم ؛ فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض . بهذا الأسلوب الذى لا يارى . في هذا السجل الذى تتجاوب بكل لفظ من ألقاظه جنبات الوجود . ثم يستقر في كيان الوجود . . في خلود . .

إنها القاصصة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم . .

وبمناسبة الإشارة إلى المال والبنين ، والبطر الذي يطره للكذبيون ، يضرب لهم مثلا بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم ، شائعة بينهم ، ويذكرهم فيها بمقابلة البطر بالنعمة ، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ؛ ويشمرهم أن ما بين أيديهم من نعم للمال والبنين ، إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة ، وأن له ما بعده ، وأنهم غير متروكين لما هم فيه :

« إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرنا مصبيين ، ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبيين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون : ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا : إنا لنفالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ! قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا : يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون . . كذلك المذابح ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . .

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة ، ولكن السياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده . ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني .

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في شكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة ، الذين كانوا يماننون ويصدقون ، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد ، إنما هي أقرب إلى الساذجة والبساطة !

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن ؛ وفي مفاجآت مشوقة ، كما أن فيه سخرية بالكيد البشري الماجز أمام تدبير الله وكيد . وفي حيوية في العرض حتى لكأن السامع - أو القارئ - يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى (١) . فلنحاول أن نراها كما هي في سياقها القرآني :

(١) يراجع فصل : القصة في القرآن في كتاب : التصوير الفني في القرآن .

هانحن أولاء أمام أصحاب الجنة - جنة الدنيا لاجنة الآخرة - وهام أولاء يبيتون في شأنها أمرا . لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة - كما تقول الروايات - على أيام صاحبها الطبيب الصالح . ولكن الورثة يريدون أن يتأثروا بشمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم . . فلتنظر كيف تجري الأحداث إذن !

« إنا بلونا نام كما بلونا أصحاب الجنة . إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستنون » .
لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستنوا منه شيئا للمساكين . وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه ، وابتاعوا بهذا الشرف ما اعتزموه . . فلندعهم في غفلتهم أو في كيدهم الذي يبتوه ، ولتنظر ماذا يجري من ورأهم في بهجة الليل وهم لا يشعرون . فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون ، وهو يدبر لهم غير ما يدبرون ، جزاء على ما يبتغوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين للملوم . . إن هناك مفاجأة تتم في خفية . وحركة لطيفة كحركة الأشباح في الظلام . والناس نيام :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم » (١) . .

فلندع الجنة وما لم بها مؤقتا لنظر كيف يصنع للبيتون للماكرون .

هام أولاء يسحون مبكرين كما دبروا ، وينادي بعضهم بعضا لينفذوا ما اعتزموا :

« فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » . .

يذكر بعضهم بعضا ، ويوصي بعضهم بعضا ، ويحس بعضهم بعضا !

ثم يمضي السياق في السخرية منهم ، فيصورهم منطلقين ، يتحدثون في خفوت ، زيادة في إحكام التدبير ، ليحتملوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين !

« فانطلقوا وهم يتخافتون : لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » ١١١

وكأننا نحن الذين نسمع القرآن أو نقرأه نطمع ملاييلهم أصحاب الجنة من أمرها . . أجل قد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام ، فتذهب بشمرها كله . ورأيناها كأنما هي مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفي الرهيب ! فلنمسك أنفسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون للبيتون .

إن السياق ما يزال يسخر من الماكرون للبيتين :

(١) كأنها مقطوعة الثمار . فقد ذهب الطائف الذي طاف عليها بكل ثمرها !

« وغدوا على حرد قادرين » ١

أجل إتهم لقادرون على اللع والحرام . حرمان أنفسهم على أقل تقدير !!
وهام أولاد بناجأون . فلتنطلق مع السياق ساخرين . ونحن نشهدهم مفعولين :

« فلما رأوها قالوا : إنا لخالون » ..

ما هذه جنتنا للوقرة بالثمار . فقد ضلنا إليها الطريق ! .. ولكنهم يودون فيتأكدون :

« بل نحن محرومون » ..

وهذا هو الخبر اليقين !

والآن وقد حاقت بهم عاقبة للكر والتبيت ، وعاقبة البطر وللع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم
وأصلحهم - ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد
في رأيه . ولم يصر على الحق الذى رآه فثاله الحرمان كما نالهم . ولكنه يذكرهم ما كان من
نصاحه وتوجيهه :

« قال : ألم أقل لكم : لولا تسبحون » ١٢

والآن فقط يسمعون للناسح بعد فوات الأوان :

« قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين » ..

وكما يتصل كل شريك من التبعة عند ما تسوء العاقبة ، ويتوجه بالوم إلى الآخرين ..
هام أولاد يسمعون :

« فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » ١

ثم هام أولاد يتركون التلاوم ليعتروا جيما بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يفر
الله لهم ، ويوضحهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير :

« قالوا : يا أولادنا ! إنا كنا طاغيين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون » ..

وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسع التفتيح :

« كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ..

وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكة . « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة »
ولينظروا ماذا وراء الابتلاء . ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا :

« ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ١

وكذلك يسوق إلى قریش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الصابرين وسنته في الحاضرين ؟ ويلبس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يروونه على الشركيين - من كبراء قریش - من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائج . وسنته أن يتلى بالنعمة كما يتلى بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخير المحدثون بما هم فيه من نعم ، فذلك كان مثلاً لما قبهم : « ولماذا الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .. وأما المتقون الحذررون فلم عند ربهم جنات النعيم :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » ..

وهو التقابل في العاقبة ، كما أنه التقابل في المسلك والحقيقة . . تعادل التضيق للذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق !

وعند هاتين الحاتين يدخل معهم في جدل لا تقيد فيه كذلك . ولا تركيب . ويتحداهم ويخرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إجابات واحد تصعب للغالطية ؟ ويهدمهم في الآخرة بمشهد رهيب ، وفي الدنيا بحرب من العزير الجبار القوى الشديد :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخفرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلمهم أيهم بذلك زعيم ؟ أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كبدى متين . أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » ١٩

والتهديد بمذاب الآخرة وحرب الدنيا يجيء - كما نرى - في خلال ذلك الجدل ، وهذا التحدى . فيرفع من حرارة الجدل ، ويزيد من منقط التحدى .

والسؤال الاستنكارى الأول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ » يعود إلى عاقبة هؤلاء . وهؤلاء التي عرضها في الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إجابات واحد .. لا . لا يكون .

فالمسلمون اللذعنون للمستسلمون لربهم ، لا يكونون أبدا كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن
لجاج يسهم بهذا الوصف الذميمة ، وما يجوز في عقل ولا في عدل أن يتساوى المسلمون
والمجرمون في جزاء ولا مصير .

ومن ثم يحى السؤال الاستنكارى الآخر : « مالكم ؟ كيف تحكون ؟ » .. ماذا
بكم ؟ وعلام تنبون أحكامكم ؟ وكيف تنزون القيم والأقدار ؟ حتى يستوى في ميزانكم
وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم : « أم لكم كتاب
فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لا تخيرون ؟ » .. فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب
يدرسونه ، هو الذى يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذى لا يقبله عقل ولا عدل ؟ وهو الذى
يقول لهم : إن للسليدين كالمجرمين ! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم ، فلم فيه
ما يخيرون من الأحكام وما يشتهون ؟ وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول .
أو معروف !

« أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكون ؟ » .. فإن لا يمكن ذلك .
فهو هذا . وهو أن تكون لهم موثيق على الله ، سارية إلى يوم القيامة ، مقتضاها أن لهم
ما يحكون ، وما يختارون وفق ما يشتهون ! وليس من هذا شيء . فلا عهود لهم عند الله ولا
موثيق . فلام إذن يتكلمون ؟ وإلام إذن يستندون ؟

« سلمهم أيهم بذلك زعيم ؟ » .. سلمهم من منهم للتشهد بهذا ؟ من منهم للتشهد بأن لهم على
الله ما يشاءون ، وأن لهم ميثاقا عليه سارى للفعول إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكون ؟
وهو تهكم ساخر عميق بليغ يذيب الوجوه من الحرج والتحنى السافر للكشوف !
« أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ..

وهم كانوا يشركون بالله . ولكن التصير يضيف الشركاء إليهم لا لله . ويتجاهل أن هناك
شركاء . ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين .. ولكن متى يدعونهم ؟
« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم .
ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..

فيقهم وجها لوجه أمام هذا للشهد كأنه حاضر اللحظة ، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا ،

بشركائهم للزعميين . وهذا اليوم حقيقة حاضرة في علم الله لا تتبدل في علمه بزمان . واستحضارها للمخاطبين على هذا النحو يحصل وقعها عميقا حيا حاضرا في النفوس على طريقة القرآن الكريم .

والكشف عن الساق كناية - في تسميات اللغة العربية للأثورة - عن الشدة والكرب . فهو يوم القيامة الذي يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشد الكرب والضيق .. ويدعى هؤلاء التكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود . إما لأن وقته قد فات . وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون : « مهطئين مقننى رؤوسهم » وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من المحول على غير إرادة منهم ، وعلى أية حال فهو تعبير يثنى بالكرب والعجز والتعدي الخفيف . .

ثم يكمل رسم هيئتهم : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » . هؤلاء للتكبرون للتيججون . والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهجمات الشامخة والكبرياء المنفوخة . وهى تذكر بالتهديد الذى جاء فى أول السورة : « سنسسه على الخرطوم » . . فزهاء الذلة والانكسار ظاهر عميق مقصود !

وبينما هم فى هذا الموقف الرهق الدليل ، يذكركم بما جرم إليهم من إعراض واستكبار : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » . . قادرون على السجود . فكانوا يأبون ويستكبرون . . كانوا . فهم الآن فى ذلك الشهد للرهق الدليل . والدنيا وراءهم . وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون !

وبينما هم فى هذا الكرب ، يجيئهم التهديد الرعب الذى يهد القلوب :
« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » . .

وهو تهديد مزلزل .. والجبار القهار القوى اللتين يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - :
« خل ينى وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل !
ومن هو هذا الذى يكذب بهذا الحديث ؟

إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل السكين الضيف ! هذه النملة المضعوفة . بل هذه الهبابة المنتشرة . . بل هذا الدم الذى لا ينى حيثما أمام جيروت الجبار القهار العظيم !
فيا محمد . خل ينى وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن ممك من المؤمنين . فالجرب

معى لأمك ولا مع المؤمنين . الحرب مئى . وهذا الخلق عدوى ، وأنا سأتولى أمره فذعه لى ، وذرى معه ، واذهب أنت ومن معك فاسترحوا !

أى هول مززل للكذابين ! وأى طمانينة للنبي والمؤمنين . . . للستضعفين . . ؟

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا الخلق المهزىل الصغير الضعيف أ
« سنستدرجهم من حيث لا يملكون . وأملئ لهم إن كيدى متين » . .

وإن شأن الكذابين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير . . ولكنه — سبحانه — يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليلغوا أن الأمان الظاهر الذى يدعه لهم هو القنع الذى يقومون فيه وهم غارون . وأن إهمالهم على الظلم والبنى والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، وأنوا إلى الموقف متقلين بالذنوب ، مستحقين للعزى والرهق والتعذيب . . وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ولا رحمة . والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك التذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، قد كشف القناع ووضعت الأمور !

إنه سبحانه يهمل ولا يهمل . وعلى للنظام حتى إذا أخذه لم يفلته . وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التى قدرها بحشيشته . ويقول لرسوله — صلى الله عليه وسلم — ذرى ومن يكذب بهذا الحديث ، وخل ينى وبين للمعززين بالمال والبنين والجاه والسلطان . فسأملئ لهم ، وأجسرهم النعمة عليهم ! فيطمئن رسوله ، ويحذر أعداءه . . ثم يدعهم لذلك التهديد الرعب !

وفى ظل مشهد القيامة للكروب وظل هذا التهديد للرهبوب يكلل الجدل والتحدى والتعجب من موقعهم الغريب :

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ » . .

فتقل الترامة التى تطلبها منهم أجرا على الهداية هو الذى يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب ، ويحملهم يؤثرون ذلك المسير البشع ، على فداحة ما يؤدون ؟

« أم عندهم القيب فهم يكتبون ؟ » . .

ومن ثم فهم على ثقة بما فى القيب ، فلا يخفيهم ما ينتظرهم فيه ، قد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه ؟ أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه . فككتبوه ضلانا لا يشتهون ؟

(٥ - فى ظلال الفرقان [٢٩])

ولا هذا ولا ذاك ؟ فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب للرب ؟

. وبذلك التعبير العجيب للوحى الربى : « فذرى ومن يكذب بهذا الحديث » .. وبالإعلان عن خطة للمركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المذوعين . . بهذا وذلك بخلق الله النبى - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين من للمركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل . فهم ممركة - سبحانه - وهى حربته التى يتولاها بذاته .

والأمر كذلك فى حقيقة . مهما بدا أن للنبي - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين دورا فى هذه الحرب أصيلا . إن دورهم حين يسره الله لهم هو طرف من قدر الله فى حربته مع أعدائه . فهم أداة عمل الله بها أو لا يعمل . وهو فى الحالين فعال لما يريد . وهو فى الحالين يتولى للمركة بذاته وفق سنته التى يريد .

وهذا النص نزل والنبي - صلى الله عليه وسلم - فى مكة ، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شيء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفرع للمفتقرين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع فى المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر فى المركة . ولكنه هناك أكد لم ذلك القول الذى قاله لهم وهم فى مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون فى بدر : « فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله صمىع عليم » ..

وذلك ليقر فى قلوبهم هذه الحقيقة . حقيقة أن للمركة ممركة هو سبحانه . وأن الحرب حربته هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يحمل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبلهم منه بلاء حسنا . وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا . أما حقيقة الحرب فهو الذى يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذى يكتبها .. وهو سبحانه يجرىها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هى الأداة الوحيدة فى يده !

وهى حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية فى كل موضع ، وفى كل حال ، وفى كل وضع . كما أنها هى الحقيقة التى تتفق مع التصور الإيمانى لقدرة الله وقدره ، ولسنته ومشيئته ، ولحقيقة القدرة البشرية التى تتطلى لتحقيق قدر الله . . أداة . . ولن يزيد على أن تكون أداة . .

وهى حقيقة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، في حالتى قوته وضمفه على السواء . مادام مخلص قلبه لله ، ويتوكل في جهاده على الله . قوته ليست هى التى تنصره في معركة الحق والباطل والإيمان والكفر ، إنما هو الله الذى يكفل له النصر . وضمفه لا يهزمه لأن قوة الله من وراءه وهى التى تتولى المعركة وتمكله النصر . ولكن الله على ويستدرج ويقدر الأمور في مواقينها وفق مشيئته وحكمته ، ووفق عدله ورحمته .

كما أنها حقيقة تخزع قلب العدو ، سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة . فليس المؤمن هو الذى يناله . إنما هو الله الذى يتولى المعركة بقوته وجبروته . الله الذى يقول : لنبيه « قدرنى ومن يكذب بهذا الحديث » وخل بينى وبين هذا البائس المتوسل ! والله على ويستدرج فهو في الفخ العيب للفرع الخفيف ، ولو كان في أوج قوته وعدته . فهذه القوة هى ذاتها القمع وهذه المدة هى ذاتها للسيدة . . « وأملى لم إن كبدى متين » ! أما متى يكون . فذلك علم الله للكون ! فمن يأمن غيب الله ومكره ؟ وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ؟



وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر . الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس . والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد . ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ، فقلوا أن تداركته نعمة الله لنبيه وهو منموم :

« فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت. إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالراء وهو منموم . فاجتنبه ربه فجعله من الصالحين » . .

وصاحب الحوت هو يونس - عليه السلام - كما جاء في سورة الصافات . وملخص تجربته التى يذكر الله بها محمدا - صلى الله عليه وسلم - لتكون له زادا ورميدا ، وهو خاتم النبيين ، الذى سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، وصاحب الزاد الأخير . فبعبه هذا على عبثه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لاقيلة ولاقرية ولاأمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لاجيل واحد ولاقرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء إمداد البشرية بعبء بكل أجيالها وكل أقوامها بنهج دائم ثابت صالح لتلبية مايمجد في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب . وكل يوم يأتى بمجديد ..

ملخص تلك التجربة أن يونس ابن متى - سلام الله عليه - أرسله الله إلى أهل قرية . قيل اسمها نينوى بالوصل : فاستبطن إيمانهم ، وشق عليه تلك يوم ، فتركهم مناضبا ، فأثلا في نفسه : إن الله لن يضيق على بالبقاء بين هؤلاء المتمتين الماندين ، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينته ، فلما كانوا في وسط اللج تقلت السفينة وتمرضت للغرق . فأقرعوا بين الركاب للتخفيف من واحد منهم لتخف السفينة . . فكانت القرعة على يونس . فألقوه في اليم . فابلتمه الحوت .

عندئذ نادي يونس - وهو كظيم - في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت ، وفي وسط اللجة ، نادى ربه : « لا إله إلا أنت سبحانك ! إني كنت من الظالمين » فتداركته نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطئ . . لحما بلاجلد . . ذاب جلده في بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقيد بها قيد من مألوف البشر المحدود !

وهنا يقول : إنه لولا هذه النعمة لينذه الحوت وهو مذموم . أي مذموم من ربه . . على فضله . وقلة صبره . وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا ، وقبل الله تسميحه واعترافه ونعمه . وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتناب . « فاجتناب ربه فجعله من الصالحين » . .

هذه هي التجربة التي مر بها صاحب الحوت . يذكر الله بها رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - في موقف الصمت والكذب . بعد ما أخلاه من المعركة كما هي الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد . وقما يريد . وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد للوعد ، وفي مشقات الطريق حتى يحين للوعد للقروب !

إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله ، حتى يأتي موعده ، في الوقت الذي يريد به حكمته . وفي الطريق مشقات كثيرة . مشقات التكذيب والتعذيب . ومشقات الانواء والناد . ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه . ومشقات اقتتان الناس بالباطل للزهو للتصريفيا تراء الميون . ثم مشقات إسالك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق ، لا ترتاب ولا تردد في قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق . . أما للمركة ذاتها فقد قضى الله فيها ، وقدر أنه

هو الذى يتولاهما ، كما قدر أنه يملئ ويستدرج لحكمة يراها . كذلك وعد نبيه الكريم ، فصدقه الوعد بمد حين .

وفى الحتام رسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم ، فى غينا غنىف ، وحسد عميق ينسكب فى نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه ، وبصفا القرآن بما لا مزيد عليه :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون : إنه لمجنون . فهذه النظرات تكاد تؤثر فى أقدام الرسول - صلى الله عليه وسلم - فتجلبها زل وتزلق وتقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تميز فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحقد وشر وحسد وقهمة وضغن ، وحى وسم . مصحوبة هذه النظرات للمسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشتم البذيء ، والافتراء القبيح : « ويقولون : إنه لمجنون » .

وهو مشهد تتلطفه الريشة للبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة فى مكة . فهو لا يكون إلا فى حلقة عامة بين كبار الماندين الجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفى نظراتهم كل هذا الحقد القبيح المحموم !

يعقب عليه بالقول الفصل الذى ينهى كل قول :

« وما هو إلا ذكر للعالمين » .

والله كرا لايقوله مجنون ، ولا يحمله مجنون ..

وصدق الله وكذب المفترون ..

ولابد قبل نهاية الحديث من لفظة إلى كلمة « للعالمين » .. هنا والدعوة فى مكة تقابل بذلك الجحود ، ويقابل رسولها تلك النظرات للمسمومة المحمومة ، ويرصد المشركون لحربها كل ما يملكون .. وهى فى هذا الوقت المبكر ، وفى هذا الضيق المستعظم ، تلمن عن طائيتها . كما هى طيبتها وحقيقتها . فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انشرفت فى المدينة - كما يدعى المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة فى أيام مكة الأولى . لأنها حقيقة ثابتة فى صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

كذلك أرادها الله . وكذلك أنجحت منذ أيامها الأولى . وكذلك توجه إلى آخر الزمان . والله الذى أرادها كما أرادها هو صاحبها وراعيا . وهو الدافع عنها وحاميا . وهو الذى يتولى الحركة مع المكذبين . وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ..

سُورَةُ الْحَاقِقَةِ وَأَسْمَاهَا ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَلْحَاقَةُ * مَا أَلْحَاقُهُ ؟ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَةُ ؟ * كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالْبَاطِغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُفْعَازُ نَحْلٍ خَاطِيَةٍ * فَبَلَّ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِأَغْلَاطِيَةٍ * فَمَقَّصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ ، فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعْيَهَا أَذُنًى وَإِعْيَةً .

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالتَّلَاقُ عَلَى أَرْجَائِهِمْ ، وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ بُرَاقِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ .

« فَأَمَّا مَنْ أَرَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْأَخْلَاقِيَةِ .

« وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِشَاقِهِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاصِيَهٗ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ .
 « خُذُوهُ فَعْلُوهُ * ثُمَّ أَجْزِمِ صَلَوَهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ
 الْيَتَامَىٰ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حِسِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَنِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْفَاطِنُونَ .

« فَلَا أَفْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ ، قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ * نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذَكِيرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَعَصْرَةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَعَقَابُ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ... »

هذه سورة هائلة رهيبة ؛ قل أن يتلفاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تفرع هذا الحس ، وتطالع بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والشهد تلو للشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آنا وبالجلال آنا ، وبالمداب آنا ، وبالحركة القوية في كل آن ! والسورة بجملتها تلقى في الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد . . أن هذا الأمر ، أمر الدين والقيدة ، جد خالص حازم جازم . جد كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهزل . جد في الدنيا وجد في الآخرة ، وجد في ميزان الله وحسابه . جد لا يجهل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرا ولا قليلا . وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم . ولو كان الذي يتلفت عنه هو الرسول . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . . إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

يرز هذا المعنى فى اسم القيامة المختار فى هذه السورة ، والذى سميت به السورة : « الحاقة » ..
وهى بلفظها وجرسها ومعناها تلقى فى الحس معنى الجِد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع
اللفظ بذاته أشبه بشيء يرفع الثقل طويلا ، ثم استقراره استقرارا مكنيا . رفعة فى مدة الحاء بالأنف ،
وجده فى تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالربوطة التى تنطق هاء ساكنة .

ويرز فى مصارع للكذابين بالدين والعقيدة وبالآخرة قوما بعد قوم ، وجماعة بعد جماعة .
مصارعهم الماصفة القاصمة الحاسمة الجازمة : « كذبت عمود وعاد بالقارعة . فأما عمود فأهلكوا
بالطاعية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عانية . سخرها عليهم سبع ليل وثمانية أيام حسوما ،
فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن
قبله وللمؤسفات بالحفاطة ، فصوّر رسول ربهم ، فأخذهم أخذة راية . إننا لما طغى الماء
حنناكم فى الجارية ، لنجلبها لكم تذكرة وتبها أذن واعية » .. وهكذا كل من تلفت عن هذا
الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة ، تتناسب مع الجِد الصارم الحاسم فى هذا الأمر العظيم
المائل ، الذى لا يحتمل هزلا ، ولا يحتمل لبيا ، ولا يحتمل تلفتا عنه من هنا أو هناك !

ويرز فى مشهد القيامة للروح ، وفى نهاية الكون الرهبة ، وفى جلال التجلى كذلك وهو
أروع وأهول : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة
واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانفثت السماء فى يومئذ وأهية .. وللك على أرجائها وحمل
عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ..

ذلك المول . وهذا الجلال . خلعان الجِد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر
للمول . ويشاركان فى تعميق ذلك المعنى فى الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيقاعاتها . هو
ومابعد من مقالة التاجين والعذابين : « فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابه .
إنى ظننت أنى ملاق حسابه » . . . قد نبأ وما يكاد يصدق بالنجاسة . . « وأما من
أوتى كتابه بشأله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابه ، ولم أدر ما حسابه . ياليتها كانت القاضية .
ما أفتى عن ماليه . هلك عنى سلطانيه » . . بهذا التضجع الطويل ، الذى يطبع فى الحس وقع
هذا المصير ..

ثم يبدو ذلك الجِد الصارم والمول القاصم فى النطق المولى بالقضاء الريب الرعيب ، فى
اليوم المائل ، وفى الموقف الجليل : « جنوده . فتلوه . ثم الجحيم صاوه . ثم فى سلسلة ذرعها

سبعون ذراعاً فأسلكوه .. وكل قرة كأنها تحمل ثقل السباوات والأرض ، وتتعض في جلال منهل ، وفي هول مروع ، وفي جد ثقل ..

ثم ما يسبق كلة القضاء الجليل ، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية اللذنب الرعية : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام للسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون .. »

ثم يبرز ذلك للمنى في التلويع بقسم هائل ، وفي تحرير الله لحقيقة الدين الأخير : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين .. »

وأخيراً يبرز الجدى في الإقناع الأخير . وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أويصل ، كاتنا من كان ، ولو كان هو عمدا الرسول : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .. فهو الأمر الذى لا تسمع فيه ولا هو أدقولا لين ..

وعندئذ تختم السورة بالقرار الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير : « وإنه لتذكرة للفتين . وإننا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين .. فسبح باسم ربك العظيم » . . وهو الختام الذى يقطع كل قول ، ويلقى بكلمة الفصل ، وينتهى إلى الفراغ من كل لئو ، والتسبيح باسم الله العظيم . .



ذلك للمنى الذى تتمحض السورة لإلقائه في الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتميقه بشكل مؤثر حتى عجب :

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالشاهد الحية ، للتناهية الحيوية ، بحيث لا يملك منها فكاً ، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة ، تطالمة بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة ! فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط (اللؤهكات) حاضرة شاحسة ، والمولود للروح يحتاج مشاهدتها بصورة لا فكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية عمولة في الجارية مرسوما في آيتين اثنتين سريتين . . ومن ذا الذى يقرأ : « وأما عاد فأهلكوا

برج صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم
أعجاز نخل خاوية فهل ترى لثم من باقية ؟ .. ولا يتمثل لحسه منظر الماصفة المزججة المحطمة
الدمرة . سبع ليال وثمانية أيام . ومشهد القوم بمداهصرعى مجديلين « كأنهم أعجاز نخل خاوية » .
وهو مشهد حى مائل للعين ، مائل للقلب ، مائل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد
العنيف في السورة .

ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هى تخايل للحس ، وتفرقع حوله ،
وتعمره بالربح والهول والكتابة . ومن ذا الذى يسمع : « وحملت الأرض والجبال فدكتا
دكة واحدة » .. ولا يسمع حسه القرقة بعد ما ترى عينه الرقة ثم الدكة !! ومن الذى يسمع :
« وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها » .. ولا يتمثل خاطره هذه النهاية
الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المثينة ؟ ثم من الذى لا يفرح حسه الجلال والهول
وهو يسمع : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون
لا تخفى منكم خافية » ..

ومشهد الناجى الآخذ كتابه يمينه واليدنيا لاسمه من الفرحة ، وهو يدعو الخلائق كلها
لتقرأ كتابه في رنة الفرح والنبطة : « هاؤم اقرأوا كتابه . إني ظننت أنى ملاق حسايه » !
ومشهد الممالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن في كلماته ونبراته وإيقاعاته : « ياليتنى لم
أوت كتابه . ولم أدر محاسايه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » .
ومن ذا الذى لا يرتمش حسه ، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب : « خذوه ، فضلوه ، ثم
الججم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . . الخ » .. وهو يشهد كيف
يتسابق للأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل فى ذلك البائس الحسير !

وحاله هناك : « فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله
إلا الخاطئون » .

وأخيرا فن ذا الذى لاتأخذه الرجعة وتلقه الرهبة ، وهو يتمثل فى الخيال صورة التهديد
الشديد : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما
منكم من أحد عنه حاجزين » ..

إنها مشاهد من القوة والحياة والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة، وهي تلح عليه، وتضغط، وتختل الأعصاب وللشاعر في تأثير حقيقى عفيف !

وبشارك إيقاع الفاصلة في السورة، برتته الخاصة، وتنوع هذه الرنة، وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحى المبعث .. فن المد والتشديد والسكت في مطلع السورة : « الحاقة . ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟ » . . إلى الرنة اللدوية في الباء والماء الساكنة بعدها . سواء كانت تام مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزينة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة ، ومشاهد الفرح والحسرة في موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهبة جليلة مديدة : « خذوه . فلولوه . ثم الجحيم صلوه . . . » . ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم ، وتقرير جدية الأمر ، إلى رنة رزينة جادة حاسمة تقيلة مستقرة على اللم أو النون : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين » . . « وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » . .

وهذا التنير في حرف الفاصلة وفي نوع للدق لها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو ، وتتناسق مع للوضوح والصور والظلال تمام التناسق . وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس . في السورة القوة الإيقاع المبهمة التأثير . إنها سورة هائلة رهبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهي بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل ، ومن كل تعليق !

« الحاقة . ما الحاقة ؟ . وما أدراك ما الحاقة ؟ » . .

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة . ومن ثم تبدأ السورة باسمها وتسمى به ، وهو اسم مختار يجرسه ومعناه كما أسلفنا . فالحاقة هي التي تحقق تقمع . أو تحقق فنزل بحكمها على الناس . أو تحقق فيكون فيها الحق . . وكلها معان تحريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها . ثم هي يجرسها كما بينا من قبل تلقى إيقاعا معنا يساوق هذا المعنى الكامن فيها ، وبشارك في إطلاق الجو للراد بها ؛ وبمهد لما حق على للكاذبين بها . في الدنيا وفي الآخرة جميعا .

والجولو كله في السورة جو جد وجزم ، كما أنه جو هول وروع . وهو يوقع في الحس إلى جانب ما أسلفنا في التقديم ، شعورا بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة ، وبضالة الكائن الإنساني تجاه هذه القدرة من جهة أخرى ؛ وأخذها له أخذاً شديداً في الدنيا والآخرة ، عندما يحيد أو يتلفت عن هذا التهج الذي يريد الله للبشرية ، مثلاً فيا يحىء به الرسل من الحق والعقيدة والشرعية ؛ فهو لا يحىء ليهمل ، ولا ليلدل ، إنما يحىء ليطاع ويحترم ، ويقابل بالتحريج والتقوى . وإلا فهناك الأخذ والقسم ، وهناك الهول والروع .

والألفاظ في السورة بحرسها وبمعانيها وباجتماعها في التركيب ، وبدلالة التركيب كله . . تتركز في إطلاق هذا الجو وتصويره . فهو يبدأ فيلقبها كلمة مفردة ، لا خبر لها في ظاهر اللفظ : « الحاقة » . . ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم : « ما الحاقة ؟ » . . ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجويل ، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك : « وما أدراك ما الحاقة ؟ » . . ثم يسكت فلا يجيب على هذا السؤال . وبدعك واقعاً أمام هذا الأمر السهول للتعظيم ، الذي لا تدريه ، ولا يتأتى لك أن تدريه ؛ لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك !



ويبدأ الحديث عن الكذابين به ، وما نالهم من الهول ، وما أخذوا به من القسم ، فذلك الأمر جد لا يحتمل التكذيب ، ولا ينهب ناجياً من يصرفه على التكذيب :

« كذبت عمود وعاد بالقارعة . فأما عمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ »

وهذا اسم جديد للحاقة . إنها فوق أنها تحقق . فهي تفرع . . والقرع ضرب الشيء الصلب والقرع عليه شيء مثله . والقارعة تفرع القلوب بالهول والرعب ، وتفرع الكون بالدمار والحطم . وهاهي ذى بحرسها تقنع وتفرع وتفرع . . وقد كذبت بها عمود وعاد . فلتنظر كيف كانت عاقبة التكذيب . .

« فأما عمود فأهلكوا بالطاغية » . .

وعمود - كما جاء في مواضع أخرى - كانت تسكن الحجر في شمالي الحجاز بين الحجاز

والشام . وكان أخذهم بالصيحة كما صماها في غير موضع . أما هنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها .. « بالطاغية » . لأن هذا الوصف فيض بالهول المناسب لجو السورة . ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا القطع منها . ويكتفى بهذه الآية الواحدة تطوى ثمود طيا ، وتمرم غمرا ، ونصف بهم عصفا ، وتطنى عليهم فلا تبقى لهم ظلا

وأما عاد فيفصل في أمر نكبتها وبطيل ، وقد استمرت وقتها سبع ليل وثمانية أيام حسوما . على حين كانت وقمة ثمود خاطفة .. صيحة واحدة . طاغية .. « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . والريح الصرصر : الشديدة الباردة . واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح . وزاد شدتها بوصفها « عاتية » .. لتناسب عتو عاد وجبروتها للحكي في القرآن ، وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت . وكانوا أشداء بطاشين جبارين . هذه الريح الصرصر الماتية : « سخرها عليهم سبع ليل وثمانية أيام حسوما » . . والحسوم القاطنة للمستمررة في القطع . والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزعجة للمدرة للمستمررة هذه الفترة الطويلة للحددة بالدقة : « سبع ليل وثمانية أيام » . ثم تعرض للشهد بمدى شأخا : « ترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » .. ترى .. فالمنظر معروض تراء ، والتعبير يلح بعلى الحس حتى يتعلاها « صرعى » .. مصروعين مجدلين متأثرين « كأنهم أعجاز نخل » بأصولها وجنوعها « خاوية » فارغة تآكلت أجوافها فارغمت ساقطة على الأرض هامة إنه مشهد حاضر شاخص . مشهد ساكن كتيب بمدى العاصفة المزعجة المدمرة .. « فهل ترى لهم من باقية ؟ » .. لا فليس لهم من باقية !!!

ذلك شأن عاد وثورود .. وهو شأن غيرها من السكدين . وفي آيتين اثنتين يحمل وقائع ثقى :

« وجاء فرعون ومن قبله والمؤتسكات بالخاطئة . فصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة

راية » ..

وفرعون كان في مصر - وهو فرعون موسى - ومن قبله لا يذكر عنهم تفصيل . والمؤتسكات قرى لوط المدمرة التي اتبعت الإفك وألقى انقلب ، فاللفظ يبنى هذا وهذا . ويجعل السياق فعال هؤلاء جميعا ، يقول عنهم إنهم جاءوا « بالخاطئة » أى بالقصة الخاطئة .. من الخطيئة .. « فصوا رسول ربهم » .. وم عصوا رسلا متعددين ؛ ولكن حقيقتهم واحدة ، ورسالتهم

في محيما واحدة . فهم إذن رسول واحد ، يمثل حقيقة واحدة - وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية - وفي إجمال يذكر مصيرهم في التعبير يلقي الهول والحسم حسب جو السورة : « فأخذهم أخذة راية » . . والراية العالية الفائرة الطامرة . لتناسب « الطاغية » التي أخذت عمود « والعائية » التي أخذت عادا ، وتناسب جو الهول والرعب في السياق بدون تفصيل ولا تطويل !

ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، مشيرا بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا . ومحتنا على البشر بجماعة أصولهم التي انتشقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يتنبهوا بتلك الآية الكبرى :

« إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » . . ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغى ، كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها . وجرس الجارية وواعية يمتشي كذلك مع إيقاع القافية . وهذه اللمسة « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » تلس القلوب الحامدة والأذان البليدة ، التي تكذب بعد كل ماسبق من النذر وكل ماسبق من المصائر ، وكل ماسبق من الآيات ، وكل ماسبق من المظات ، وكل ماسبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء النافلين !



وكل هذه المشاهد المروعة المائلة القاصمة الحاسمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر . هول الخاقه والقارعة التي يكذب بها المكذبون ، وقد شهدوا مصارع المكذبين .. إن الهول في هذه المصارع - على ضخامتها - محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الخلود المدخر لذلك اليوم المشهود . وهنا بعدها التهديد بكل العرض ، وبكشف عن الهول كأنه التكلفة المدخرة للمشاهد الأولى :

« فلإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانسقت السماء فهي يومئذ واهية . ولللك على أرجائها ويعمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . .

ونحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث . ولا يزيد

في تفصيلها شيئاً . لأنها غيب . ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص الجملة ؛ وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال . والتفصيل لا يزيد في حكمة النص شيئاً ، والجري وراءه عبث لا طائل تحته ، إلا اتباع الظن للشيء عنه أصلاً .

فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، فبعب هذه النفخة تلك الحركة الهائلة : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .. ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة نسوي عليها بساقلها .. مشهد مروع حقاً . هذه الأرض التي يحوس الإنسان خلالها أمناً مطمئناً ، وهي تحته مستقرة مطمئة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الإنسان بروعتها واستقرارها .. هذه مع هذه تحمل فتلك كالكرة في يد الوليد .. إنه مشهد يشمر معه الإنسان بضاً لته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، في ذلك اليوم العظيم ..

فإذا وقع هذا . إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة .. فهو حينئذ الأمر الذي تحدث عنه السورة : « فيومئذ وقعت الواقعة » .. والواقعة اسم من اسمائها كالحاققة والقارعة . فهي الواقعة لأنها لا بد واقعة . كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ! وهو اسم ذو إغناء مبین وهو إغناء مقصود في صدد الارتباب فيها والتكذيب !

ولا يقتصر المول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة ، فالسواء في هذا اليوم الهائل ليست بناحية :

« وانثقت السماء فهي يومئذ واهية » ..

ونحن لا نندري على وجه التحقيق ما السواء المقصودة بهذا اللفظ في القرآن . ولكن هذا النص والنصوص الأخرى التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى اقتراف عقد هذا السكون للنظور ، واختلال روابطه وضاويله التي تمسك به في هذا النظام البديع الحقيقي ، وتناثر أجزائه بد انفلاتها من قيد التاموس ..

ولله من الصادقات الثرية أن يتنبأ الآن علماء الفلك بشيء يشبه هذا تكون فيه نهاية العالم ، استنباطاً من ملاحظتهم العلمية البحتة ، وحسب القليل الذي عرفوه من طبيعة هذا السكون ، وقصته كما اقترضوها ..

فأما نحن فنكاد نشهد هذه المشاهد للذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة ؛ وهي

نصوص مجمة توحى بشيء عام ؟ ونحن نقف عند إحياء هذه النصوص ، فهي عندنا الحبر الوحيد للستيقن عن هذا الشأن ، لأنها صادرة من صاحب الشأن ، الذى خلق ، والذى يعلم ما خلق علم اليقين . نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بجبالها بكتلتها هذه ، الضخمة بالقياس إلينا ، الصغيرة كالمهابة بالقياس إلى الكون ، قندك ذكة واحدة ؟ ونكاد نشهد السماء وهي مشققة واهية والكواكب وهي متاثرة منكسرة . . كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية ، للشخصة للشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة . .

ثم يشر الجلال المشهد وينشيه ، وتسكن الضجة التى عملا الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار . يسكن هذا كله ويظهر فى المشهد عرش الواحد القهار :

« والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . .

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشفة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية . . ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله . لاندرى نحن من هم ولا مام . كالاندرى نحن ما العرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه التبييات التى لاعلم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من عليها إلا ما قص علينا . نخلص من مفردات هذه التبييات إلى الظل الجليل الذى تخله على الموقف . وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا : وهو القصور من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشرى بالجلال والرهبة والخشوع ، فى ذلك اليوم العظيم ، وفى ذلك الموقف الجليل :

« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . .

فالسكل مكشوف . مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف للصير . وتسقط جميع الأستار التى كانت تحجب الأسرار ، وتترى النفوس ترمى الأجساد ، وتبرز القيوب بروز الشهود . ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكروه ومن تديره ومن شموه ، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه ! وما أفسى النصيحة على اللائ . وما أخزاها على عيون الجوع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها فى كل آن . ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور ، وهو مخدوع بتور الأرض . فها هو ذا يشعر به كاملا وهو مجرد فى يوم القيامة . وكل شيء بارز فى الكون كله . الأرض مذكوكة مسواة لا تحجب شيئا وراء ثوبه ولا بروز . والسماء متشفقة واهية لا تحجب وراءها شيئا ،

والأجسام ممرأة لا يسترها شيء ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

الا إنه لأمر عصيب . أعصب من ذلك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان الشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ماظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن ولللائكة ، ونحت جلال الله وعرشه للرفوع فوق الجميع . .

وإن طبيعة الإنسان لمقعدة شديدة التقيد ؛ ففي نفسه منحيات شتى ودروب ، تتخفى فيها نفسه وتندس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخوابرها وأسرارها وخصوصياتها . وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنع القوقمة الرخوة الهلامية حين تتمرض لوخزة إبرة ، فتتطوى سريرا ، وتكشف داخل القوقمة ، وتعلق على نفسها تماما . إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عينا تدسست عليه فكشفت منه شيئا مما يخفيه ، وأن لحة أصابت منه دربا خفيا أو منحى سريرا ؛ ويشمر بقدر عنيف من الألم الواخر حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية . .

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان . عريان حقا . عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل سائر . عريان . . . كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار ؟

الا إنه لأمر . أمر من كل أمر ! ! !

وبمذئذ يمرض مشهد الناجين وللمذنبين ، كأنه حاضر تراه العيون . .

« فأما من أوى كتابه يبعينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، إني ظننت أنى ملاقي حسابه . . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قلوبها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية » .

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية ، وقد يكون تمثيلا لغويا جاريها على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال (٦ - في ظلال القرآن [٢٩])

أو من وراء الظهر . . وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد ، وهو لا يستدعى جدلا يضيع فيه جلال الموقف !

والشهاد للعرض هو مشهد الناجي في ذلك اليوم المصيب ، وهو ينطلق في فرحة غامرة ، بين الجموع الحاشدة ، تلاءم الفرحة بجوانحه ، وتقلب على لسانه ، فينتف : « هاؤم اقرأوا كتابيه » . ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب . . « ومن نوقش الحساب عذب » كما جاء في الأثر : عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من نوقش الحساب عذب » قللت : ليس يقول الله تعالى : « فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا » فقال : « إنما ذلك البرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ^(١) » .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر ابن مطر الواسطي ، حدثنا يزيد ابن هارون ، أخبرنا عاصم ، عن الأحول ، عن أبي عثمان ، قال : للؤمن يعطى كتابه يمينه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرأها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فبعد ذلك يقول : « هاؤم اقرأوا كتابيه » .

وروي عن عبد الله ابن حنظلة - غيبيل للملائكة ^(٢) - قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فييدى أى يظهر - سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أى رب ! فيقول له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إني ظننت أنى ملاق حسايه » .

وفي الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : « سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يدنى الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته يمينه . وأما الكافر والنافق فيقولون الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » ..

(١) أخرجه الشيخان والترمذي وأبو داود .

(٢) استشهد حنظلة ابن أبي عامر في غزوة أحد فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . « إن صاحبكم - يعنى حنظلة - ينسله للملائكة » . فسألوا أهله : ما شأنه ؟ فسكت صاحبه عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع المائدة (من رواية ابن إسحاق) .

ثم يلمن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجي من النعيم ، الذى تبدو فيه هنا ألوان من النعيم الحسى ، تناسب حال المخاطبين إذ ذاك ، وهم حديثو عهد بمجاهلة ، ولم يسر من آمن منهم شوطا طويلا فى الإيمان ، ينطبع به حسه ، ويمسرف به من النعيم ماهو أرق وأعلى من كل متاع :

« فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » . .

وهذا اللون من النعيم ، مع هذا اللون من التكريم فى الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله : « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » . . فوق أنه اللون الذى تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن فى أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تسمو للشاعر قترى فى القرب من الله ماهو أعجب من كل متاع . . فوق هذا فإنه يلبى حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان . والنعيم ألوان غير هذا وألوان . .

« وأما من أوتى كتابه بجماله » وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى المذاب مصيره ، فيقف فى هذا للعرض الحافل الحاحد ، وقفة للتحسر الكبير الكتيب . . « يقول : يا ليتلم أوت كتابه ! ولم أدر محاسبه ! يا ليتها كانت القاضية ! ما أغنى عنى ماله ! هلك عنى سلطانيه ! » . .

وهى وقفة طويلة ، وحسرة مديدة ، ونشمة يائسة ، ولحجة بالثة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهى إلى نهاية ، وأن هذا التضرع والتحسر سيمضى بلا غاية ! وذلك من محائب العرض القرآنى فى إطالة بعض اللواقف ، وتقصير بعضها ، وفق الإيهام النفسى الذى يريد أن يتركفى النفوس . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيهام الفجعة من وراء هذا للشهد الحسير . ومن ثم يطول ويطول ، فى تنعيم وتفصيل . ويتنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤثر كتابه ، ولم يدر محاسبه ؛ كما يتنى أن لو كانت هذه القارعة هى القاضية ، التى تهى وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا . . ثم يتحسر أن لاشئ نافعه عما كان يترقبه أو يجمعه : « ما أغنى عنى ماله ! » . « هلك عنى سلطانيه » . . فلا المال أغنى أو تقع . ولا السلطانبقى أو دفع . . والرنة الحزينة الحسيرة للديدة فى طرف الفاصلة الساكنة

وفي ياء العلة قبلها ببدل الد بالألف ، في تحزن وتحسر . . هي جزء من ظلال الموقف اللوحية بالحسرة والأسى إجماع عميقا يليقا (١) . .

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة للديدة إلا الأمر المأوى الجازم ، بجلاؤه وهولته وروعته :
« خذوه . قتلوه . ثم الجحيم صاوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .
يا للهول المائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال المائل !
« خذوه » . .

كلمة تصدر من الملى الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا للسكين الصغير المزيل . ويتندره المكفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول ابن أبي حاتم بإسناده عن النبال ابن عمرو : « إذا قال الله تعالى : خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقى سبعين ألفا في النار » . . كلهم يتندره هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة !
« قتلوه » . .

فأى السبعين ألفا بلغه جبل النمل في عتقه !

« ثم الجحيم صاوه » . .

ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصلبه . .

« ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إجماع التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها . ولعل هذا الإجماع هو المقصود ! (٢) .

فلذا انتهى الأمر ، نثرت أسبابه على الحشود :

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » . .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالباد . فلم يمد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب .

خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور . وهو خال من النور . وهو

(١) تراجع فصل : التناقض الثنى . في كتاب : التصوير الثنى في القرآن . كما تراجع سورة الحاقة في كتاب : مشاهد القيامة في القرآن .

(٢) مشاهد القيامة : سورة الحاقة .

منسخ من السكائن لايساوى الحيوان بل لايساوى الجناد . فكل شئ مؤمن ، يسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو مقطوع من الله . مقطوع من الوجود للؤمن بالله . وخلا قلبه من الرحمة بالباد . وللسكين هواخرج العباد إلى الرحمة . ولكن هنالم يستعمر قلبه مايدعو إلى الاحتفال بأمر للسكين . ولم يحض على طعامه وهى خطوة وراء إطعامه . توحى بأن هناك واجبا اجتماعيا يتحاض عليه للؤمنون . وهو وثيق الصلة بالإيمان . يليه فى النص و يليه فى الليزان ١

« فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسيل . لا يأكله إلا الخاطئون » . . . وهى تسكئة الإعلان الماوى عن مصير ذلك الشقى . فلقد كان لا يؤمن بالله العظيم ، وكان لا يحض على طعام للسكين . فهو هنا مقطوع « فليس له اليوم هاهنا حميم » . . وهو ممنوع : « ولا طعام إلا من غسيل » . . والنسليين هو غسالة أهل جهنم من قبح وصديد اوهو يناسب قلبه النكد الخاوى من الرحمة بالمبيد! طعام « لا يأكله إلا الخاطئون » . . للذنوب للتصفون بالخطيئة . . وهو منهم فى الصميم ١

وبعد ، فذلك هو الذى يحمله الله مستحقا للأخذ والفل والتصلة والسلسلة التى ذرعا سبعون ذراعا فى الجحيم . وهو أشد دركات جهنم عذابا . . فكيف بمن يمنع طعام للسكين ومن يبيع الأطفال والنساء والشيوخ ، ومن يبطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده بالقلمة والكساء فى برد الشتاء ؟ أين ترى يذهب هؤلاء ، وهم يوجدون فى الأرض بين الحين والحين ؟ وما الذى أعد له الله لهم وقد أعد لمن لا يحض على طعام للسكين ، ذلك المذاب فى الجحيم ؟

وينتهى هذا للشهد العنيف الكثير . الذى لعله جاء فى هذه الصورة للفرعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاج إلى عرض هذه المشاهد النيفة كي تؤثر فيها وتهزها وتستجيبها . ومثل هذه البيئة يتكرر فى الجاهليات التى تمر بها البشرية ، كما أنه يوجد فى الوقت الواحد مع أرقى البيئات وأشدها تأثرا واستجابة . لأن رقعة الأرض واسعة . وتوزع الستويات والنفسيات فيها مختلف . والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها ، وبما تستجيب له حين يدعوها . والأرض تحتوى اليوم فى بعض نواحيها قلوبا أقى ، وطبائع أجسى ، وجبالا لا يؤثر فيها إلا كلمات من نار وشواظ كهذه الكلمات . ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور للثيرة . .

وفي ظل هذه للشاهد العنيفة للتيرة ، التتالية منذ أول السورة ، مشاهد الأخذ في الدنيا والآخرة ، ومشاهد التدمير الكونية الشاملة ، ومشاهد النفوس للكشفة العارية ، ومشاهد الفرحة الطائفة والحسرة الفائرة ..

في ظل هذه للشاهد العميقة الأثر في للشاعر يحىء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذى جاءهم به الرسول الكريم ، قلقوه بالشك والسخرية والتكذيب :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إن الأمر لا يحتاج إلى قسم وهو واضح هذا الوضوح ، ثابت هذا الثبوت ، واقع هذا الوقوع . لا يحتاج إلى قسم أنه حق ، صادر عن الحق ، وليس شعر شاعر ، ولا كهانة كاهن ، ولا اقتراف مفتر لا . لما هو بحاجة إلى توكيد يمين :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ..

بهذه الفخامة وبهذه الضخامة ، وبهذا التحويل بالتيب للكون ، إلى جانب الحاضر للشهود . . والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافا قليلة محصورة ، تلي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والحلافة فيها . كما شاء الله لهم . والأرض كلها ليست سوى هباء لا تكد ترى أو تحس في ذلك الكون الكبير . والبشر لا يمكن أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته وإدراكه من هذا الملك المريع ، ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التى أودعها لإمخالق الوجود . .

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » . . .

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعى إلى أن هناك وراء مد البصر ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسرارا أخرى لا يبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنسانى للكون والحقيقة . فلا يمش الإنسان سبعين مائة عناه ، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنسانى اللزود بقدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته في هذا الكون . ووظيفته في الحياة الدنيا هى الحلافة في هذه الأرض .. ولكنه يملك أن يكبر ويرتفع إلى آماد وآفاق أكبر وأرفع حين يستيقن أن عينه ومشاركه محدودة ، وأن هناك وراء ما تدركه عينه وعيه عوالم وحقائق أكبر . بما لا يقاس . تماما وصل

إليه .. عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه ، ويتصل ويتألف المعرفة السكية التي تفيض على قلبه بالملم والنور والاتصال المباشر بما وراء الستور !
إن الذين يحصرهم أنفسهم في حدود ما يرى العين ، ويدرك الوعي ، بأدواته للبصرة له .. مساكين ! سجناء حسهم وإدراكهم المحدود . محصورون في عالم ضيق على ستمته ، صغير حين يقاس إلى ذلك المللك الكبير ..

وفي قترات غتلفة من تاريخ هذه البشرية كان كثيرون أوقليون يسجنون أنفسهم بأيديهم في سجن الحس المحدود ، والحاضر للشهود ؛ وينلقون على أنفسهم نوافذ المعرفة والنور ، والاتصال بالحلق الكبير ، عن طريق الإيمان والشعور . ويحاولون أن ينلقوا هذه النوافذ على الناس بمد ما أغلقوها على أنفسهم بأيديهم .. تارة باسم الجاهلية . وتارة باسم المعانية ؛ وهذه كنتك سجن كبير . وبؤس مرر . واقطاع عن يتألف للمعرفة والنور !

والملم يتخلص في هذا القرن الأخير من تلك القضبان الحديدية التي صاغها - بمحق وغرور - حول نفسه في القرنين الماضيين .. يتخلص من تلك القضبان ، ويتصل بالنور - عن طريق تجاربه ذاتها - بمد ما أفاق من سكرة الفرور والاندفاع من أسر الكنيسة الطاغية في أوربا (١) ؛ وعرف حدوده ، وجرب أن أدواته المحدودة تقوده إلى غير المحدود في هذا الكون وفي حقيقته اللسنونة . وعاد « الملم يدعو إلى الإيمان » (٢) في تواضع تبشر أوائله بالفرج ؛ أي نم بالفرج . لما يسجن الإنسان نفسه وراء قضبان اللادة للوهومة إلا وقد قدر عليه الضيق !

وقد رأينا علامثل الكسيس كاريل الطبيب للتخصص في بحوث الخليق وتقل الدم وللشغل بالطلب علما وجراحة وإشرافا على معاهد العلاج والنظريات العلاجية ، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية يرى :

« أن الكون على رحبه ملوم بقول قتالة غير عقولنا ، وأن العقل الإنساني هاد قاصد بين دروب التيه التي حوله إذا كان مموله كله على هدايته . وأن الضلالة من وسائل الاتصال بالقول التي حولنا ، وبالمقل الأبدي للسيطر على مقادير الأكوان قاطبة ، فيما هو ظاهر لنا وما هو عتجب عنا في طي الخفاء » (٣).

(١) يراجع بتوسع كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب .. فصل نظرة المسيحية وفصل فرويد ،

(٢) عنوان ترجمة كتاب أ . كريس موريسون رئيس أكاديمية العلوم ببنبروك لحدود صالح الفلكس .

(٣) من كتاب : عقائد للفكرين في القرن العشرين للهاد ..

« وأن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحاني له شأن خاص في الحياة ، لأنه يقينا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح » . . (١) .

ورأينا طبيبا آخر مثل « دى نوى » الذى اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعى ، وعمل مع الأستاذ كورى وقرينته ، واستدعاه مههد ووكفار لمواصلة بحث مع أعضائه في خصائص وعلاج الجراح . . يقول :

« كثير من الأذكىاء وذوى النية الحسنة يتخيّلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه . على أن الإنسان الأمين الذى تنطوى نفسه على الشوق العلمى لا يازمه أن يتصور الله إلا كما يازم العالم الطبيعى أن يتصور الكهرب . فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل . وليس الكهرب قابلا للتصور في كيانه للمادى ، وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب » . . (١) .

ورأينا عالما طبيعيا مثل سير آرثر طومسون المؤلف الاسكتلندى الشهير يقول : « إننا في زمن شفت فيه الأرض الصلبة ، وقد فيه الأثير كيانه للمادى ، فهو أقل الأزمنة صلاحا للغاوى والتأويلات للمادية » .

ويقول في مجموعة « العلم والدين » :

« ليس للعقل للدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعى لا يخلص من الطيبة إلى رب الطيبة . إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر جدا من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطيبة إلى ما فوق الطيبة . إلا أننا خلقاء أن نتنبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للزعة البديهة أن تتنفس في جو العلم ، حيث لم يكن ذلك يسيرا في أيام آبائنا وأجدادنا . . فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يسبحوا في الله — كما زعم مستر لانجدون دافيز خطأ في كتابه البديع عن الإنسان وعالاه — فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم ، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أبطل وأسمى ، ولا نجاوز للمنى الحرفى حين تقول : إن العلم أنشأ للإنسان معاد جديدة وأرضا جديدة ، وحفره من ثم إلى غاية جهنم العقل ، فإذا به ، في كثير من الأحيان ، لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله » (١) .

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين .

ورأينا علما مثل « ا . كريسي موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة سابقا يقول في كتابه : « الإنسان لا يقوم وحده (١) » :

« إننا تقترب قفلا من عالم المجهول الشاسع ، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هي في جوهرها كهربائية . ولكن بما لا ريب فيه أن للصادقة لم يكن لها دخل في تكوين الكون ، لأن هذا العالم العظيم خاضع للقانون .

« إن ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي ، ودون قصد ابتداعي .

« وإذا قبلت واقية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازا . ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لافائدة منه . والعلم لا يعمل من يتولى إدارته ، وكذلك لا يزعم أنه مادي .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره . . . » .

وهكذا بدأ العلم يخرج من سجن المادية وجدرانها بوسائله الدنائية ، فيتصل بالجو الطليق الذي يشير القرآن إليه بمثل تلك الآية الكريمة : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » . ونظائره المتعددة . وإن يكن بيتنا نحن من أقزام التفكير والشعور من لا يزال يخلق بكتنا يديه نوافذ النور على نفسه وعلى من حوله باسم العلم ا في تخلف عقل عن العلم . وفي تخلف روعي عن الدين . وفي تخلف شعوري عن الحرية الطليقة في معرفة الحقيقة ا وفي تخلف إنساني عما يليق بالكائن الإنساني الكريم ا

فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . . « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » . .

ولقد كان مما تحول به للشركون على القرآن وعلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قولهم : إنه شاعر . وإنه كاهن . متأثرين في هذا بشبهة سطحية ، منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على كلام البشر . وأن الشاعر في وهمهم له رأي من الجن يأتيه بالقول القائق ، وأن الكاهن

(١) المترجم بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

كذلك متصل بالجن . فهم الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع ! وهى شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة ، وطبيعة الشعر أو الكهانة .

فالشعر قد يكون موسيقى الإيقاع ، رائع الأخيـلة ، جميل الصور والظلال ؛ ولكنه لا يختلط أبداً ولا يشبه بهذا القرآن . إن هنالك فارقاً أساسياً فاصلاً بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهاجاً متكاملًا للحياة يقوم على حق ثابت ، ونظرة موحدة ، ويصدر عن تصور للوجود الإلهي ثابت ، وللكون والحياة كذلك . والشعر اتصالات متوالية وعواطف جياشة ، قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة في حالات الرضى والغضب ، والانطلاق والانكماش ، والحب والكراهة ، والتأثرات المتغيرة على كل حال !

هذا إلى أن التصور الثابت الذى جاء به القرآن قد أنشأ القرآن إنشاءً من الأساس ، فى كلياته وجزئياته ، مع تعيين مصدره الإلهي . فكل ما فى هذا التصور يوحى بأنه ليس من عمل البشر ، فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصورا كونيا كاملا كهذا التصور . . لم يسبق لهم هذا ولم يلحق . . وهذا كل ما أبدعته قرائع البشر من تصورات للكون والقوة المنشئة له المدبرة لنظامه . . هذا هو معروفنا مسجلا فى الفلسفة وفى الشعر وفى غيرها من المذاهب الفكرية ؟ فإذا قرن إلى التصور القرآنى وضع أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه مفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر .

كذلك الأمر فى الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهنا أنشأ منهاجاً متكاملًا ثابتاً كالمناهج التى جاء به القرآن . وكل ما نقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة ، أو إشارة ملفزة !

وهناك لغات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها ، وقد وقفنا عند بعضها فى هذه الظلال أحيانا . فلم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف ، فأتبعه إلى مثل هذه الصورة التى جاءت فى القرآن :

« وعنده مفاتح الغيب لا يسلها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يسلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين (١) » . . أو إلى مثل هذه الصورة : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج

فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ^(١) » أو إلى مثل هذه الصورة : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير ^(٢) »

كذلك لم يسبق لبشر ولم يلحق أن التفت مثل هذه اللفتة إلى القدرة التي تمسك هذا الكون وتدبره : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ^(٣) . » أو هذه اللفتة إلى انبثاقات الحياة في الكون من يد القدرة للبدعة وما يحيط بالحياة من مواقف كونية مدبرة مقدرة :

« إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت وعرج لليت من الحي . ذلكم الله . فائق تؤنسكون . فائق الإصباح . وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تدبر العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يملكون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والامان مشتها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ^(٤) . »

وهذه اللفات الكونية كثيرة في القرآن كثيرة ملحوظة ، ولا نظير لها فيما تنجبه إليه خواطر البشر للتعبير عن مثل المعاني التي يعبر عنها القرآن .. وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب . . بغض النظر عن كل دلالة أخرى من صلب الكتاب أو من اللابسات المصاحبة له على السواء .

فالشيء واهية سطحية . حتى حين كان القرآن لم يكتمل ، ولم تنزل منه إلا سور وآيات عليها ذلك الطابع الإلهي الخاص ، وفيها ذلك القيس للوحى بمصدرها القريد . وكبراء قريش كانوا يراجعون أنفسهم ، ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين . ولكن

(١) سورة الحديد : آية ٤

(٢) سورة طه : آية ١١

(٣) سورة طه : آية ٤١

(٤) سورة الأنعام : آية ٩٥ - ٩٩

الغرض يعنى ويصم . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفاك قديم . كما يقول القرآن الكريم ١
وقد حكى كتب السيرة مواقف ممتدة لزعماء قريش ، وهم يراجعون هذه الشبهة وينفونها
فيها بينهم .

من ذلك مارواه ابن إسحاق عن الوليد ابن الليرة ، وعن النضر ابن الحارث ، وعن عتبة
ابن ربيعة وقد جاء في روايته عن الأول :

« ثم إن الوليد ابن الليرة اجتمع إليه نفر من قريش . وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر اللوسم .
فقال لهم : يامشر قريش ، إنه قد حضر هذا اللوسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ،
وقد سموا بأمر صاحبكم هذا ؛ فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ،
ويرد قولكم بعضه بعضا ، فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس قتل ، وأقم لنا رأيا تقل به . قال : بل
أنتم قولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما
هو بزممة الكاهن ولا سجه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا
المجنون وعرفناه ، فما هو بختة ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر .
لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول :
ساحر . قال : ما هو بساحر ؟ لقد رأينا السحار وسحرم ، فما هو بنفهم ولا عقدهم . . . قالوا :
فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمدق ، وإن فرعه لجناة (١)
وما أنتم بفائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو
ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين اللراء وأبيه ، وبين اللراء وأخيه ، وبين اللراء وزوجه ،
وبين اللراء وعشيرته . ففروا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا اللوسم -
لا يمر بهم أحد إلا حذرده إياه ، وذكروا لهم أمره . . . »

وحكى عن الثاني (النضر ابن الحارث) قال :

« فقال يامشر قريش . إنه والله قد نزل بك أمر ما أنتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم
غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه
الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلم : ساحر إلا والله ، ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفهم
وعقدهم . وقتلهم كاهن ! لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمنا سحجهم .

(١) المدق : الكثير الضرب والأطراف . والجناة : مالهية ثم يمين .

وقلت : شاعر ! لا والله ما هو بشاعر . قد رأينا الشعر ، وسمنا أصفافه كلها هزجه ورجزه .
وقلت : مجنون لقد رأينا الجنون فها هو مجننه ولا وسوسته ولا تخيلته . يامشتر قريش ، فانظروا
في شأنكم ، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم . . . » .

وللطائفة تكاد تكون تامة — بين قوله وقوله عتبة . وقد يكون هو حادثا واحدا نسب
مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . ولكن لا نستبعد كذلك أن يتطابق قولان لرجلين من كبار
قريش في موقفين متشابهين من مواقف حيرتهم تجاه هذا القرآن !
وأما موقف عتبة فقد سبقته حكايتي في استعراضنا لسورة القلم في هذا الجزء .. وهو قريب
من موقف الوليد والنضر تجاه محمد ونجاه القول الذي جاء به . .

فما كان قولهم : ساحر أو كاهن . إلا حيلة مأكرة أحيانا وشبهة مفضوحة أحيانا . والأمر
أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تمكبر . وهو من ثم لا يحتاج إلى قسم بما يطون
وما لا يسلون : إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . ولا بقول كاهن . . إنما هو
تنزيل من رب العالمين .

وتقرر أنه قول رسول كريم لا ينفي أنه من إنشائه . ولكن للراد هنا أنه قول من نوع
آخر . لا يقوله شاعر . ولا يقوله كاهن . إنما يقوله رسول . يرسل به من عند الله . فيحملة
من هناك . من ذلك المصدر الذي أرسله . والذي يمين هذا للذي هو كلمة رسول . أي مرسل
به من عنده ، وليس شاعرا ولا كاهنا يقوله من عند نفسه . أو بمساعدة ربي أو شيطان ..
إنما هو رسول يقول ما يحمله عن أمره . ويقرر هذا تحريرا حاسما ماجاء بعده : « تنزيل
من رب العالمين » ..

والتعقيب : « قليلا ماتؤمنون » . . « قليلا ماتذكرون » . . مدلوله نفي الإيمان ، ونفي
التذكر . وفق تسميات اللغة للألوفة . وفي الحديث في وصف رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
« إنه كان يقل اللغو » . أي لا يلبس أصلا .. قد نفي عنهم أصل الإيمان وأصل التذكر . وإلا فما
يقول مؤمن عن الرسول : إنه شاعر ، ولا يقول متذكر متدبر : إنه كاهن . إنما هما الكفر
والغلظة يضحان بهذا القول الكبير !



وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرعب ، لمن يختار على الله في شأن العقيدة وهي الجذ الذي

لاهوادة فيه . يحمي لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمانته فيما أبلغه إليهم أو بلغه . بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً . كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ :

« ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » . .

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما أبلغهم . وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله قتلته على هذا النحو الذي وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق .

هذه هي القضية من الناحية التقريرية . . ولكن للشهد للتحرك الذي ورد فيه هذا التقرير شيء آخر ، يلقى ظلالة بيدة وراء اللحن التقريري . ظلالة فيها رهبة وفيها هول . كما أن فيها حركة وفيها حياة ، ووراءها إيماءات وإيماءات وإيقاعات !

فيها حركة الأخذ باليمين وقطع الوتين . وهي حركة عنيفة هائلة مروعة حية في الوقت ذاته . ووراءها الإيماء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشري أمامها وضغفه . . البشر أجمعين . . كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التي لا تخفى تساعها ولا بجمالة لأحد كائناً من كان . ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب . ووراءها بمد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع !



وأخيراً نجيء الحاجة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية :

« وإنه لتذكرة للتمتين . وإننا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين » .

فهذا القرآن يذكر القلوب الثقية فتذكر . إن الحقيقة التي جاء بها كامنة فيها . فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتذكرها . فأما الذين لا يتقون قلوبهم مطموسة غافلة لا تنفتح ولا تذكر . ولا تنيد من هذا الكتاب شيئاً . وإن للتمتين ليجدون فيه من الحياة والنور والعرفه والتذكير ما لا يجده العاقلون .

« وإننا لنعلم أن منكم مكذبين » . . ولكن هذا لا يؤثر في حقيقة هذا الأمر ، ولا يغير من هذه الحقيقة . فأمركم أهون من أن يؤثر في حقائق الأمور .

« وأنه حسرة على الكافرين » .. بما يرفع من شأن المؤمنين ، ويحط من قدر المكذبين .
وبما ينتهي إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل الذي يستمسك به الكافرون . ثم إنه حجة
عليهم عند الله في اليوم الآخر ، يمدبون به ، ويتحسرون لما يسبهم بسببه . فهو حسرة على
الكافرين في الدنيا والآخرة .

« وأنه لحق اليقين » .. مع تكذيب للكذابين . حق اليقين . فليس مجرد اليقين ، ولكنه
الحق في هذا اليقين . وهو تيسير خاص يضاعف للمنى ويضاعف التوكيد . وإن هذا القرآن
لميق في الحق ، عميق في اليقين . وأنه ليكشف من الحق الخالص في كل آية ما يحى بأن
مصدره هو الحق الأول الأصيل ..

فهذه هي طبيعة هذا الأمر وحقيقته المستيقنة . لاهو قول شاعر . ولا هو قول كاهن . ولا
هو تقول على الله . إنما هو التنزيل من رب العالمين . وهو التذكيرة للمتيقن . وهو
حق اليقين .

هنا يحى التلقين الملقى للرسول الكريم ، في أنسب وقت وأنسب حالة لهذا التلقين :

« فصبح باسم ربك العظيم » ..

والتسبيح بما فيه من تزيه وتمجيد . وبما فيه من اعتراف وتحقيق . وبما فيه من عبودية
وخشوع . . . هو الشعور الذي يخالج القلب ، بعد هذا التقرير الأخير ، وبعد ذلك الاستعراض .
الطويل ، لقدرة الله العظيم ، وعظمة الرب الكريم . .

سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ
وَأَبَاسُهَا ٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي
الْعَارِجِ * نَزَجُ الْمُكَذِّبَةِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ *
فَاصْبِرْ صَبْرًا جَدِيدًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ *
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا * يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ تَوْفِيقِي
مِّنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا نُّمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأَقْصَىٰ * نَزَاعَةٍ لِّلشَّوْءِ * تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّىٰ *
وَجَمَعَ قَاوِمِي» .

«إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا *
إِلَّا الْمُسْلِمِينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ *
لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ
مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِي بَقَابٍ مَُّكْرَمُونَ .

« فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْلِكِينَ ؟ * عَنِ الَّتِي نَ وَعَى الشَّالِ عَزِينَ ؟ *
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟ * كَلَّا ! إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ مِمَّا يَعْلَمُونَ *
فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ،
وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ * فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ *
يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ مِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » . .

هذه السورة حلقة من حلقات الملاج البليء ، اللديد ، العميق ، الدقيق ، لقائيل الجاهلية
في النفس البشرية كما واجهها القرآن في مكة ، وكما يمكن أن يواجهها في أية جاهلية أخرى مع
اختلافات في السطوح لاني الأعماق ، وفي الظواهر لاني الحقائق !
أو هي جولة من جولات للمركة الطويلة الشاقة التي خاضها في داخل هذه النفس ، وفي
خلال دروبها ومنحنياتها ، ورواسبها وركامها . وهي أضخم وأطول من الممارك الحسرية التي
خاضها المسلمون - فيما بعد - كما أن هذه الرواسب وتلك القبايل هي أكبر وأصعب من القوى
التي كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية والتي مازال مرصودة لها في الجاهليات
القديمة والحديثة !

والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ، وعلى
وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين ، كما أوعدهم القرآن الكريم . وهي تلم - في
طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة - بحقيقة النفس البشرية في الضراء والسرء . وهي حقيقة تخلف
حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسات النفس للؤمنة ومنهجها في
الشعور والسلوك ، واستحقاقها للتكريم . وبهوان الدين كفروا على الله وما أعده لهم من
مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين . . وتشر السورة كذلك اختلاف القيم وللتأيس في تهدير
الله وتقدير البشر ، واختلاف اللوازين . . .

وتؤلف بهذه الحقائق حلقة من حلقات الملاج الطويل لقائيل الجاهلية وتصوراتها ،

أو جولة من جولات الحركة الشاقة في دروب النفس البشرية ومنحنياتها، تلك الحركة التي خاضها القرآن فانتصر فيها في النهاية مجردا من كل قوة غير قوته الذاتية . فقد كان انتصار القرآن الحقيقي في داخل النفس البشرية - ابتداء - قبل أن يكون له سيف يدفع الفتنة عن المؤمنين به فضلا على أن يرغم به أعداءه على الاستسلام له !

والذى يقرأ هذا القرآن - وهو مستحضر في ذهنه لأحداث السيرة - يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذى كان هذا القرآن يواجه به النفوس في مكة ويروضها حتى تسلس قيادها راغبة مختارة . ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعا هجيا . . تارة يواجهها بما يشبه الطوفان النامر من الدلائل للوحية وللثورات الجارفة وتارة يواجهها بما يشبه الحراسة الساحقة التي لا يثبت لها شيء مما هو راسخ في كيائها من التصورات والرواسب وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقمها ولا يصبر على لدغها ! وتارة يواجهها بما يشبه اللجاجة الحبيسة ، ولمسارة الودود ، التي تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ! وتارة يواجهها بالهول المريع ، والصرخة المفزعة ، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونساعة لاتدع مجالاً لثقلت عنها ولا الجدل فيها . وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندي الذي يهتف لها ويناجيها . وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فليق عليها الأضواء التي تكشفها لقاتها فتري ما يجرى في داخلها رأى العين ، وتغجل من بعضه ، وتكره بعضه ، وتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها . . ومثات من اللسات ، ومثات من اللفتات ، ومثات من المتنافات ، ومثات من المؤثرات . . يطلع عليها قارئ القرآن ، وهو يتبع تلك الحركة الطويلة ، وذلك الملاج البطء . ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العسية النيدة .

وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة في إقرار حقيقة الآخرة ، والحقائق الأخرى التي ألت بها في الطريق إليها .

وحقيقة الآخرة هي ذاتها التي تصدت لها سورة العاقبة ، ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى ، وتعرض لها من زاوية جديدة ، وصور وظلال جديدة . .

في سورة العاقبة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب في هذا اليوم ، تمثيل في حركات عنيفة في مشاهد الكون الهائلة : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال

فدكتنا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » . . وفي الجلال
اللهيب في ذلك المشهد للرهوب : « وللك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ
ثمانية » . . وفي التكتشف الذي ترجح له وتستوله للشاعر : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم
خافية » . .

كذلك كان المول والرعب يمتثلان في مشاهد العذاب ، حتى في النطق بالحكم بهذا العذاب :
« خذوه . فتأوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . . كما
يتجلى في صراخ المذنبين وتأوهاتهم وحسراتهم : « يا ليتني لم أوت كتابه . ولم أدر ما حيايه .
يا ليتها كانت القاضية . . »

فأما هنا في هذه السورة فالمول يتجلى في ملامح النفوس وسماها وخوالجها وخطواتها ،
أكثر مما يتجلى في مشاهد الكون وحركاته . حتى للشاهد الكونية يكاد المول يكون فيها
نفسيا وهو على كل حال ليس أبرز مافي الموقف من أهوال . إنما المول مستكن في النفس
يتجلى مداه في مدى ما يحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة : « يوم تسكون السماء كلليل ،
وتسكون الجبال كالهن . ولا يسأل حميم حميا . يصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب
يومئذ بينه ، وصاحبه وأخيه ، فضيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جيمًا ثم ينجي » . .

وجهم هنا « نفس » ذات مشاعر وذات وعي تشارك مشاركة الأحياء في سمة المول الحي :
« إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . .

والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسي أكثر منه حسي : « يوم يخرجون من الأجداث
سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي
كانوا يوعدون » . .

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف في سورة للمارج عنها في سورة الحاقة ،
باختلاف طابعي السورتين في عمومهما . مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورتان في
هذه للشاهد .

ومن ثم فقد تناولت سورة المارج - فيما تناولت - تصوير النفس البشرية في الضراء
والسراء ، في حالتَي الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متاسقا مع طابعها « النفس »
الحساس : فبما في صفة الإنسان : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا نسه الثرى جزوعا ، وإذا مسه

أخبر منوعا. إلا الصليين ، الذين هم على صلاتهم دأعون . . . الخ » . واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماتها الظاهرة وللضمة تمثيا مع طبيعة السورة وأسلوبها : «إلا الصليين . الذين هم على صلاتهم يحافظون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مبأون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتنى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهادتهم قأعون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . . . » .

ولقد كان الاتجاه الرئيسى فى سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجسد الصارم فى شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى فى السورة ، كحقيقة أخذ للكذابين أخذاً صارماً فى الأرض ؟ وأخذ كل من يبدل فى العقيدة بلا تسامح . . . فأما الاتجاه الرئيسى فى سورة المارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء . حقيقة الآخرة هى الحقيقة الرئيسة فيها .

ومن ثم كانت الحقائق الأخرى فى السورة كلها متصلة اتصالاً مباشراً بحقيقة الآخرة فيها . من ذلك حديث السورة عن القارق بين حساب الله فى أيامه وحساب البشر ، وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر : « تخرج لللائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جليلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً . . . الخ » وهو متعلق باليوم الآخر . ومنه ذلك القارق بين النفس البشرية فى الضراء والسراء فى حالتى الإيمان والخلو من الإيمان . وهما مؤهلان للجزاء فى يوم الجزاء .

ومنه غرور الذين كفروا وطعمهم أن يدخلوا كلهم جنة نعيم ، مع هوانهم على الله وعجزهم عن سبقه وانفلات من عقابه . وهو متصل اتصالاً وثيقاً بمحور السورة الأصيل . وهكذا تسكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهى الحقيقة الكبيرة التى تصدى لإقرارها فى النفوس . مع تنوع اللغات والحقائق الأخرى المصاحبة للموضوع الأصيل .

ظاهرة أخرى فى الإيقاع للموسيقى للسورة ، أنشأ من بنائها التمييز . . . فقد كان التنوع

الإيقاعى فى الحاققة ناشئا من تغير القافية فى السياق من ققرة لققرة . وفق للنق والجو فيه . .
فأما هنا فى سورة المارج فالتنوع أبعد نطاقا ، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع
القافية وحدها . والجملة للموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيا . وبكثرة هذا التنوع فى
شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

ففى هذا اللطع ثلاث جمل موسيقية متنوعة سمع اتحاد الإيقاع فى نهاياتها . من حيث الطول ،
ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالى :

« سأل سائل بمذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المارج . تخرج لللائكة
والروح إليه . فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا » . . حيث تنتهى بمد
الألف فى الإيقاع الخامس .

« لهم يرونه مبدا . وراه قريبا » . . حيث يتكرر الإيقاع بمد الألف مرتين .
« يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالسمن . ولا يسأل حميم حميا » . . حيث
تنتهى بمد الألف فى الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع فى الداخل .
« يصيرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بئنه . وصاحبه وأخيه . وفضيلته
التي تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى » . . حيث ينتهى بمد الألف فى
الإيقاع الخامس كالأول .

« نزاعة للشوى . . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوعا .
إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا » . . حيث يتكرر إيقاع للد بالألف خمس مرات
منهما اثنتان فى النهاية تختلفان عن الثلاثة الأولى .

ثم يستقيم الإيقاع فى باقى السورة على اللم والنون وقبلها واو أو ياء . .
والتنوع الإيقاعى فى مطلع السورة عميق وشديد التقيد فى الصياغة للموسيقية بشكل
يلفت الأذن للموسيقية إلى ما فى هذا التنوع للتقيد الراقى - موسيقيا - من جمال غريب على البيئة
العربية وعلى الإيقاع للموسيقى العربى . ولكن الأسلوب القرآنى يطوعه ويمنحه اليسر الذى
يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه ، وإن كان فنا إبداعيا عميقا جديدا على مألوفها
الموسيقى (١) .

(١) الذين يعرفون شيئا من الأصول للموسيقية نرى يجدوا صعوبة فى فهم مدلول هذا السلام . ولتفريه
للآخرين براجع فصل : التناسق النقي فى كتاب : التصوير النقي فى القرآن .

والآن نستعرض السورة تفصيلا . . .

« سأل سائل بمذاب واقع، للكافرين ليس له دافع، من الله ذى المارج، ترجع الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبرا جميلا، إنهم يرونه مبیدا ونراه قريبا، يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميا، يصرونهم، يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبه وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيها . كلا ! إنها لظى، نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى، وجمع فأوعى » . . .

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق الصيرة الإدراك عند مشركي العرب ؛ وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة، وكانوا يتلقونها بنافذة العجب والدهش والاستعراب ؛ وينكرونها أشد الإنكار، ويتحدون الرسول - صلى الله عليه وسلم - في صورته أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود، أو أن يقول لهم : متى يكون .

وفي رواية عن ابن عباس أن الذي سأل عن المذاب هو النضر ابن الحارث . وفي رواية أخرى عنه : قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم .

وعلى أية حال فالسورة تحكي أن هناك سائلا سأل وقوع المذاب واستجبه . وتقرر أن هذا المذاب واقع فعلا، لأنه كائن في تقدير الله من جهة، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى. وأن أحدا لا يمكنه دفعه ولا منعه. فالسؤال عنه واستجابه - وهو واقع ليس له من دافع - يبدو تلماسة من السائل للمستجبل ؛ فردا كان أو مجموعة !

وهذا المذاب للكافرين . . . إطلاقا . . . فيدخل فيه أولئك السائلون المستجبلون كما يدخل فيه كل كافر . وهو واقع من الله « ذى المارج » . . . وهو تعبير عن الرقة والتعالى ، كما قال في السورة الأخرى : « رفيع الدرجات ذو العرش » . . .

وبعد هذا الافتتاح الذي يقرر كلة الفصل في موضوع المذاب، ووقوعه، ومستحقه، ومصدره، وعلا هذا المصدر ورفقته، بما يحصل قضاءه أمرا علويا نافذا لا مرد له ولا دافع . . . بعد هذا أخذ في وصف ذلك اليوم الذي سيقع فيه هذا المذاب، والذي يستجبلون به وهو منهم قريب. ولكن تقدير الله غير تقدير البشر، ومقاييسه غير مقاييسهم :

« تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا ،
لأنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

والأرجح أن اليوم المشار إليه هنا هو يوم القيامة ، لأن السياق يكاد يبين هذا المعنى .
وفي هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله . والروح : الأرجح أنه جبريل عليه السلام ، كما
سمى بهذا الاسم في مواضع أخرى . وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة لئلا يخلط من شأن خاص . وعروج
للملائكة والروح في هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر ، لإعلاء بأهميته في هذا اليوم وخصوصيته ،
وهم يبرجون في شؤون هذا اليوم ومهامه . ولا ندرى نحن - ولم نكلف أن ندرى - طبيعة
هذه المهام ، ولا كيف يصعد للملائكة ، ولا إلى أين يصعدون . فهذه كلها تفاصيل في شأن
الغيب لا نزيد شيئا من حكمة النص ، وليس لنا إليها من سبيل ، وليس لنا عليها من دليل . فحسبنا
أن نشعر من خلال هذا الشهد بأهمية ذلك اليوم ، الذي ينشغل فيه للملائكة والروح بتحركات
تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم .

وأما « كان مقداره خمسين ألف سنة » . . فقد تكون كناية عن طول هذا اليوم كما هو
مألوف في التعبير العربي . وقد تعنى حقيقة معينة ، ويكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف
سنة من سنى أهل الأرض فعلا وهو يوم واحد . وتصور هذه الحقيقة قريب جدا الآن . فإن
يومنا الأرضي هو مقياس مستمد من دورة الأرض حول نفسها في أربع وعشرين ساعة .
وهناك نجوم دورتها حول نفسها تستغرق ما يبادل يومنا هذا آلاف للرات . . ولا يبنى هذا
أنه هو المقصود بالخمسين ألف سنة هنا . ولكننا نذكر هذه الحقيقة لتقرب إلى الدهن تصور
اختلاف القاييس بين يوم ويوم !

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوى خمسين ألف سنة ، فإن عذاب يوم القيامة قد
يرونه هم بعيدا ، وهو عند الله قريب . ومن ثم يدعو الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر
الجميل على استجالتهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب .

« فاصبر صبرا جميلا . لأنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

والدعوة إلى الصبر والتوجه إليه صاحبت كل دعوة ، وتكررت لكل رسول ، ولكن
مؤمن يتبع الرسول . وهى ضرورة لتقل البلاء ومشقة الطريق ، ولحفظ هذه النفوس
متأسكة راضية ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد . .

والصبر الجليل هو الصبر الملمئن ، الذى لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك . فى صدق الوعد . صبر الواقى من العاقبة ، الراضى بقدر الله ، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء ، للوصول بالله المحتسب كل شىء عنده مما يقع به .

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهى دعوة الله ، وهى دعوة إلى الله . ليس له هو منها شىء . وليس له وراءها من غاية . فكل ما يلقاه فيها فهو فى سبيل الله ، وكل ما يقع فى شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجليل إذن ينبعث متناسقا مع هذه الحقيقة ، ومع الشعور بها فى أعماق الضمير .

والله صاحب الدعوة الذى يقف لها للكذبون ، وصاحب الوعد الذى يستجلبون به ويكذبون ، يقدر الأحداث ويقدر مواعيتها كما يشاء وفق حكمته وتديره للكون كله . ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير ؟ فيستجلبون . وإذا طال عليهم الأمد يستريون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم ، وتجول فى خاطرهم أمنية ورغبة فى استجبال الوعد ووقوع الموعد . . عندئذ يحىء مثل هذا التثبيت وهذا التوجيه من الله الحبير :

« فاصبر صبرا جليلا » . .

والخطاب هنا للرسول - صلى الله عليه وسلم - تثبيتا لقلبه على ما يلقى من عنت للناوئة والتكذيب . وتقريرا للحقيقة الأخرى : وهى أن تقدير الله للأشياء غير تقدير البشر ، ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة :

« إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

ثم يرسم مشاهد اليوم الذى يقع فيه ذلك العذاب الواقع ، الذى يرونه بعيدا ويراه الله قريبا . يرسم مشاهدته فى جمالى الكون وأغوار النفس . وهى مشاهدته بالهول للذهل المزلق فى الكون وفى النفس سواء :

« يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » . .

والهمل ذوب المعادن الكندر كدردى الزيت . والعهن هو الصوف المتنفش . والقرآن يقرر فى مواضع مختلفة أن أحداثا كونية كبرى ستقع فى هذا اليوم ، تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها . ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن الذائبة . وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية . فمن المرجح عندهم

أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية — وهى بمد درجة الانصهار والسيولة بمراحل — فلعلها فى يوم القيامة ستنطفيء (كما قال : « وإذا النجوم انكدرت ») وستبرد حتى تصبح معادن سائلة ! وبهذا تتميز طبيعتها الحالية وهى الطبيعة الغازية !

على أية حال هذا مجرد احتمال ينفع الباحثين فى هذه العلوم أن يتدبروه . أما نحن فنقف أمام هذا النص تملئ ذلك المشهد المروع ، الذى تكون فيه الهاء كذب المادان السكر ، وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المتنفش . وتتملى ما وراء هذا المشهد من الهول المذهل الذى ينطبع فى النفوس ، فيمبر عنه القرآن أعحق تمييز :

« ولا يسأل حميم حيا . يصرونهم . يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجي » . .

إن الناس فى هم شافل ، لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة فى شعوره لتبره : « ولا يسأل حميم حيا » . . فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج ، وحبس النفوس على همها لاتعمده . . وإلهم ليعرضون بعضهم على بعض « يصرونهم » كأنما عمدا وقعدا ! ولكن لكل منهم هم ، ولكل ضمير منهم شغل . فلا يهجر فى خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ، ولا أن يسأله عونه . فالكرب يلف الجميع ، والهول يفتى الجميع . .

فما بال « المجرم » ؟ إن الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وإنه ليود لو يفتدى من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، بمن كان يفتديهم بنفسه فى الحياة ، ويواصل عنهم ، ويميش لهم . . بينه . وزوجه . وأخيه . وعشيرته القرية التى تؤويه وتحبه . بل إن لهفته على النجاة لتفقد الشهور بغيره على الإطلاق ، فيود لو يفتدى بمن فى الأرض جميعا ثم ينجي . . وهى صورة للهفة الطاغية والفرع المذهل والرغبة الجارحة فى الإفلات اصورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالقزع ، ترسم من خلال التعبير القرآنى للوحى .

وبينا المجرم فى هبته الحال ، يتحنن ذلك الحال ، يسمع ما يسمع ويرقنط من كل بارقة من أمل ، أو كل حديث خادع من النفس . كما يسمع للأجما حقيقة اللوقف وما يجرى فيه :

« كلا ! إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . .

إنه مشهد تطير له النفس شماعا ، بمد ما أذهلها كرب اللوقف وهوله . . « كلا » فى رده عن تلك الأمانى المستحيلة فى الاقتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن فى الأرض جميعا ...

« كلا! إنها لظي » نارتلظي وتتحرق « نزاعة للشوى » نزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزا .. وهي غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك في الهول والمذاب عن إرادة وقصد : « تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . . تدعو كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعو جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولا عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يشتدى بما في الأرض كله منها !

والتوكيد في هذه السورة والسورة السابقة قبلها وفي سورة القلم كذلك على منع الخير ، وعدم الحس على طعام للسكين ، وجمع المال في الأوعية إلى جانب الكفر والتكذيب وللحصى .. هذا التوكيد يدل على أن الدعوة كانت تواجه في مكة حالات خاصة يجتمع فيها البخل والحرص والجشع إلى الكفر والتكذيب والضلالة . مما اقتضى تكرار الإشارة إلى هذا الأمر ، والتخويف من عاقبته ، بوصفه من موجبات المذاب بعد الكفر والشرك بالله .

وفي هذه السورة إشارات أخرى تفيد هذه المعنى . وتؤكد ملامح البيئة المسكية التي كانت تواجهها الدعوة . فقد كانت بيئة مشغولة بجمع المال من التجارة ومن الربا . وكان كبار قريش هم أصحاب هذه المتاجر ، وأصحاب القوافل في رحلق الشتاء والصيف . وكان هنالك تكالب على الثراء ، وشغ النفوس بحمل الفقراء محرومين ، واليتامى مضيقين . ومن ثم تكرر الأمر في هذا الشأن وتكرر التحذير . وظل القرآن يبالغ هذا الجشع وهذا الحرص ، ويغوض هذه المعركة مع الجشع والحرص في أغوار النفس ودروبها قبل الفتح وبعده على السواء . مما هو ظاهر لمن يتتبع التحذير من الربا ، ومن أكل أموال الناس بالباطل ، ومن أكل أموال اليتامى إسرافا وبدارا أن يكبروا ! ومن الجور على اليتامى واحتجازهن للزواج الجائر رغبة في أموالهن ! ومن نهر السائل . وقهر اليتيم ، ومن حرمان المساكين ... إلى آخر هذه الملاحظات المتتابعة العنيفة الدالة على الكثير من ملامح البيئة . فضلا على أنها توجهات دأبة لملاج النفس الإنسانية في كل بيئة . وحب المال ، والحرص عليه ، وشغ النفس به ، والرغبة في احتجانه ، آفة تساور النفوس مسورة عنيفة ، وتحتاج للانطلاق من أسارها والتخلص من أوهاقها ، والتحرر من ربقتها ، إلى معارك متلاحقة ، وإلى علاج طويل !

والآن وقد انتهى من تصوير المأساة في مشاهد ذلك اليوم ، وفي صورة ذلك العذاب ؛ فإنه يتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية في مواجهة الشر والخير ، في حالتى إيمانها وخلوها من الإيمان . وقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين :

« إن الإنسان خلق هالوعا : إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لقروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهادتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرمون . »

وصورة الإنسان - عند خواء قلبه من الإيمان - كما يرسمها القرآن صورة هجينة في صدقها وصدقها وتميزها الكامل عن الملامح الأصلية في هذا المثلوق ؛ والتي لا يصعب منها ولا يرفعه عنها إلا النصر الإيماني ، الذي يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التي تحسك به من الجزع عند ملاقة الشر ، ومن الشح عند امتلاك الخير .

« إن الإنسان خلق هالوعا : إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا » . .

لكأنما كل كلمة من ريشة مبدعة تضع خطا في ملامح هذا الإنسان . حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار للمبدوعة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة . وانتفض من خلالها الإنسان ببأنه ولامحه الثالثة . هالوعا . . جزوعا عند مس الشر ، يتألم للدمته ، ويمزج لوقعه ، ويعسب أنه دائم لا كاشف له . وينظن اللحظة الحاضرة سمردا مضروبا عليه ؛ ويحبس نفسه بأوهامه في قمم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به . فلا يتصور أن هناك فرجا ؛ ولا يتوقع من الله تقيدا . ومن ثم يأكل الجزع ، ويمزج الملح بالذوق ؛ ذلك أنه لا يأبى إلى ركن ركن يشد من عزمه ، ويعلق به رجاءه وأمله . . منوعا للخير إذا قدر . عليه : يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره ، ويحتججه لشخصه ، ويصبح أسير ممالك منه ، مستعبدا للحرص عليه ؛ ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه . ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه وهو منقطع عنه خاوى القلب من الشعور به . فهو هالوع في الحالتين . . هالوع من الشر . هالوع على الخير . . وهى صورة بالغة للإنسان ، حين يغلو قلبه من الإيمان .

بواجب الواحد تجاه المحروم ، في هذه الأمة للتضامنة للكفالة .. والسائل الذى يسأل والمحروم الذى لا يسأل ولا يبر عن حاجته فيحرم . أو لعله الذى نزلت به النوازل فحرم وعصف عن السؤال . والشعور بأن المحتاجين والمحرومين حقاً في الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبأصرة الإنسانية من جهة ، فوق ما فيه من تحرر شعورى من ربة الحرس والشح . وهو في الوقت ذاته ضماناً اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها . فهي فرصة ذات دلالات شتى . في عالم الضمير وعالم الواقع سواء . . . وذكرها هنا فوق أنه رسم خطأ في ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرس في السورة .

« والذين يصدقون يوم الدين » . .

وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيسى . وهي في الوقت ذاته نرسم خطأ أساسياً في ملامح النفس للمؤمنة . فالصدق يوم الدين شرط الإيمان . وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً . والميزان في يد الصدق يوم الدين غير الميزان في يد للكذب بهذا اليوم أو للترتيب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث . . للصدق يوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لميزان الأرض ، ولحساب الآخرة لحساب الدنيا . ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتبة حين يزنها ويقومها . . . والكذب يوم الدين يحسب كل شيء بحسب مايقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ماينحصر في مساحة من السكان ومساحة من الزمان محدودة . . وهو بائس مسكين معذب قلق لأن مايقع في هذا الشطر من الحياة الذى يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، قد لا يكون مطمئناً ولا مريحاً ولا عادلاً ولا مقبولاً ، مالم يضاف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول . ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رقيقة لايجد جزاءها في هذه الأرض واضحا . . ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شرط الإيمان الذى يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام .

« والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون » . .

وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق يوم الدين . درجة الحساسية للرغبة ، والرقابة

اليقظة، والشعور بالتقصير في جنب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من هو عند الله . وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . . كان دائماً الحذر دائماً الخوف لمذاب الله . وكان على يقين أن عمله لا يصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمة . وقال لأصحابه : « لن يدخل الجنة أحداً عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ^(١) »

وفي قوله هنا : « إن عذاب ربهم غير مأمون » . إيهاء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات المذاب في لحظة الغفلة فيحق المذاب . والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة . وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق . وهذا قوام الأمر في الإسلام بين الغفلة والقلق . والإسلام غير هذا وتلك . والقلب للوصول بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

« والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين لمن ابتنى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وهذه تعنى طهارة النفس والجماعة ، فالإسلام يريد مجتمعاً طاهراً نظيفاً ، وفي الوقت ذاته ناصحاً صريحاً . مجتمعاً تؤدي فيه كل الوظائف الحيوية ، وتلبي فيه كل دوافع القطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجليل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . مجتمعاً يقوم على أساس الأسرة الشرعية التينة القوائم . وعلى البيت العائلي الواضح للمالم . مجتمعاً يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا يخل من مولده . لا لأن الحياء مزروع من الوجوه والنفوس ، ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد ، واضح الأهداف ، يرمى إلى التهوض بواجبه إنساني واجتماعي ، لا مجرد إرضاء النزوة الحيوانية والشهوة الجنسية !

ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتنى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . .

(١) رواه الشيخان والنسائي .

فيقرر نظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأيمان - من الإمام حين بوجوده بسبب مشروع - والسبب للشروع الوحيد الذي يترف به الإسلام هو السبي في قتال في سبيل الله . وهي الحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام - والأصل في حكم هذا السبي هو ما ذكرته آية سورة محمد : « فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب حتى إذا أغتصمهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ولكن قد يتخلف بعض السبي بلا من ولا فداء للإبسات واقعية ؟ فهذا يظل رقيقا إذا كان للمسكر الآخر يسترق أسرى للمسلمين في أية صورة من صور الرق - ولوصاه بغير اسمه ١ - ويجوز الإسلام وطء الإمام عندئذ من صاحبه وحده ، ويجعل عتقه موكولا إلى الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام لتجفيف هذا المورد . ويقف الإسلام بمبادئه صريحا نظيفا لا يذبح هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسي القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديما وحديثا ، ولا يتدنس ويتلوى فيسمين حرات وهن إمام في الحقيقة ١

« فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . وبذلك يفلق الباب في وجه كل قذارة جنسية ، في أية صورة غيرها تبين الصورتين الواضحتين الصريحتين .. فلا يرى في الوظيفة الطبيعية قذارة في ذاتها ؟ ولكن القذارة في الالتواء بها . والإسلام نظيف صريح قويم . (١)

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وهذه من القوائم الأخلاقية التي يقيم الإسلام عليها نظام المجتمع . ورعاية الأمانات والمهود في الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . وهي أمانة الشفقة والاستقامة عليها اختيارا لا اضطرارا .. ومن رعاية المهد الأول للقطوع على فطرة الناس وهم بسد في الأصلاب أن الله ربهم الواحد ، وهم بخلقهم على هذا المهد شهود . . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا المهد تنشئ رعاية سائر الأمانات والمهود في ممالك الأرض . وقد شدد الإسلام في الأمانة والمهد وكرر وأكد ، ليقم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة . وجعل رعاية الأمانة والمهد سمة النفس للزمنة ، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف المهد سمة النفس للناطقة والكافرة . ورد هذا في مواضع شتى من القرآن والملة لا تمنع مجالاً للشك في أهمية هذا الأمر البالغة فيه عرف الإسلام .

(١)راجع سورة المؤمنون جزء ١٨ من ١١-١٢ وسورة المد جزء ٢٦ من ٥٠ - ٥٤

« والذين هم بشهادتهم قائمون » . .

وقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقاً كثيرة ، بل ناط بها حدود الله ، التي تمام بقيام الشهادة . فلم يكن بد أن يشدد الله في القيام بالشهادة ، وعدم التخلف عنها ابتداء ، وعدم كتابتها عند التقاضى ، ومن القيام بها أداؤها بالحق دون ميل ولا تحريف . وقد جعلها الله شهادة له هو ليربطها بطاعته ، فقال : « وأقيموا الشهادة لله » . . وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين وهى أمانة من الأمانات ، أفرداها بالذكر لتنظيم من شأنها وإبراز أهميتها . . وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة ، ختمها كذلك بالصلاة :

« والذين هم على صلاتهم محافظون » . .

وهى صفة غير صفة الدوام التى ذكرت في صدر هذه الصفات . تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها ، وفي فرائضها ، وفي سنتها ، وفي هيئتها ، وفي الروح التى تؤدى بها . فلا يضيعونها إهمالاً وكسلاً . ولا يضيعونها بدم إقامتها على وجهها . . وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام . وبهذا تغم سمات المؤمنين . .

وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر :

« أولئك في جنات مكرمون » . .

ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسى ولون من النعيم الروحى . فهم في جنات . وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات . فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم . جزاء على هذا الخلق الكريم . الذى يتميز به للمؤمنون .



ثم يرض السياق مشهداً من مشاهد الدعوة في مكة ، ولشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذى يكون فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلو القرآن . ثم يفرقون حوالبه جماعات . ويستنكر إسرارهم هذا وتجمهم في غير مارغبة في الاهتداء بما يسمعون :

« فإل الذين كفروا بملك مهطمين ؟ عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » . .

للطبع هو الذى يسرع الخطى ماداً عنقه كالمقود . وعزين جميع عزة كفتة وزناً ومنفى . . وفى التعبير تهكم خفى بحركتهم للرية . وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التى تتم بها . وتعجب منهم . وتساؤل عن هذا الحال منهم . وهم لا يسرعون الخطى تجاه الرسول ليسمعوا ويهتدوا ،

ولكن فقط ليستسلموا في دهشة ثم يفرقوا كي يتحلقوا حلقات يتناجون في الكيد والرد على ما يسمعون !

ما لهم ؟ « أيطمح كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ؟ » ..

وم على هذه الحال التي لا تؤدي إلى جنة نعيم ، إنما تؤدي إلى لظى مأوى المجرمين !
الملك يحسبون أنفسهم شيئا عظيما عند الله ؟ فهم يكفرون ؟ ويؤذون الرسول ، ويسمعون القرآن ويتناجون بالكيد . ثم يدخلون الجنة بعد هذا كله لأنهم في ميزان الله شيء عظيم ! ؟

« كلا ! » في ردع وفي تحقير . . « إنا خلقناهم مما يملون » !

وم يملون مم خلقوا ! من ذلك الماء المهيّن الذي يعرفون ! والتعبير القرآن المبدع بلسم هذه اللسة الخفيفة العميقة في الوقت ذاته ؟ فيمسح بها كبريائهم مسحا ، وينكس بها خيالاتهم تنكيسا . دون لفظة واحدة نائية ، أو تمييز واحد جارج . بينا هذه الإشارة العابرة تصور الموان والزهادة والرخس أو كل تصور فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع ؟ وم مخلوقون مما يملون ! وم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه ، وخرق لسته في الجزاء العادل باللفظ وبالنسيم .

واستطرادا في تهوين أمرهم ، وتصغير شأنهم ، وتكيس كبريائهم ، يقرر أن الله قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وأنهم لا يجزونه فيذهبون دون ما يستحقون من جزاء أليم :
« فلا أقسم برب للشارق وللغارب إنا لقادرون ، على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين » .

والأمر ليس في حاجة إلى قسم . ولكن التلويح بذكر للشارق وللغارب ، يوحى بمظمة الخالق . وللشارق وللغارب قد تسمى مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح . كما أنها قد تسمى للشارق وللغارب التتوالية على بقاع الأرض . وهي تتوالى في كل لحظة . ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويغني مغرب . .

وأيا كان مدلول للشارق وللغارب ، فهو يوحى إلى القلب بشخامة هذا الوجود ، وبمظمة الخالق لهذا الوجود . فهل يحتاج أمر أولئك المخارقين مما يملون إلى قسم برب للشارق وللغارب ،

(٨ - في ظلال القرآن [٢٩])

على أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق خيرا منهم، وأنهم لا يسبقونه ولا يفتونونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ١٢



وعند ما يبلغ السياق هذا للقطع ، بعد تصوير هول العذاب في ذلك اليوم المشهود ؛ وكرامة النعيم للمؤمنين ، وهوان شأن الكافرين . يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليدعهم لذلك اليوم ولتلك العذاب ، ويرسم مشهدهم فيه ، وهو مشهد مكروب ذليل :
« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأبدان سرعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » . .

وفي هذا الخطاب من تهوين شأنهم ، ومن التهديد لهم ، ما يثير الخوف والترقب . وفي مشهدهم وهيتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والخوف . كما أن في التبرير من التهم والسخرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بكانتهم . .

فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يمدونه .. وفي هذا التهمك تناسق مع حلمهم في الدنيا . لقد كانوا يسارعون إلى الأنساب في الأعياد ويتجمعون حولها . فهام أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تم صلاتهم بقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » فتلح من خلال الكلمات سياهم كاملة ، وترسم لنا من قبساتهم صورة واضحة . صورة ذليلة غانية . . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون . .

« ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون »

فكانوا يستريحون فيه ويكذبون ويستجلون !



بهذا يلتئم الطلع والختام ، وتم هذه الحلقة من حلقات الملاح الطويل لقضية البعث والجزاء ، وتنتهي هذه الجولة من جولات الحركة الطويلة بين التصور الجاهل والتصور الإسلامي للحياة .

سُورَةُ نُوحٍ مَكِّيَّةٌ وَأَسْمَا ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ : أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَنْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُخَرِّجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ * لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

« قَالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَحَابِيَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ، وَاسْتَفْشَوْا بَيَابَهُمْ ، وَأَصْرُوا ، وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُرْسِلْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَبِهَيْمَلٍ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَحْمِلَ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ؟ * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟ * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ زِيحًا ؟ * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِيَنْسَلِكُوا مِنْهَا سُبُلًا مُّجْتَابًا .

« قَالَ نُوحٌ : رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا *

وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا : لَا تَنْذِرُنَا إِلَهَتَكُمْ ، وَلَا تَنْذِرُنَا وَدًّا وَلَا سُوَاعًا
وَلَا يَدُوتَ وَيَبُوقَ وَتَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا .
« تَمَّا خَطِيبَتِهِمْ أَغْرَقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا .
« وَقَالَ نُوحٌ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ
يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَلِوَالِدَيَّ ، وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ
مُؤْمِنًا ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا » . .

هذه السورة كلها تهم قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وتصف تجربة من تجارب
الدعوة في الأرض ؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت للتكرار للبشرية ، وشوطا
من أمواط الحركة الحادثة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .
هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية المنيدة ، الضالة ، الداهية وراء القيادات المضلّة ،
المستكبرة عن الحق ، المعرضة عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان ، العروضة أمامها في الأقس
والآفاق ، المرقومة في كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون .
وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا
الكائن الإنساني ، وعنايته بأن يهتدى . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه
البشرية المنيدة الضالة الداهية وراء القيادات المضلّة للمستكبرة عن الحق والهدى .
ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضي ، والنماء الرهق ، والصبر الجليل ،
والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة الضيدة
الجبية الجامعة . وهم لاصالحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من للهتدين على الهداية ، ولا
مكافأة ولا يُجمل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي يتقاضاها للدارس
والجامعات والماهد والمعلمون ، في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة تقفات لتعلم !
هذه الصورة التي يرضها نوح - عليه السلام - على ربه ، وهو يقدم له حساب الأخير بعد
ألف سنة إلا خمسين عاما قضاه في هذا الجهد المضي ، والنماء الرهق ، مع قومه المماندين ،
الداهيين وراء قيادة ضالة مضلّة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول :

« رب . إني دعوت قومي ليلا ونهار . فلم يزدكم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتخفر لهم جعلوا أمسابهم في آذانهم واستشكوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسرت لهم إسرارا . ققلت : استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يميدكم فيها ويخرجكم لإخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » . .

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر :

« رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزدكم ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لا تدرن آلتكم ، ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يثوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . . . » . .

وهي حسيية مرمرة . ولكن الرسالة هي الرسالة !

هذه التجربة المرمرة تعرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان ، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول . . يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل ، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ؟ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا النداء والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح عليه السلام .

وتعرض على الجماعة للسلمة في مكة ، وعلى الأمة للسلمة بامامة ، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض ، وللسنح الإلهي للنبثق من هذه الدعوة ، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك ، وفي وسط كل جاهلية تالية . . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا الذي الطويل من أبي البشرية الثاني . كما ترى فيها عناية الله بالهالة للؤمننة ، وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين .

وتعرض على للمشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذابين ؟ وينذركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولا رحيا بهم ، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل ؟ وذلك لما قدره الله من الرحمة

بهم وإمها لهم إلى حين . فلم تصبهم من نبيهم دعوة كدعوة نوح ، بعد ما استنفد كل الوسائل ،
وألهم الدعاء على القوم بما ألهم :
« ولا تزد الظالمين إلا فتلافا » . .
« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك
ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » . .

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة
القيدة وثبات أصولها ، وتواصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وإرادة الله وقدره ،
وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه : « قال : يا قوم
إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى
أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » . . وفي حكاية قوله لهم :
« ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا؟
وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها
ويخرجكم لإخراجها ، والله جمل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبيلا فجاجا » . .

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس السالين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم ، وحقيقة نسبهم
العريق ! حقيقة موكلهم للتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة
والقيام عليها . وهي منهج الله القويم القديم .

وإن الإنسان ليأخذ الدهش والعجب ، كما تفره الروعة والحشوع ، وهو يستعرض — بهذه
الناسبة — ذلك الجهد للوصول من الرسل — عليهم صلوات الله وسلامه — لبداية البشرية الضالة
العائنة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحدا بعد واحد لهذه البشرية
المرضة المعيدة .

وقد يمن للإنسان أن يسأل : ترى تساوى الحصيصة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات
النبيلة . من لدن نوح — عليه السلام — إلى محمد — عليه الصلاة والسلام — ثم ما كان بينهما وما تلاحما
من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟

ترى هل تساوى هذا الجهد الذى وصفه نوح فى هذه السورة وفى غيرها من سور القرآن ، وقد استغرق عمرا طويلا بالغ الطول ، لم يكثف قومه فيه بالإعراض ، بل أتبعوه بالسخرية والافتحام . وهو يتقاهما بالصبر والحسن ، والأدب الجليل والبيان النير .

ثم تلك الجهود للوصول منذ ذلك التاريخ ، وتلك التضحيات النبيلة التى لم تقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم ، أو يحرقون بالنار ، أو ينشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأهل والديار . . حتى نجيء الرسالة الأخيرة ، فيجهد فيها محمد - صلى الله عليه وسلم - ذلك الجهد الشهود المعروف ، هو والمؤمنون معه . ثم تتوالى الجهود للفضيلة والتضحيات للذهلة من القائمين على دعوته فى كل أرض وفى كل جيل ؟ ؟

ترى تساوى الحصلة كل هذه الجهود ، وكل هذه التضحيات ، وكل هذا الجهاد المرير الشاق ؟ ثم . . ترى هذه البشرية كلها تساوى تلك العناية الكريمة من الله ، التجلية فى استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل ترى بمد السناد والإعراض والإصرار والاستكبار ، من هذا الخلق الهزيل الضعيف المسمى بالإنسان ؟

والجواب بمد التدبر : أن نعم . . وبلا جدال . . !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله فى الأرض يساوى كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة للطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين فى كل جيل ! ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته ؟ بل أكبر من الأرض وما عليها ؟ بل أكبر من هذا الكون المائل الذى لا تبلغ الأرض أن تكون فيه عبادة ضائعة لا تكاد تحصى أو ترى !

وقد شادت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنسانى بخصائص مينة ، تجعل استقرار هذه الحقيقة فى صميمه وفى نظام حياته موكولا إلى الجهد الإنسانى ذاته ، بون الله وتوفيقه . ولنا نعلم لم يخلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهه وإرادته فى تحقيق حقيقة الإيمان فى ذاته وفى نظام حياته ؛ ولم يجعله على الإيمان والطاعة لا يعرف غيرها كاللائكة ، أو يمضغ لشرى واللصبة لا يعرف غيرهما كإبليس .

لنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتلقى بنظام الوجود كله فى خلق

هذا الكائن بهذه الخصائص !

وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في الأرض ، لأنها تساوى كل ما يبدلون فيها من جهود مضنية مريرة ، وتضحيات شاقة نبيلة .

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوى هذا القلب على قبس من نور الله ؛ وأن يكون مستودعا لسر من أسراره ؛ وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود . . وهذه حقيقة لا مجرد تصور وتغريب . . وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه ، ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية ، وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل والمحدود بالنقص بالكل للطلق . . . وهي حيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوما أو بض يوم في عمر البشرية الطويل . لأن تحققها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية ، يجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

ولقد أثبت الواقع التاريخي للتكرار أن النفس البشرية لم تبلغ إلى أكاف الكمال المقدر لها . بأية وسيلة كما بلغت باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الأفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض ، وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الإنسان سامقة . بل كانت حلما أكبر من الخيال ، ولكنه ممثل في واقع حياة الناس .

وما يمكن أن ترتقى البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام ، إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم . . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء جاءت مجملة كما هي في الرسائل الأولى ، أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة .

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله؟ هو هذا الذي أثبتته الواقع التاريخي

من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها مالم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر؛ لاعلم . ولا فلسفة . ولا فن . ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة اللؤمين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله ؛ بل انحدرت قيمها وموازينها وإنسانيتها ، كما غرقت في الشقاء النفس والحيرة الفكرية والأمراض النفسية ، على الرغم من تقدمها الحضارى في سائر الميادين ، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع القلبي ، وأسباب السعادة المادية بجملة . ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبدا . ولم يرتفع تصورهما للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية ، ولم تثق صلتها بالوجود قط كما تثقت في ظل هذه العقيدة ، ولم تشعر بكرامة « النفس الإنسانية » قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواقعية للتصور الإسلامى لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنسانى تنتهى حتما إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق - بدون تردد - كل ما يبذله اللؤمون من جهود مضنية ، ومن تضحيات نبيلة ، لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض . وإقامة قلوب تنطوى على قبس من نور الله ، وتصل بروح الله . وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم ، كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع ، الذى شهدته البشرية واقعا في فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة للضلالة المعنة في الضلال . وستمذّب الدعوة إلى الحق . أنواعا مختلفة من العذاب ، وتشكل بهم ألوانا شتى من النكال . كما ألقت إبراهيم في النار ، ونشرت غيره بالمنشار ، وسحرت واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة إلى الله لا بدأن تحصى في طريقها كما أراد الله . لأن الحسيلة تستحق الجهود للضنية والتضحيات النبيلة . ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوى على قبس من نور الله ، ويصل بروح الله !

إن هذا اللوكب للتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه أذكى السلام - لينهى عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة ، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحسيلة . وأقل نسبة لهذه الحسيلة هى أن تستقر

حقيقة الإيمان في قلوب البعثة أنفسهم حتى يلاقوا اللوث وما هو أشد من اللوث في سبيلها ولا يشكعون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من جواذها ، ويحررون من ريقها . وهذا وحده كسب كبير ، أكبر من الجهد للرب . كسب للبعثة . وكسب للإنسانية التي تحترف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يسجد الله الملائكة لهذا الكائن ، الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتبأ — بجهد هو ومحاولة وتضحيته — لاستقبال قبس من نور الله . كما يتبأ لأن ينهض — وهو الضيف العاجز — بتحقيق قدر الله في الأرض ، وتحقيق منهجه في الحياة . ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة ، ويحتمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة ، لينجو بقيدته وينهض بواجبه في محاولة لإقرارها في حياة الآخرين ، وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع . وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق ، يهون الجهد ، وتهون المشقة ، وتهون التضحية ، ويتوارى هذا كله ، لتبرز تلك الحصلة الضخمة التي ترجع الأرض والسما في ميزان الله . . .

والآن نستعرض قصة نوح في هذه السورة ، وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة !



«إنا أرسلنا نوحا إلى قومه : أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال : يا قوم: إنى لكم نذير مبين : أن اعبدوا الله وأطيعوا وأطيعوا . ينذر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » . .

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده : «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه » . . فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف ، كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله ، وصدرت منه الحياة . وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده ، فلما انصرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسلا ، يردونهم إليه . ونوح — عليه السلام — كان أول هؤلاء الرسل — بعد آدم عليه السلام . وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض ، وممارسته لهذه الحياة ؛ ولعله كان معلما لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد وبد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد ، واتخذوا لهم أصناما آلهة : اتخذوها في أول الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أو مشهودة . ثم نسوا الرمز . وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخنثى التي سيرد ذكرها في السورة . فأرسل الله إليهم نوحا

يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب القدسة السابقة تجعل إندريس — عليه السلام — سابقا لنوح . ولكن ماورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة السلم ، لشبهه التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب .

والذي يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن ، أن نوحا كان في فجر البشرية ؛ وأن طول عمره الذي قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاما في دعوته لقومه ، ولابد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة . . أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحى بأن البشر كانوا مايزالون قلة لم تكاثروا بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية . وذلك قياسا على ما نراه من سنة الله في الأحياء . من طول العمر إذا قل المدد ، كأن ذلك للتوبيخ والتعادل . . والله أعلم بذلك . . إنما هي نظرة في سنة الله وقياسه

تبدأ السورة بقرير مصدر الرسالة وتوكيده ، ثم تذكر لحوى رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار :

« أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم » . . .

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها ، من إعراض واستكبار وعناد وضلال — كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه — تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته ، وأول ما يستجيب به الدعوة لقومه . الإنذار بعذاب أليم ، في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما جميعا .

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ في اختصار ، البارز فيه هو الإنذار ، مع الإطعام في المفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ؛ وتأجيل الحساب إلى الأجل للضروب في الآخرة للحساب ؛ وذلك مع البيان الجميل لأصول الدعوة التي يدعوهم إليها :

« قال : يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون . ينفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » . .

« يا قوم إنى لكم نذير مبين » . . مفسح عن نذارته ، مبين عن حجه ، لا يشتم ولا يحجم ، ولا يتلثم في دعوته ، ولا يدع لبسا ولا غموضا في حقيقة ما يدعو إليه ، وفي حقيقة ما ينتظر للكافرين بدعوته .

وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم : « أن اعبدوا الله ، واتقوه وأطيعون » . . عبادة الله

وحده بلا شريك . وتقوى لله تهيمن على الشعور والسلوك . وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفي هذه الخطوط المريضة تلخص الديانة السماوية على الإطلاق . ثم تفرق بعد ذلك في التفصيل والتفريع . وفي مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله ، وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع .

وعبادته الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس .. ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور ، فيقوم منهج للحياة خاص . منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية ، وإلى القيم التي يقرها الله للأحياء والأشياء .

وتقوى الله . . هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك النهج ، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك ، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه . كما أنها هي مبث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله ، بلا رياء ولا تظاهر ولا مبالاة .

وطاعة الرسول . . هي الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وتلقى الهدى من مصدره للتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية ، وبقاء الاتصال بالسما عن طريق محطة الاستقبال المباشرة . السليمة المضمونة !

. فهذه الخطوط المريضة التي دعا نوح إليها قومه في فجر البشرية هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده ، وقد وعدهم عليها ما وعد الله به التائبين التائبين :
« يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » . .

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هي المنفرة والتخليص من الذنوب التي سلفت ؛ وتأخير الحساب إلى أجل الضروب له في علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستعصام (وسيرد في الحساب الذي قدمه نوح لربه أنه . وعدم أشياء أخرى في أثناء الحياة) .

ثم بين لهم أن ذلك أجل للضروب حتمي يعني في مواعده ، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا . . وذلك لتقرر هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى :

« إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » ..

كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقييما لكل أجل يضربه الله ؛ ليعرف قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام . بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم - لو أطاعوا وأتوا - إلى يوم الحساب .

وراح نوح - عليه السلام - يواصل جهوده الثبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه ، بلا مصلحة له ، ولا منفعة ؛ ويحتمل في سبيل هذه الثبيلة ما يحتمل من إغراض واستكبار واستهزاء . . ألف سنة إلا خمسين عاما .. وعدد للمستجيبين له لا يكاد يزد ؛ ودرجة الإغراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ؛ ثم عاد في نهاية اللطاف يقدم حساب له لربه الذي كلفه هذا الواجب الثبيل وذلك الجهد الثقيل ؛ عاد يصف ماضع وما لاقى .. وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب للتعب في نهاية اللطاف ، إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل ولؤلؤمون حقيقة الإيمان . . إلى الله . .

« قال : رب إنى دعوت قومي ليلا ونهارا ، فلم يردم دعائى إلا فرارا ؛ وإنى نادعتهم لتشفر لهم فجاءوا أصابهم فى آذانهم ، واستمشوا نياهم ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . قلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ونعدكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يبسكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » ..

هذا مانع نوح وهذا ما قال ؛ عاد يرضه على ربه وهو يقدم حساب الأخير في نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذى لا ينقطع : « إنى دعوت قومي ليلا ونهارا » ..

ولا يمل ولا يفت ولا يئس أمام الإغراض والإصرار : « فلم يردم دعائى إلا فرارا » .. فرارا من الداعي إلى الله . مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء ، ومصدر الهدى والنور . وهو لا يطلب أجرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ؛ القرار بمن يدعوهم إلى الله ليخفف لهم ويخففهم من جريرة الإثم والخطية والضلال ؛

فإذا لم يستطيعوا الفرار ، لأن الداعي واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم ، وأصرروا على الضلال ، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى : « وإني كلما دعوتهم لتخبرهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » . . . وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليلتهم إليها ؛ وإصرارهم هم على الضلال : تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية النسيئة . تبرز في وضع الأصابع في الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرمز بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل ، وهو يقول : إنهم « جعلوا أصابعهم في آذانهم » وآذانهم لاتسع أصابعهم كاملة ، إنما هم يسدون بها أطراف الأصابع . ولكنهم يسدون بها عنف بالغ ، كأنهم يحاولون أن يحصلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ، وهي صورة غليظة للإصرار والناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية المكابر !

ومع الدأب على الدعوة ، وتحين كل فرصة ، والإصرار على للمواجهة . . اتبع نوح - عليه السلام - كل الأساليب فجهز بالدعوة تارة ، ثم زواج بين الإعلان والإسراء تارة : « ثم إنى دعوتهم جهاراً ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً » . .

وفي أثناء ذلك كله أطمعهم في خير الدنيا والآخرة . أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو - سبحانه - غفار للذنوب : « فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً » . . وأطمعهم في الرزق الوفير ليسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي للطر الغزير ، الذي تنبت به الزروع ، وتسيل به الأنهار ، كما وعدم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها - وهي البنين - والأموال التي يطلبونها ويمزونها : « يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ، ويعمل لكم جنات ويعمل لمكم أنهار » . .

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء . . جاء في موضع : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ^(١) » . . وجاء في موضع : « ولو أن أهل الكتاب

آمنوا واتقوا الكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . . (١) » . . . وجاء في موضع : « ألا تبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله . . . (٢) »

وهذه القاعدة التي يقرها القرآن في مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون . والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لاعتن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله ، واتجهت اتجاهها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار للنبي عن خيبة الله . . مامن أمة انتهت الله وعبدته وأقامت شريعته ، لحقت العدل والأمن للناس جميعا ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالمران وبالصلاح سواء .

ولقد نشهد في بعض القترات أنما لائق الله ولا تقيم شريعته ؛ وهي - مع هذا - موسع عليها في الرزق ، يمكن لها في الأرض . . ولكن هذا إنما هو الابتلاء : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ثم هو بسد ذلك رخاء مؤوف ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي ، أو الظلم والبنى وإهدار كرامة الإنسان . . وأماننا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما في الرزق ، يمكن لهما في الأرض . إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية . وفي الأولى يهبط للمستوى الأخلاقي إلى الدرك الأسفل من الحيوانية ، ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار ١١ وفي الثانية تهدر قيمة « الإنسان » إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويميش الناس في وجل دائم من اللذائع للتوالية ؛ ويبيت كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورامه بين كنفه لا يطيح في تهمة تحاك في الظلام ؛ وليست هذه أو تلك حياة إنسانية تؤسم بالرخاء ١.

ونخفى مع نوح في جهاده النبيل الطويل . فتجنده يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم ، وهو يجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله ، وينكر عليهم ذلك الاستهتار :

(١) سورة المائدة . آية : ٦٥ - ٦٦

(٢) سورة هود . آية ٢ - ٣

« ما لكم لا ترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا ؟ » ..

والأطوار التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لابد أن تكون أمرا يدركونه ، وأن يكون أحد مدلولاتها مما يملك أولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه . ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر ، يقودهم إلى الاستجابة . والذي عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى الملقحة إلى اللبنة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل .. وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطى فكرة عن هذه الأطوار . وهذا أحد مدلولات هذه الآية . ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة . من أن الجنين في أول أمره يشبه حيوان الحلية الواحدة ؟ ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان للتعدد الخلوي . ثم يأخذ شكل حيوان مائي . ثم شكل حيوان ثديي . ثم شكل المخلوق الإنساني . . وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثا جدا . وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين : « ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ^(١) » . كما أن هذا النص وذلك قد تكون لها مدلولات أخرى لم تكشف للعالم بعد . ولا شهيدا .

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم ، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارا ، ثم هم بعد ذلك لا يستمعرون في أنفسهم توقيرا للجليل الذي خلقهم . . وهذا أعجب وأنكر مما يتبع من مخلوق !

كذلك وجههم إلى كتاب الكون للفتوح : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ » .. والسماوات السبع لا يمكن حصرها في مدلول مما يتناول به الفروض العلمية في التعريف بالكون . فهي كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم — كما علمه الله — أنها سبع طباق . فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس ، ويرون ما يطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ماهو ؟ فلم يكن ذلك مطلوبا منهم . ولم يحزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن .. وهذا التوجيه يكنى لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق المائلة من قدرة مبدعة .. وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه . ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر في نشاطهم من

الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث: « والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يبداكم فيها ويخرجكم إخراجا » . .

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر في القرآن في صور شتى . كقوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكبا » . وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة : ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا علىكم من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . . وفي سورة « للمؤمنون » يذكر أطوار النشأة الجنينية قريبا مما ذكرت في سورة الحج ويحییء بعدها : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب » . . وهكذا . .

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب . فهي توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتفدى وينمو ، فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج الأرض ، وكلاهما يرضع من هذه الأم !

وكذلك ينشئ الإيمان في المؤمن تصورا حقيقيا حيا لملاقته بالأرض والأحياء . تصورا فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . لأنه قائم على الحقيقة الحية في الضمير . وهذه ميزة للفرقة القرآنية الفريدة .

والناس الذين ينبتون من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يبداهم الله إليها كما أنبتهم منها . فيختلط رطابهم بربتها ، وتندمج ذراتهم في ذراتها ، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها ! ثم يخرجهم الذي أخرجهم أول مرة ؛ وينبتهم كما أنبتهم أول مرة . . مسألة سهلة يسيرة لاستدعى التوقف عندها لحظة ، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يرضها القرآن منها !

ونوح - عليه السلام - وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهي تنبتهم من هذه الأرض نباتا ، وهي تديم فيها مرة أخرى . ثم توقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها ، وهي كاتبة بهذا اليسر وبهذه البساطة . بساطة البديهة التي لا تقبل جدلا !

وأخيرا وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيروهم ومماشهم واستقالتهم وطرائق حياتهم : « والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » .

وهذه الحقيقة القرينة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجهمم مواجهة كاملة ، ولا يملكون القرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة مهيبة - حتى جبالها قد جعل لهم عبرها ودروبها وفجاجا ، كما جعل في سهولها من باب أولى . وفي سبلها ودروبها عيوش ويركبون ويتنقلون ؛ ويبتغون من فضل الله ، ويتعاشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق .

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة للشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية عويصة . يدركونها بالنواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض ، وتيسر لهم الحياة فيها . وكلما زاد الإنسان علما أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وأكافأ بميدة (١)

هكذا سلك نوح - أو حاول أن يسلك - إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشق الأساليب ، ومتنوع الوسائل في دأب طويل . وفي صبر جميل ، وفي جهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم ، يقدم حسابا ، ويبث شكواه ، في هذا البيان للفصل ، وفي هذه اللمحة للوثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة ، وهي حلقة واحدة في سلسلة الرسالة النبوية لهذه البشرية الضالة الضالة ! فلماذا كان بعد كل هذا البيان ؟

« قال نوح : رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبيرا . وقالوا لا تدرن ألهتكم ، ولا تدرن ودا ولا سواها ولا ينوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » ..

(١) تراجع سورة الملك عند قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . ص ٥ ..

رب إنهم عصوني ! بيد كل هذا الجهاد ، وبيد كل هذا العناء . وبيد كل هذا التوجيه . وبيد كل هذا التنوير . وبيد الإندثار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء . . بيد هذا كله كان المصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة للضللة ، التي تخضع الأتباع بما تملك من المال والأولاد ، ومظاهر الجاه والسلطان . بمن « لم يزد ماله وولده إلا خسارا » قد أغرام المال والولد بالضلال والإضلال ، فلم يكن وراءها إلا الشقاء والحسران .

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال . . « ومكروا مكرا كبيرا » . . مكرا متناهيا في الكبر . مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس . ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تحيط فيها القوم . وكان من مكرم تحريض الناس على الاستمسك بالأصنام التي يسمونها آلهة : « وقالوا : لا تدرن آلهتكم » . . بهذه الإضافة : « آلهتكم » لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآتمة في قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا غصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة للضالين الحمية والاعتزاز . . « ولا تدرن ودا ، ولا سوانا ، ولا يفوث ، ويموق ، ونسرا » . . وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تهب في الجاهليات بسهمهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

وهكذا تلك القيادات الضالة للضللة تقيم أصناما ، تختلف أسماءها وأشكالها ، وفق النمرة السائدة في كل جاهلية ؛ وتجمع حوالها الأتباع ، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كي توجههم من هذا الخطأ إلى حيث نشاء ، وتقيم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والاقبادة : « وقد أضلوا كثيرا » ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار . . سواء ! ! للصد عن دعوة الله ، وتوجيه القلوب بعيدا عن الدعاة ، بالمكر الكبير ، والكيد والإصرار !

هنا انبث من قلب النبي الكريم نوح — عليه السلام — ذلك الداء على الظالمين الضالين للضالين ، لما كبر الكافرين :
« ولا تزد الظالمين إلا ضللا » . .

ذلك الداء المنبت من قلب جاهد طويلا ، وعانى كثيرا ، وانتهى — بيد كل وسيلة — إلى اقتناع بأن لاخير في القلوب الظالمة الباغية الماتية ؛ وعلم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة .

وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح - عليه السلام - يعرض ماضيا إليه الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة جميعا ! فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله ، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه :

« بما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » .

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومصيباتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . والتعقيب بالقاء مقصود هنا ، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ؛ والفواصل الزمنية القصير كأنه غير موجود ، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئا . فالترتيب مع التعقيب كأن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة . وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة . . « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » . .

لابنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة للدعاة !

وفي آيتين اثنتين قصيرتين ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة ، ويطوى ذكرهم من الحياة ! وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والقناء . . ولا فصل هنا قصة غرقهم ، ولا قصة الطوفان الذي أغرقهم . لأن الظل المراد إيقاظه في هذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع ، حتى لا يمر للسافة بين الإغراق والإحراق في حرف القاء على طريقة القرآن في إيقاعاته التصويرية والتصورية للبدعة . فنقف نحن في ظلال السياق لانتداهها إلى تفصيل قصة الإغراق . . ولا الإحراق . . !

ثم يكمل دعاء نوح الأخير ؛ وإبتهاله إلى ربه في نهاية اللطاف :

« وقال نوح : رب لا تتركني على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تدرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لي ولوالدي ، ولن دخل بيتي مؤمنا ، وللمؤمنين وللمؤمنات ولا تزدد الظالمين إلا تبارا » . .

قد ألم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر المارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه . وأحيانا لا يصلح أى علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين ، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهى الحقيقة التي عبر عنها نوح ، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازا كاملا لا يبق منهم ديارا - أى صاحب ديار - فقال : « إنك إن تدرهم يضلوا عبادك » . . ولقطة « عبادك »

توحى بأنهم للؤمنون . فهي تجيء في السياق القرآني في مثل هذا الوضع بهذا المعنى . وذلك
بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة ، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله
في عافية !

ثم إنهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيها الكفار ، وتوحى بالكفر من الناشئة الصغار ،
بما يطعمهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون ، فلا توجد فرصة لتري الناشئة النور ، من خلال
ما تنعمهم به البيئة الفاضلة التي صنعوها . وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح
عليه السلام ، وحكاها عنه القرآن : « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » . فهم يطلقون في جو
الجماعة أباطيل وأضاليل ، وينشئون عادات وأوضاعا ونظما وتقاليد ، ينشأ منها الولائد فاجرا
كفارا ، كما قال نوح .

من أجل هذا دعا نوح - عليه السلام - دعوته للآخرة الساقية . ومن أجل هذا استجاب
الله دعوته ، ففسل وجه الأرض من ذلك الشر ؛ وجرف الموائير التي لا تجرفها إلا قوة
الجبار القدير .

وإلى جانب الدعوة الساقية للآخرة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول : « ولا ترد الظالمين
إلا تبارا » - أي هلاكا ودمارا - إلى جانب هذا كان الابتهال الخاضع للودود :

« رب اغفر لي ولوالدي ، ولمن دخل بيتي مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ... » .

ودعاء نوح النبي لربه أن يفر له .. هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله البلي العظيم ..
أدب العبد في حضرة الرب . العبد الذي لا ينسى أنه بشر ، وأنه خطيء ، وأنه يقصر ، مهما
يطع ويبعد ، وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتعمده الله بفضله ، كما قال أخوه النبي الكريم
محمد صلى الله عليه وسلم - وهذا هو الاستقفار الذي دعا قومه البصاة الحاطئين إليه ، فاستكبروا
عليه .. وهو هو النبي يستغفر بمد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه
سجلا الحساب !

ودعاؤه لوالديه .. هو بر النبوة بالوالدين للمؤمنين - كما تقدم من هذا الدعاء - ولولم
يكونا مؤمنين لروجع فيما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع الترفيقين (كما
جاء في سورة هود) .

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنا .. هو بر المؤمن بالمؤمن ؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه

لنفسه، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً، لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة .

ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين وللمؤمنات . . هو بر اللؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان . وشموره بأصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن . وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق، على تباعد الزمان والمكان. السر الذي أودعه الله هذه العقيدة، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة . .
وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين، كان الكره للظالمين .
« ولا تزد الظالمين إلا تبارا » .



وتختم السورة، وقد عرضت تلك الصورة الوضیة لجهاد النبي الكريم نوح عليه السلام. وتلك الصورة للطموسة لإصرار المعاندين الظالمين . . وقد تركت هذه وتلك في القلب حبا لهذا الروح الكريم وإعجابا بهذا الجهاد النبيل . وزادا للسير في هذا الطريق الصاعد . أيا كانت للشاق وللتعاب . وأيا كانت التضحيات والآلام . فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصى الكمال للتقدم لها في هذه الأرض . حين ينتهي بها إلى الله، العلى الأعلى، الجليل العظيم . .

سُورَةُ الْجَنِّ مَكِّيَّةٌ

وآياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ : أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ سَمِعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ ، قَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا .
يَهْدِي إِلَى الْهُدَى فَأَمَّا بِي ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ
صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا
السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِلْثَ حَرِّمَا شَدِيدًا وَشَهَبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ،
فَمِنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا عَرَاقِيقَ قِدْدًا *
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُنْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ ، وَلَنْ نُنْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا
الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَغْضًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ
وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا
بِلَهْمٍ حَاطِلًا .

« وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ
عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَمَدًا * وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا *
وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا .

« قُلْ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا .

« قُلْ : إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا .

« قُلْ : إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْتَكْمِلُونَ مِنْ أَضْمَفٍ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا .

« قُلْ : إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَحْضِلُهُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ، فَإِنَّهُ يَمْلِكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَسَدًا * لَيَسْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ ، وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ، وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » ..

هذه السورة تبده الحس - قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها - بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها . إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع ، قوة التنغيم ، ظاهرة الرنين ، مع صبغة من الحزن في إيقاعها ، ومسحة من الأسى في تنغيمها ، وطائفة من الشجى في رنينها . يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهداتها ، ثم روح الإيهام فيها . وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن ، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - هذا الخطاب الذي يثير العطف على شخص الرسول في قلب السامع لهذه السورة ، عطفًا مصحوبًا بالحب وهو يؤمر أن يطن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ ، والرقابة الإلهية للضرورة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ :

« قُلْ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا .. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ، إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْتَكْمِلُونَ مِنْ أَضْمَفٍ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا .. قُلْ : إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَحْضِلُهُ رَبِّي أَمَدًا ، عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ

من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رسدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عددا . .

وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسى للحقائق التى وردت فى حكاية قول الجن ، وبينهم الطويل اللديد . وهى حقائق ذات قتل ووزن فى الحس والتصور ؛ والاستجابة لها تنفى الحس بحالة من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن وربة الشجى للتمشية فى إيقاع السورة الموسيقى !

وقراءة هذه السورة بشيء من التريل الهادىء توقع فى الحس هذا الذى وصفناه من المسحة الغالبة عليها . .

إذا تجاوزنا هذه الظاهرة التى تبده الحس ؛ إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فلنأنا نجدها حافلة بشقى الدلالات والإيهامات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التى كان المشركون يمجّدونها ويمجّدون فيها أشد الجدل ، ويرجمون فى أمرها رجما لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحيانا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها فتجىء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التى يمجّدونها ويمجّدون فيها ؛ وبكذب دعواهم فى استمداد محمد من الجن شيئا . والجن لم يملوا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد - صلى الله عليه وسلم - فهاهم وراعهم ومسم منه ما يدهش ويذهل ، وملا نفوسهم وقاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون فى روعة للأخذ ، ووهلة للشدوم ، عن هذا الحدث العظيم ، الذى غفل السماء والأرض والإنس والجن ولللائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله . . . وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتا .

ثم إنها تصبح لأوهام كثيرة عن عالم الجن فى نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفى نفوس الناس جميعا من قبل ومن بعد ؛ ووضع حقيقة هذا الخلق اللبيب فى موضعها بلا غرول ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يتقدون أن للجن سلفانا فى الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أسمى بواد أو قعر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم

لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه . ثم بات آمنا !
كذلك كانوا يتقدمون أن الجن تعلم القيب وتخبر به السكان فيقتبأون بما يتنبأون . وفيهم من
عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسا ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تد له اللاتكة !
والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشيا في كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام
والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا ١١١

وبينا كانت الأوهام والأساطير تنمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في
القديم ، وما تزال . . نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلا ، يصفون أي
حديث عن هذا الخلق للقيب بأنه حديث خرافة .

وبين الإغراق في الوهم ، والإغراق في الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح
التصورات العامة عنهم ، ويعرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم اللوهم :

فالجن لهم حقيقة موجودة فلا وهم كما يصفون أنفسهم هنا : « وأنامنا الصالحون ومنا دون
ذلك كنا طرائق قدا » . . ومنهم الضالون للضالون ومنهم السنج الأبرياء الذين ينخدعون :
« وأنه كان يقول سفيها على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذبا » . .
وهم قابلون للهداية من الضلال ، مستمدون لإدراك القرآن سماعا وفهما وتأثرا : « قل : أوحى
إلى أنه استمع نقر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك
بربنا أحدا » . . وأنهم قابلون بحلقهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر
فيهم : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون
ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون ، فكانوا لجهنم حطبيا » . .
وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون
برجال من الجن فزادهم رهقا » . . وأنهم لا يملكون القيب ، ولم تعد لهم صلة بالسما : « وأنا
لسنا السما فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشيئا ، وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع
الآن يجدها له شهابا رسدا ، وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » . .
وأنهم لا صهر بينهم وبين الله - سبحانه وتعالى - ولا نسب : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ
صاحبة ولا ولدا » . . وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة : « وأنا ظننا أن لن نجزي الله
في الأرض ولن نجزيه هربا » . .

وهذا الذي ذكر في هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء في القرآن من صفات أخرى كتنخير طائفة من الشياطين لسليمان - وهم من الجن - وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة ، فدل هذا على أنهم لا يعلمون القيب : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون القيب ما لبثوا في العذاب للبين ^(١) » . . ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله - وهومن الجن - غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ^(٢) » . . وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئي للبشر ، في حين أن كيان الإنس مرئي للجن .

هذا بالإضافة إلى ما قرره في سورة الرحمن عن اللادة التي منها كيان الجن واللادة التي منها كيان الإنسان في قوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار » . . يعطى صورة عن ذلك الخلق للتيب ، تثبت وجوده ، وتحدد الكثير من خصائصه ؛ وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير ، العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق ، وتدع تصور المسلم عنه واضحا دقيقا متحررا من الوهم والخرافة ، ومن التمسك في الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون . أما الذين يشكرون وجود هذا الخلق إطلاقا ، فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل مافي هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحدا من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن في هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيرا مما يكشف وجوده يوما بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام !

ألأنهم عرفوا كل القوى للكونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحدا لا يدعى هذه الدعوى . فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ؛ وهي كانت مجهولة بالأمس .

(١) سورة نبا . آية ١٤

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧

والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يملنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدأون بمد أنهم رأوا كل القوى التي استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ! ولا هذه . فأنهم يتحدثون عن الكهرباء بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحدا منهم لم ير الكهرباء قط . وليس في معاملهم من الأجهزة ما يغرزون به كهربيا من هذه الكهرباء التي يتحدثون عنها !

فقيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضالة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟ ! لأن هذا الخلق المسمى الجن تلمقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم ، لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس ، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا النيب ينبغي تلقى نبثه من المصدر الوحيد للوثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فلما يقوله هو كلمة الفصل في مثل هذا الموضوع .



والسورة التي بين أيدينا - بالإضافة إلى ماسبق - تساهم مساهمة كبيرة في إنشاء التصور الإسلامي عن حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلقاته ، والصلة بين هذه الخلائق للنوعية .

وفي مقالة الجن ما يشهد بوحداية الله ، ونفى الصاحبة والولد ، وإثبات الجزاء في الآخرة ؟ وأن أحدا من خلق الله لا يسجزه في الأرض ولا يغفل من يديه ويضوته ، فلا يلاقى جزاءه العادل . وتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - من الخطاب : « قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . قل : إني لن يغيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » . وذلك بمد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ، وأن العبودية هي أمضى درجة يرتفع إليها البشر : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » . ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - من خطاب : « قل : إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » .

والنيب موكول لله وحده ؛ لا تعرفه الجن : « وأنا لاندري أشتر أريد بمن في الأرض أم

أراد بهم ربهم رشدًا . . ولا تعرفه الرسل إلا ما يظلمهم الله عليه منه لحكمة يعلها : « قل : إن أدري أقرب ماتوعدون أم يجعل له ربي أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . . . » .

أما العباد والبيد في هذا الكون ، فقد علمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ ، ولو اختلف تكوينها ، كالشركات التي بين الجن والإنس ، مما حكته السورة وحكاها القرآن في مواضع أخرى . فالإنسان ليس بمزل — حتى في هذه الأرض — عن الخلائق الأخرى . وبينه وبينها اتصال وتماهل في صورة من الصور . وهذه العزلة التي يحسها الإنسان بنفسه — به العزلة الفردية أو القبلية أو القومية — لا وجود لها في طبيعة الكون ولا في واقعه . وأخرى بهذا التصور أن يفسح في شمول الإنسان بالكون وما يصره من أرواح وقوى وأسرار . قد يجهلها الإنسان ، ولكنها موجودة بالقلم من حوله ، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما ين له أحيانا أن يشعر !

ثم إن هناك ارتباطا بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون وتناجها ، وقد ر الله في العباد : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا . . . » . وهذه الحقيقة تؤلف جانبا من التصور الإسلامي للارتباطات بين الإنسان والكون وقد ر الله .

وهكذا تمتد إحصاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بييدة ، وهي سورة لا تتجاوز الثماني والعشرين آية ، نزلت في حادثة معينة ومناسبة خاصة .



فأما هذا الحادث الذي أشارت إليه السورة . حادث استماع قمر من الجن للقرآن . فيختلف بشأنه الروايات .

قال الإمام الحافظ أبو بكر البقي في كتابه : « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو الحسن علي ابن أحمد ابن عبدان ، أخبرنا أحمد ابن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضي ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « ما قرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، أرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، قالوا : مالك ! فقالوا :

حبل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء. حدث، فأضربوا مشارق الأرض ومغاريها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها يبتشون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك نفر الدين توجهوا نحو تهمامة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بنحلة آمدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجوا إلى قومهم قالوا: «يا قومنا.. إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا». .. وأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - : «قل: أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن». .. ولما أوحى إليه قول الجن (ورواه البخاري عن مسدد بنحو هذا، وأخرجه مسلم عن عتيان بن فروخ عن أبي عوانة بهذا النص).

فهذه رواية. وهناك رواية أخرى. قال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن اللثمي حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود وهو ابن أبي هند، عن عامر، قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الجن؟ قال فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود - رضي الله عنه - فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة، فقد كنا فالتفتنا في الأودية والشعاب، قيل: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشراً ليلة بات بها قوم. فلما أصبحنا إذا هو، جاء من قبل حراء. قال: قلنا: يا رسول الله، قد ناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشراً ليلة بات بها قوم. فقال: «أنا نأى داعي الجن، فنهبت معهم قرات عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوثر ما يكون لحماً، وكل برة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم» ..

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق. فنضرب عن هذه وأمثالها. ومن الروايتين الواردتين في الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول: إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يعرف بحضور نفر من الجن، وأن ابن مسعود يقول: إنهم استدعوه. ويوفق البيهقي بين الروايتين بأنهما حادثان لاحداث واحد.

وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق قال :

« ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأذى ما لم تكن تتال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، وللنفة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

« قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد ابن زياد ، عن محمد ابن كعب القرظي قال : لما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيفهم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم ، وهم إخوة ثلاثة : ياليل ابن عمر ابن عمير ، ومسعود ابن عمرو ابن عمير ، وحبيب ابن عمرو ابن عمير وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح . فجلس إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاهم إلى الله ، وكلهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو يخرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلك أبدا . لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبئني لى أن أكلك . فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عندهم وقد بئس من خير ثقيف . وقد قال لهم - فيما ذكر لى - : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . » وكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغ قومه عنه ، فيذئروهم (أى يحرشهم) ذلك عليه أ

« فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط (أى بستان) لعتبة ابن ربيعة وشيبة ابن ربيعة - وهما فيه - ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتيهه ، فعمد إلى نخل حيلة من عنب (أى طاقة من قضبان الكرم) ، فجلس فيه ، وأبنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالتى من سفهاء أهل الطائف فلما اطمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - فيما ذكر لى - : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك . . . »

« قال : فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ومالتي تحركت له ورحبهما ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له : عداس . فقال له : خذ قطفا من هذا العنب ، فضمه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، قتل له يأكل منه . ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيه يده قال : « بسم الله » ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى ؟ » فقال عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك أخي . كان نبيا وأنا نبي » فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم — قبل رأسه ويديه وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قال له : وبلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدي ما في الأرض شيء خير من هذا . لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . قال له : ويحك يا عداس ! لا يصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينة !

« قال : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم — انصرف من الطائف راجعا إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنحلة قام من جوف الليل يصلي . فمر به النفر من الجن الذين ذكركم الله تبارك وتعالى ، وهم — فبا ذكر لي — صبية نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه — صلى الله عليه وسلم — قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نصرانا من الجن يسمعون القرآن » إلى قوله : « ويخرجكم من عذاب أليم » . وقال تبارك وتعالى : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة .

وقد علق ابن كثير في تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال : « هذا صحيح . ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — المذكور . وخروجه — صلى الله عليه وسلم — إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم » .

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الطائف ، مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذي واجهه به كبراء ثقيف ، وبعد ذلك السماء الكسير الودود لربه ومولاه ، فإنه ليكون عجيباً حقاً من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يلقاه مافعلوا وما قالوا لقومهم . وفيه من الدلالات اللطيفة الوحيدة ما فيه . .

وأيا كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظيم في دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين . . فلننضم مع هذا كله كما يمرضه القرآن الكريم .

« قل : أوصى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجيباً يهدي إلى الرشاد فخأمنّا به ، ولن نثرك ربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يمت الله أحداً » .

والنفر مابين الثلاثة والتسعة كالأهط . وقيل كانوا سبعة .

وهذا الاقتراح يدل على أن معرفة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه . . كانت يوحى من الله سبحانه إليه ، وإخباراً عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكن الله أعلمه عليه . وقد تكون هذه هي المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبي فيها على الجن عن علم وقصد . ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته - صلى الله عليه وسلم - سورة الرحمان « أخرجه الترمذي بإسناده - عن جابر رضى الله عنه قال : « خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه قرأ عليهم سورة الرحمان إلى آخرها ، فسكتوا . فقال : « لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردوداً منكم . كنت كلما أبيت على قوله تعالى : « نبأى آلاء ربكنا تكذبان ؟ » قالوا : لا شيء من نعمك ربنا نسكذب ، فلك الحمد » . . وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود - رضى الله عنه - التي سبقت الإشارة إليها في المقدمة .

ولا بد أن هذه اللمرة التي تحكيها هذه السورة هي التي تحكيها آيات الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نقرأ من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وأمنوا به بنصر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » . . .

فإن هذه الآيات - كالسورة - تبيء عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن ؛ مفاجأة أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ، وأطلقت في كيانتهم دفعة عنيفة من التأثير امتلاء بها كيانتهم كله وفاض ، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس عتيدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعا ، ولا تملك عليه صبرا ، قبل أن تفيض على الآخرين في هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة والانتعاش ، وبالجد والاحتفال في نفس الأوان ، وهي حالة من يافجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعا إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين في حماسة واندهاش ، وفي جد كذلك واحتفال !

« إنا سمعنا قرآنا عجيبا » . . .

فأول ما يدهمهم منه أنه « عجب » غير مألوف ، وأنه يثير الدهش في القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح ، ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق .. عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غالبة ، وذو إنقاع يلس للشاعر ويهز أوتار القلوب .. عجب ! فعلا . يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون !

« يهدي إلى الرشd » . . .

وهذه هي الصفة الثانية البارزة كذلك في هذا القرآن ، والتي أحسها النفر من الجن ، حين وجدوا حقيقتها في قلوبهم . . وكلمة الرشd في ذاتها ذات دلالة واسعة للهدى . فهو يهدي إلى الهدى والحق والصواب . ولكن كلمة الرشd تلقى ظلا آخر وراء هذا كله . ظل النضوج والاستواء . والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب . ظل الإدراك الذاتي البصير لهذه الحقائق والفهمات ، فهو ينشئ حالة ذاتية في النفس تهتدي بها إلى الخير والصواب .

والقرآن يهدي إلى الرشd بما ينشئه في القلب من تفتح وحساسية ، وإدراك ومعرفة ،

واتصال بمصدر النور والهدى ، واتساق مع التوالميس الإلهية الكبرى . كما يهتدى إلى الرشد بمنهجه التنظيمية للحياة وتصريفها . هذا التهج الذى لم تبلغ البشرية فى تاريخها كله ، فى ظل حضارة من الحضارات ، أو نظام من الأنظمة ، مما بلغت فى ظله أفرادا وجماعات ، قلوبا وعجمعات ، أخلاقا فردية ومعاملات اجتماعية . . على السواء .

« فأما به » . .

وهى الاستجابة الطبيعية المستجيبة لجام القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته . . يرضها الوسى على للشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون . وفى الوقت ذاته ينسبونهم إلى الجن ، يقولون : كاهن أو شاعر أو مجنون . . وكلها صفات للجن فيها تأثير . وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر ، متفعلين أشد التفعل ، لا يعلمون أنفسهم من المرة التى ترج كيانهم رجا . . ثم يعرفون الحق ، فيستجيبون له مذهبين مملئين هذا الإذعان : « فأما به » غير منكرين لما مس قوسهم منه ولا معاندين ، كما كان للشركون يفعلون !

« ولئن نشرك ربنا أحدا » . .

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح . غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس يوم ، ولا متزج بخرافة ، الإيمان الذى ينبعث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التى يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك .

« وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

والجد : الحظ والصيب . وهو القدر واللقام . وهو المظلة والسلطان . . وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب اللقار . وللمنى الإجمالى منها فى الآية هو التمييز عن الشعور باستلاء الله - سبحانه - وبمظلمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة - أى زوجة - ولدا بين أرباب !

وكانت العرب تزعم أن لللائكة بنات الله ، جاءت من صهر مع الجن ! فجات الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية فى تسييح لله وتزويه ، واستكاف من هذا التصور أن يكون ! وكانت الجن حرة أن تضر بهذا الصهر الخرافى الأسطورى لو كان يشبه أن يكون ! فهى قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهى فى تصورات الشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، بمن زعموا أن لله ولدا سبحانه فى أية صورة وفى أى تصوير !

« وأنه كان يقول سفينا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذبا » .

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك ، بعد ما تبين لهم من صماع القرآن أنه لم يكن حقا ولا صوابا ، وأن قائله إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ، وهم يطلون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصورون أن أحدا يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن . فهم يستعظمون ويستولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهائهم : إن لله صاحبة وولدا ، وإن له شريكا صدقوا ، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبدا .. وهذا الشهور من هؤلاء النفر بشكارة الكذب على الله ، هو الذي أهلهم للإيمان . فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة ؛ إنما جادها الضلال من الفرارة والبراءة ؛ فلما مسها الحق انتفضت ، وأدركت ، وتدوقت وعرفت . وكان منهم هذا الغتاف للدوى : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمننا به ، ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

وهذه الانتفاضة من مس الحق ، جديرة بأن تنبه قلوبا كثيرة مخدوعة في كبراء قريش ، وزعمهم أن لله شركاء أو صاحبة وولدا . وأن تثير في هذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزال الثقة العمياء في مقالات السفهاء من الكبراء اوقد كان هذا كله مقصودا بذكر هذه الحقيقة . وكان جولة من للمركة الطويلة بين القرآن وبين قريش النصية للمائدة ؛ وحلقة من حلقات العلاج البطيء لتغاييل الجاهلية وتصوراتها في تلك القلوب . التي كان الكثير منها غرا بريئا ، ولكنه مفضل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل للضلالين من القادة الجاهليين .

« وأنه كان رجال من الإنس يؤذون رجالا من الجن فزادهم رهقا » .

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفا في الجاهلية - وما يزال متعارفا إلى اليوم في بيئات كثيرة - من أن للجن سلطانا على الأرض وعلى الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضرر ، وأنهم يحكمون في مناطق من الأرض أو البحر أو الجو . . إلى آخر هذه التصورات . بما كان يقتضيه القوم إذا باتوا في فلاة أو مكان موحش ، أن يستمدوا بسيد الوادى من سفهاء قومه ، ثم يبيتون بعد ذلك آمنين .

والشيطان مسلط على قلوب بني آدم - إلا من اعتصم بالله فهو في نجوة منه - وأما من يركن إليه فهو لا ينقذه . فهو له عدو . إنما يرهقه ويؤذيه . . وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث : « وأنه كان رجال من الإنس يؤوذون برجال من الجن فزادهم رهقا .. ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التي تتوش قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يتصمون بالله منه ويستمينون كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس من المدااء القديم !

والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله ، طمعا في نفع ، أو دفعا لضر ، لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة ... وهذا هو الرهق في أسوأ صوره .. الرهق الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولاراحة !

إن كل شيء - سوى الله - وكل أحد ، متقلب غير ثابت ، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس ؟ وعاد يشير اتجاهه كما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه . والله وحده هو الباقي الذي لا يزول . الحى الذي لا يموت . الدائم الذي لا يتغير . فمن أنبه إليه أنبه إلى السقر الثابت الذي لا يزول ولا يحول :

« وأنهم ظنوا كما ظنتم أن لن يبعث الله أحدا » ..

يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يؤوذون برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون - كما أنكم تظنون - أن الله لن يبعث رسولا . ولكن هاهو ذا قد بث رسولا ، بهذا القرآن الذي يهدي إلى الرشدا .. أوأنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب - كما ظنتم - فلم يعملوا للآخرة شيئا ، وكذبوا ما وعدهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمرها ، لأنهم كانوا لا يستقدون من قبل فيها .

وكلا الظنين لا ينطبق على الحقيقة ، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله في خلق البشر . فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال (كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة للزوجة كذلك إلا من تمحض منهم للشر كإبليس ، وطرد من رحمة الله بمصيته الفاجرة ، وانهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج) ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسول ، يستجيشون في نفوسهم عنصر الخير ، ويستفتنون ما في فطرتهم من استعداد للهدى . فلا مجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم أحدا .

هذا إذا كان المعنى هو بئس الرسل . فأما بئس الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه المنشأة التي لا تستكمل حسابها في الحياة الدنيا ، لحكمة أرادها الله ، وتتملق بتنسيق للوجود بعلمه ولا نعلمه ؟ فجعل البئس في الآخرة لتستوفي الخلاق حسابها ، وتنتهي إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى في الحياة الدنيا . فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحدا من الناس . فهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكأله . سبحانه وتعالى ..

وهؤلاء النفر من الجن يصحون لهم ظنهم ، والقرآن في حكايتهم عنهم يصحح للشركيين أوهامهم .



وبعض الجن في حكاية مالفوه وماعرفوه من شأن هذه الرسالة في جنبات الكون ، وفي أرجاء الوجود ، وفي أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شيء من هذا الأمر : « وأنا لسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشبها . وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لاندري أشأ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ » ..

وهذه الوقائع التي حكاها القرآن عن الجن من قولهم ، توحى بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة . ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى عليه السلام — كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شؤون الخلاق في الأرض ، مما يكلفون قضاء تنفيذاً لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين ، وخلق الأرض من رسول . أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئا ، ولا ضرورة لتقصيها . إنما هذه هي جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول : إن استراق السمع لم يندمكنا ، وإنهم حين حاولوا الآن — وهو ما يبرون عنه بئس السماء — وجدوا الطريق إليه محروسا بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويطنون أنهم لا يدرون شيئا عن الغيب المقدر

البشر: « وأنا لاندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم وشدا .. فهذا الغيب موكول
لعلم الله لايعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده في الأرض : قدر أن ينزل بهم
الشر . فهم متروكون للضلال . أم قدر لهم الرشد - وهو الهداية - وقد جعلوها مقابلة للشر .
فهي الخير ، وعاقبتها هي الخير .

وإذا كان للصدر القوي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو
لا يدري عن ذلك شيئا ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة .
وتمحض الغيب لله ، لا يجترى أحد على القول بمرفته ، ولا على التنبؤ به . وأعلن القرآن تحرير
القلل البشري من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم
وتحررها من الخرافات والأساطير !

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم
يقُل لنا عنه القرآن ولا الآثار شيئا ، وليس لنا مصدر سواها نستقي منه عن هذا الغيب شيئا ؟
ولو علم الله أن في تفصيله خيرا لنا لقلل . وإذا لم يفعل لمحاولتنا نحن في هذا الاتجاه عبث ؟
لا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا للثمرة شيئا !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، وأنها تسير وفق نظام كوني ، قبل
البيئة وبسببها ، ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره ، بنظريات تغطي وتصيب . وحق
على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لا يدخل في موضوعنا ، ولا يمنع أن ترجم الشياطين
بهذه الشهب عند انطلاقها . وأن تتطلق هذه الشهب رجوما وغير رجوم وفق مشيئة الله التي
يجري عليها القانون !

فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصور لحفظ الله للذكر من الاتيأس بأى باطل ؟
وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره . . فسبب هذا عندهم أنهم يبحثون إلى القرآن بتصورات
مقررة سابقة في أذهانهم ، أخفوها من مصادر أخرى غير القرآن . ثم يحاولون أن يغسروا
القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة في أذهانهم من قبل . . ومن ثم يرون اللائكة
تمثيلا لقوة الخير والطاعة . والشياطين تمثيلا لقوة الشر واللعنة . والرجوم تمثيلا للحفظ
والصيانة . . الخ لأن في مقرراتهم السابقة - قبل أن يواجهوا القرآن - أن هذه للسميات :
اللائكة والشياطين أو الجن ، لا يمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو ، وأن تكون
لها هذه التحركات الحسية ، والتأثيرات الواقية ! ! !

من أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكون إليها نصوص القرآن والحديث ؟

إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره ، وفي التصور الإسلامي وتسكوته . . أن ينقض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصويرية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود . ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لتغير القرآن . ولا يبني شيئا يثبت القرآن ولا يؤله ، ولا يثبت شيئا ينفيه القرآن أو يبطله . وما عدا التثبت وللثبوت في القرآن ، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته . .

قول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن . . . وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم ، وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود (١) . .

فأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، ويستنفون نفي هذه التصورات لجحد أن العلم لم يصل إلى شيء منها ، فهم مضطربون حقا ! فالعلم لا يعلم أسرار الوجودات الظاهرة بين يديه ، والتي يستخدمها في تجاربه . وهذا لا ينبغي وجودها طبعا ! فضلا على أن العلماء الحقيقين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق للتدينين ، أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون ! لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم — عن طريقة العلم ذاته — أمام مجاهيل فيا بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة به ! فواضعوا تواضعا علميا نبيلًا ليست عليه ممة الادعاء ، ولا تابع التطاول على المجهول ، كما يتطاول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمي ، ممن يتكبرون حقائق البيانات ، وحقائق المجهول !

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى . وهذه السورة من القرآن — كثيرون — تمنحنا جوانب من الحقائق في هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيق صحيح للوجود ومآله من قوى وأرواح وحيوات تخرج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا .

(١) وما أرى نفسي أغنى فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الضلال قد انسقت إلى شيء من هذا . . وأرجو أن أندرك في الطبعة التالية إذا وفق الله . . وما أقرره هنا هو ما أعتقد الحق بهداية من الله .

وذواتنا . وهذا التصور هو الذى يميز السلم ويقف به وسطا بين الوم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول . ومصدره هو القرآن والسنة . وإليها يحاكم السلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير . .

وإن هنالك جمالا للعقل البشرى ممتنا فى ارتياد آفاق المجهول ؟ والإسلام يدفعه إلى هذا دفعا . . ولكن وراء هذا المجال اللين مالاقدرة لهذا العقل على ارتياده ، لأنه لا حاجة به إلى ارتياده . ومالا حاجة له به فى خلافة الأرض فلا مجال له إليه ، ولا حكمة فى إعانته عليه . لأنه ليس من شأنه ، ولا داخلا فى حدود اختصاصه . والقدر الضرورى له منه ليعلم مركزه فى الكون بالقياس إلى ماحوله ومن حوله ، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له ، لأنه أكبر من طاقته . وبالقدر الذى يدخل فى طاقته . ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح وللنشا والمصير . .

فأما الذين اهتموا بهدى الله ، فقد وقفوا فى هذه الأمور عند القدر الذى كشفه الله لهم فى كتبه وعطى لسان رسله . وأفادوا منه الشعور بنظام الخالق ، وحكمته فى الخلق ، والشعور بموقف الإنسان فى الأرض من هذه العوالم والأرواح . وشغلوا طاقاتهم العقلية فى الكشف والعلم للهِمَّاء للعقل فى حدود هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر الممكن لهم . واستغلوا ماعلموه فى العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها ، على هدى من الله ، متجهين إليه ، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين :

فرقة ظلت تعاهد بقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى ، وللمعرفة الحقيقية للشيء عن غير طريق الكتب للثروة . وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته ، فظنوا يتعشرون كالأطفال الذين يسعدون جبلا شاهقا لا غاية لقمته ، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بمد أجدية الهباء ! وكانت لهم تصورات مضحكة - وهم كبار فلاسفة - مضحكة حقا حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجليل الذى ينشئه القرآن . مضحكة بمراتها . ومضحكة بفارقاتها . ومضحكة بتدخلها . ومضحكة بقرائنها بالقياس إلى عظمة الوجود الذى يفسرونه بها . . لا أستثنى من هذا فلاسفة الإغريق الكبار ، ولا فلاسفة المسلمين الذين

مقلوبهم في منهج التفكير . ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامي للوجود (١)

فهذه فرقة . فأما الفرقة الأخرى ، فقد يئست من جدوى هذا الاتجاه في المعرفة . فمدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها في العلم التجريبي والتطبيقي . ضاربة صفحا عن المجهول ، الذي ليس إليه من سبيل . وغير مهتدية فيه بهدى الله . لأنها لا تستطيع أن تدرك الله ! وهذه الفرقة كانت في أوج غلوها خلال القرنين الثامن عشر والثاسع عشر . ولكنها أخذت منذ مطلع هذا القرن تفتق من التورور العلى الجامع ، على هروب للادة من بين أيديها وتحولها إلى إشعاع « مجهول الكنه » ويكاد يكون مجهول القانون !

ويقى الإسلام ثابتا على صخرة اليقين . يمنح البشر من المجهول القدر الذى لهم فيه خير . ويوفر طاقتهم العقلية للعمل في خلافة الأرض . ويهيئ لهم قولهم المبال الذى تعمل فيه في أمن . ويهديهم لثقى هى أقوم في المجهول وغير المجهول !

بعد ذلك أخذ الجن يسفون حالهم وموقفهم من هدى الله ؟ بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال . ومحدثنا هذا نفر عن عقيدتهم في ربهم . وقد آمنوا به . وعن ظنهم بماقية من يهتدى ومن يضل :

« وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا . وأنا ظننا أن لن نجز الله في الأرض ولن نجزها هربا . وأنا لما معنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون : فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » .

وهذا التفرع من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للتغير والشر كالإنسان - إلا من تمحض لشر منهم وهو إبليس وقبيله - وهو مقرر ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق . فأغلبنا حتى الدارسين الفاضلين - على اعتقاد أن الجن يثالثون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين

(١) نكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان . . بحث يرجو للؤلأ أن يوفق لى لإخراجه بكون الله .

الخالق هو ذو الطبيعة المزدوجة . وهذا ناشئ من مقررات سابقة في تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا . وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة ! وهذا النفر من الجن يقول : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك » . . . وصف حالهم بصفة عامة : « كنا طرائق قدا » . . . أى لكل منا طريقته المنفصلة للتقودة للقطعة عن طريقة الفريق الآخر .

ثم بين النفر متقدم الخاص بمد إيمانهم :
« وأنا ظننا أن لن نجز الله في الأرض ، ولن نجزه هربا » . .

فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الحرب من سلطانه سبحانه . والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدره . فلام يسجرون الله وهم في الأرض ، ولاهم يسجرونه بالحرب منها . وهو ضف البعد أمام الرب ، وضف الخالق أمام السلطان . والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

وهؤلاء الجن هم الذين يسود بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهم الإنس في الحوائج ! وهم الذين جعل للشركون بين الله - سبحانه - وبينهم نسيا ! وهؤلاء هم يعرفون بسجورهم وقدره الله . وضفهم وقوة الله . وانكسارهم وقهر الله . فيضحون ، لا تقومهم غيب بل للمشركين كذلك ، حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

ثم يصفون حالهم عند ماسموا الهدى ، وقد قرروا من قبل ، ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان :
« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به » . .

كما ينبئ لكل من يسمع الهدى . وهم سمعوا القرآن . ولكنهم يسمونه هدى كما هي حقيقته ونتيجته .

ثم يقررون هتفهم في ربهم ، وهى ثقة المؤمنين في مولاه :

« فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا » . .

وهى ثقة للطمئن إلى عدل الله ، وإلى قدرته ، ثم إلى طيبة الإيمان وحقيقته . . فانه سبحانه عادل . ولن يخس المؤمنين حق ، ولن يرهقهم بأفوق طاقته . والله سبحانه قادر . فيسبحى عبده المؤمن من البخش وهو قس الاستحقاق إطلاقا . ومن الرحق وهو الجهد

وللمشقة فوق الطافة . ومن ذا الذى يلك أن يخس المؤمن أورهقه وهو فى حماية الله ورعايته ؟ ولقد وقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ؟ ولكن هذا ليس هو البخس ، فالموض عما يحرمه منها يمنع عنه البخس . وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ؟ لكن هذا ليس هو الرهق ، لأن ربه يدركه بطاقة تحتمل الألم وتفيد منه وتكسبه به ! وصلته ربه تهون عليه المشقة وتمضها لحيره فى الدنيا والآخرة .

للمؤمن إذن فى أمان نفس من البخس ومن الرهق : « فلا يخاف بخسا ولا رهقا » .. وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية ، فلا يعيش فى قلق وتوجس . حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يزعج ، ولم يخف ، ولم تطلق على نفسه للناقد . إنما يد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر . ويرجو فرج الله منها فيؤجر . وهو فى الحالين لم يخف بخسا ولا رهقا . ولم يكابد بخسا ولا رهقا .

وصدق النفر للمؤمن من الجن فى تصور هذه الحقيقة للنيرة :

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال . والجزاء على الهدى والضلال :

« وأما منا السلون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشنا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » ..

والقاسطون : الجائر المجانون للملذ والصلاح . وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقا يقابل للسليمين . وفى هذا إيعاءة لطيفة بليفة للدلول . فالسليم عادل مصلح ، يقابله القاسط : الجائر للفسد .

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشنا » .. والتعبير بلفظ « تحروا » يوجب بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة فى طلب الرشد والاهتداء - ضد التى والضلال - ومعناه تحرى الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح . وليس هو خبط عشواء ولا انسياق بغير إدراك . ومعناه أنهم وصلوا ضلأ إلى الصواب حين اختاروا الإسلام . وهو معنى دقيق وجليل ..

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » أى تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطباً لجهنم . تلظى بهم وترداد اشتمالا ، كما تلظى النار بالحطب ..

ودل هذا على أن الجن يذبون بالنار . ومفهومه أنهم كذلك ينمون بالجنة . هكذا . يوحى النص القرآنى . وهو الذى نستمد منه تصورنا . فليس لقائل بعد هذا أن يقول

شيئا يستند فيه إلى تصور غير قرآني ، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة.. فيكون
مقاله الله حقا بلا جدال !
وما ينطبق على الجن مما ينوء قومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحي بلسان
نبيهم . .

وإلى هنا كان الوحي يحكى قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ؛ ثم عدل عن هذا
النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها
بفحواها لأبلفاظها :

« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر
ربه يسلكه عذابا صمدا » . .

يقول الله - سبحانه - إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على
الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا تعدقه عليهم ،
فيفيض عليهم بالرزق والرخاء .. « لنفتنهم فيه » . . ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون .
وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة ، يزيد
مدلولها تأكيداً بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه . ومثل هذه الفتات كثيرة في الأسلوب
القرآني ، لإجلاء للمأني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه الفتة تحتوى جملة حقائق ، تدخل في تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات
الأمور وارتباطاتها .

والحقيقة الأولى : هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة
إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ؛ وأول أسبابه توافر الماء وغدوداه . وما زال الحياة
تجرى على خطوات الماء في كل بقعة . وما زال الرخاء يتبع هذه الخطوات للباركة حتى
هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، ولم تمد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء .
ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية . .

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة
قائمة . وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ،

فتحت لهم الأرض التي يمدوق فيها للماء ، وتتدفق فيها الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا . وما يزالون في نكد وعظف ، حتى يفيثوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة الله ، ثم تال الوفر والغنى ، فإنها تمذب بأفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء . وتحيل الحياة فيها لعة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه في سورة نوح) .

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية : هي أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة . ونبؤكم بالسر والخير فتنة . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ، على عكس ما يلوح للنظرة العجلى . . فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتأسكون لها ، بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ؛ ومن ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما الرخاء فينسى ويلهى ، ويرى الأعضاء وينهم عناصر المقاومة في النفس ، ويبهى الفرصة للفرور بالنعمة والاستقامة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تصمم من الفتنة . . نعمة المال والرزق . كثيرا ما تنود إلى فتنة البطر وقلة الشكر ، مع السرف أو مع البخل ، وكلامه آفة للنفس والحياة . . ونعمة القوة كثيرا ما تنود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور ، والتنازل بالقوة على الحق وعلى الناس ، والتهجم على حرمان الله . . ونعمة الجمال كثيرا ما تنود إلى فتنة الخلاء والتيه وتردى في مدارك الإثم والنوایة . . ونعمة الذكاء كثيرا ما تنود إلى فتنة الفرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازن . . وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله . فصره الله . .

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله ، الذي قد تنتهى إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله . والنص يذكر صفة للمذاب « يسلكه عذابا صعدا » . . توحى بالمشقة مذكان الذي يصعد في للرفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد . وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد . فجاء في موضع : « فن رى الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن

يضله يحمل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ^(١) ». وجاء في موضع : « سأرهقه صعودا ^(٢) ». وهى حقيقة مادية معروفة . والتقابل واضح بين الفتنة بالرغاء وبين المذاب الشاق عند الجزاء !

والآية الثالثة فى السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء :

« وأن للساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » .

^١ وهى فى الحالتين توحى بأن السجود - أو مواضع السجود وهى للساجد - لا تكون إلا لله ، فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويؤتى كل غل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار . ويتفرد الجلو ويتمتع بالعبودية الخالصة لله . ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره ؟ وقد يكون بالالتجاء إلى سواه ؟ وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله .

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهى تؤكد لما سبق من قولهم : « ولن نشرك ربنا أحدا » فى موضع خاص ، وهو موضع العبادة والسجود . وإن كانت من قول الله ابتداء ، فهى توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم ، يبنى فى موضعه على طريقة القرآن .

وكذلك الآية التالية :

« وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » ..

أى متجمعين متكئين عليه ، حين قام يصلى ويدعو ربه . والصلاة معناها فى الأصل الدعاء .

فإذا كانت من مقولات الجن ، فهى حكاية منهم عن مشركى العرب ، الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلى أو وهو يتلو القرآن كما قال فى « سورة المارج » : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » .. يتسمعون فى دهش ولا يستجيون . أو وهم يتجمعون لإيقاع الأذى به ، ثم يصمه الله منهم كما وقع ذلك مرارا . . ويكون قول الجن هذا لقومهم للتنجيب من أمر هؤلاء للشركيين !

(١) سورة الأنعام . آية : ١٢٥

(٢) سورة المدثر . آية : ١٧

وإذا كانت من إخبار الله ابتداء ، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن ، حين سمعوا القرآن . . العجب . . فأخذوا ودهشوا ، وتكأ كأوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعضهم لصق ببعض ، كما تكون لبدن الصوف للنسوق شمرها ، بضه لصق ببعض . . ولعل هذا هو الأقرب لدلول الآية لاتسافه مع العجب والدهشة والارتياح والوهلة البادية في مقالة الجن كلها ! والله أعلم ..

وعندما تنتهى حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن ، وعن هذا الأمر ، الذى فاجأ نفوسهم ، وهز مشاعرهم ، وأطلعهم على انشغال النماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر ؛ وطى ما أحدثته من آثار في نسق الكون كله ؛ وطى الجد الذى يتضمنه ، والنواميس التى تصاحبه .

عند ما ينتهى هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى إشاعات جادة صارمة حاسمة ، بالتبليخ ، والتجرد من هذا الأمر كله بمد التبليخ ، والتجرد كذلك من كل دعوى فى الغيب أو فى حظوظ الناس ومقاديرهم . . وذلك كله فى جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب مافية من جد ومن صرامة :

« قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . قل : إني لأملك لكم ضرا ولا رشدا . قل : إني لن يغيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا . لإبلاغا من الله ورسالاته . ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيملكون من أضغاث ناصرا وأقل هندا . قل : إن أدري أقرب ما توعدون أم يحصل له ربى أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول . فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا . . . »

قل يا محمد للناس : « إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . . وهذا الإعلان يحى به مد إعلان الجن لقومهم : « ولن نترك ربنا أحدا . . فيكون له طعمه وله إيقاعه . فهى كلمة الإنسان والجن ، يتعارفان عليها . فمن شذ عنها كالشركيين فهو يشذ عن العالمين .

« قل : إني لأملك لكم ضرا ولا رشدا . . يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتجرد ، ويؤمر أن ينفذ يديه من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الله الواحد الذى يصده

ولا يشرك به أحدا . فهو وحده الذى يملك الضر ويملك الخير . ويجعل مقابل الضر الرشد، وهو الهداية ، كما جاء التعبير في مقالة الجن من قبل : « وأنا لاندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » . فيتطابق القولان في اتجاههما وفي ألقائهما تقريبا ، وهو تطابق مقصود في القصة والتعقيب عليها ، كما يكثر هذا في الأسلوب القرآنى . .

وهذا وذلك يتجرد الجن - وهو موضع الشبهة في المقدرة على النفع والضرر - ويتجرد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتتفرد الذات الإلهية بهذا الأمر . ويستقيم التصور الإيماني على هذا للتجرد الكامل الصريح الواضح .

« قل : إني لن يغيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته .. » . .

وهذه هي القولة الرهيبة ، التي تملأ القلب بجدية هذا الأمر .. أمر الرسالة والدعوة .. والرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة . . إني لن يغيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملجأ أو حامية ، إلا أن أبلغ هذا الأمر ، وأؤدي هذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هي الإجارة المأمونة . إن الأمر ليس أمري ، وليس لي فيه شيء إلا التبليغ ، ولا مفر لي من هذا التبليغ . فأنا مطلوب به من الله ولن يغيرني منه أحد ، ولن أجد من دونه ملجأ يصمى ، إلا أن أبلغ وأؤدي !

بالرهيبة ! وباللوعة ! وبالجهد !

إنها ليست تطوعا يتقدم به صاحب الدعوة . إنما هو التكليف ، التكليف الصارم الجازم ، الذى لا مفر من أدائه . فآله من ورائه !

وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهدى والخير للناس . إنما هو الأمر الملقى الذى لا يمكن التلطف عنه ولا التردد فيه !

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد .. إنها تكليف وواجب . ورائه الهول ، ووراءه الجهد ، ووراءه الكبير للتعالم !

« ومن يمس الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أنصف ناصرا وأقل عددا » .

(١١ - في ظلال القرآن [٢٩])

فهو التهديد الظاهر وللوقوف لمن يملئه هذا الأمر ثم يصي . بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ .

وإذا كان الشركون يركنون إلى قوة وإلى عبد ، ويفسبون قوتهم إلى قوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين القلائل معه ، فيسلمون حين يرون ما يوعدون - إمامي الدنيا وإمامي الآخرة - « من أضف ناصرا وأقل عددا » .. وأى الفريقين هو الضيف المختول القليل الهزيل !

ونمود إلى مقالة الجن فتجدهم يقولون : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نجزمه هربا » فتجد التعقيب على القصة يتناسق معها . ونجد القصة تهمد للتعقيب فيجىء في أوانه وموعده المطلوب !

ثم يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتجرد وينفض يديه من أمر التيب أيضا :
« قل : إن أدري أقرب ما يوعدون أم يحصل له ربي أمدا » ..
إن الدعوة ليست من أمره ، وليس له فيها شيء ، إلا أن ييلتها قياما بالتكليف ، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان - الذي لا يلفه إلا أن يبلغ ويؤدي . وإن ما يوعدهونه على الصيان والتكذيب هو كذلك من أمر الله ، وليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعدا . فما يدري أقرب هو أم بعيد يحصل له الله أمدا ممتدا . سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . فكله غيب في علم الله ، وليس للني من أمره شيء ، ولا حتى علم موعده متى يكون ! والله - سبحانه - هو المختص بالغيب دون المالمين :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » ..

وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - متجردا من كل صفة إلا صفة المبودية . فهو عبد الله . وهذا وصفه في أعلى درجاته ومقاماته .. ويتجرد التصور الإسلامي من كل شبهة ومن كل غشبي . والنبي - صلى الله عليه وسلم - يؤمر أن يبلغ فيبلغ : « قل : إن أدري أقرب ما يوعدون أم يحصل له ربي أمدا ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » ..

هناك فقط استثناء واحد .. وهو ما يأذن به الله من التيب ، فيطلع عليه رسله ، في حدود

ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس . فما كان ما يوحى به إليهم إلا غيا من غيبه ، يكشفه لهم في حينه ويكشفه لهم بقدر ، ويراعهم وهم يلقونه ، ويراقبهم كذلك . . ويؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم - أن يعلن هذا في صورة جادة رهبة :

« إلامن ارتقى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رسدا ، يعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عددا » . .

فالرسل الذين يرتضيه الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحي : موضوعه ، وطريقته ، ولللائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه في اللوح المحفوظ ... إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم بما كان في ضمير الغيب لا يلمه أحد منهم .

وفي الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللرقابة . يحومون من وسوسة الشيطان وزغره ، ومن وسوسة النفس وتمنياتها ، ومن الضعف البشري في أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف . ومن سائر ما يترى البشر من النقص والضعف . .

والتمهير الرهيب - « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رسدا » . . يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول ، وهو يؤدي هذا الأمر العظيم . . « يعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » . . والله يعلم . ولكن للقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به عمله في عالم الواقع .

« وأحاط بما لديهم » . . لما من شيء في تقوسهم وفي حياتهم ومن حولهم ، إلا وهو في قبضة العلم لا يند منه شيء . .

« وأحصى كل شيء عددا » . . لا يقتصر على مالهى الرسل ؛ بل يحيط بكل شيء إحصاء وعدا ، وهو أدق الإحاطة والعلم !

وتصور هذا الحال . والرسول محوط بالحراس والأرصاد . وعلم الله على كل مالهيه . وكل محاوله . وهو يتلقى التكليف جنديا ليعاك إلا أن يؤدي . ويمضى في طريقه ليس متروكا لنفسه . ولا متروكا لضعفه ، ولا متروكا لهواه ، ولا متروكا لما يحبه ويرضاه . إنما هو الجدا صارم والرقابة الدقيقة . وهو يعلم هذا ويستقيم في طريقه لا يتلفت هنا أو هناك . فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ، ويعلم ما هو مسلط عليه من علم وكشف !

إنه موقف يثير العطف على موقف الرسول ، كإثير الرهبة حول هذا الشأن الخطير .

وبهذا الإيقاع المائل الرهيب تغمّ السورة ، التي بدأت بالروعة والرجفة والانهار بادية في مقالة الجن الطويلة لفصلة ، الحافلة بآثار البهر والرجفة والارتجاع .
وتقرر السورة التي لاتتجاوز الثماني والمشرين آية ، هذا الحشد من الحقائق الأساسية التي تدخل في تكوين عقيدة السلم ، وفي إنشاء تصوره الواضح للزن المستقيم ، الذي لا يفلو ولا يفرط ، ولا يخلق علي نفسه نوافذ للمعرفة ، ولا يجرى — مع هذا — خلف الأساطير والأوهام .
وصدق النفر الذي آمن حين سمع القرآن ، وهو يقول : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فأمنّا به » . .

سُورَةُ الْمَزْمَلِ مَكِّيَّةٌ وَأَنبَأَتْهَا ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * وَالْأَلِيلُ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ اقْنَعُ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا * وَادَّكَّرَ أَنْ مَرْبَّكَ وَسَبَّحْتَ لِلَّهِ تَبْتَهِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا .

« وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعْنَا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا .

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَمَعَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولُ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبَيْلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ - إِنَّ كُفْرَكُمْ - يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * أَلَسَاءَ مُنْقَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا .

« إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَلَكَ ، وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ، وَآخَرُونَ بِضَرِيضٍ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ،

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

يروى في سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي - صلى الله عليه وسلم - وللدعوة التي جاءهم بها . فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاعظم له ؛ والنصف بياضه وزمل ونام مهموما . فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأولى « يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . . . الخ » وتأخر شطر السورة الثاني من قوله تعالى : إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِ اللَّيْلِ . . . إلى آخر السورة . تأخر عاما كاملا . حين قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطائفة من الذين معه ، حتى ورمت أقدامهم ، فزل التخفيف في الشطر الثاني بعد اثني عشر شهرا .

وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة اللدثر كذلك - كما سيجيء في عرض سورة اللدثر إن شاء الله .

وخلاصتها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتحنث في غار حراء - قبل البعثة بثلاث سنوات - أي يطهر ويتمجد - وكان تحنثه - عليه الصلاة والسلام - شهرا من كل سنة - هو شهر رمضان - يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة ، ومعه أهله قريبا منه . فيقيم فيه هذا الشهر ، يطعم من جاءه من الساكنين ، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيها حوله من مشاهد الكون ، وفيها وراها من قدرة مبدعة . . وهو غير مطمئن لما عليه قوم من عقائد الشرك للهلهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره - صلى الله عليه وسلم - لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ففي هذه العزلة كانت يخلو إلى نفسه ، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ؛ ويرغب لموجبات الكون ، ودلائل الإبداع ؛ وتسبح روحه مع روح الوجود ؛ وتتماثل مع هذا الجمال وهذا السكال ؛ وتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التماثل معها في إدراك وفهم .

ولا بد لأى روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فحولها وجهة أخرى . لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض ، وضجة الحياة ، وهموم الناس الصغرة التي تشغل الحياة .

لا بد من فترة لتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق في واقع الحياة يحمل النفس تألقه وتستقيم له ، فلا تحاول تغييره . أما الانخلاع منه فترة ، والانزعال عنه ، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير ، ومن الشواغل الثانية فهو الذي يؤهل الروح الكبير لرؤية ماهو أكبر ، ويدبره على الشعور بشكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس ، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع !

وهكذا دبر الله لحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يمدد لحل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق في هذه العزلة شهرا من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ماوراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا القيب عندما يأذن الله .

فلما أن أذن ، وشاء - سبحانه - أن يفيض من رحمته هذا الفيض على أهل الأرض ، جاء جبريل عليه السلام إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في غار حراء .. وكان ماقصه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أمره معه فيا ربه ابن إسحق عن وهب ابن كيسان ، عن عبيد ، قال :

« جفاني جبريل وأنا نائم بنمط من دياج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ (وفي الروايات : ما أنا بقارئ) قال : ففتني به (أى ضغطني) حتى ظننت أنه للوت . ثم أرسلني . فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . قال : ففتني حتى ظننت أنه للوت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . قال : ففتني حتى ظننت أنه للوت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : ما أقول ذلك إلا اقتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع لي . فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . . . قال : فقرأتها . ثم انتهى فانصرف عني . وهبت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا . قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر . فلذا جبريل في صورة

رجل ، صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه . لما أقدم وما أتأخر . وجلت أحول وجبى عنه في آفاق السماء . قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . لما زلت واقفا ما أقدم أمامي وما أرجع ورائي ، حتى بشت خديجة رسلها في طلي ، فبلغوا أعلى مكة ، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكان ذلك . ثم انصرف عني وانصرف راجعا إلى أهلي ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى غفنها مضيفا إليها (أي ملتصقا بها مائلا إليها) فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بشت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : « أبشر يا ابن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » .

ثم قرأ الوحي مدة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أن كان بالجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل ، فأدركته منه رجفة ، حتى جثى وهوى إلى الأرض ، وانطلق إلى أهله يرجف ، يقول : « زملوني . دثروني » .. فقاموا . وظل يرتجف بما به من الروع . وإذا جبريل يناديه : « يا أيها للزلزل » .. (وقيل : يا أيها للدثر) واقه أعلم أيتهما كانت .

وسواء صحت الرواية الأولى عن سبب نزول شطر السورة . أو صحت هذه الرواية الثانية عن سبب نزول مطلعها ، فقد علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يبد هناك نوما وأن هنالك تكليفا ثقيلا ، وجهادا طويلا ، وأنه الصحو والكبد والجهد منذ ذلك النداء الذي يلاحقه ولا يدمعه نيام !

وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - « قم » . . فقام . وظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما ! لم يسترح . ولم يسكن . ولم يش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله . يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به . عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض . عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري العارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها ، للثقل بأثقال الأرض وجواذيبها ، للكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها . . حتى إذا خلاص هذا الضمير في بعض محابته بما يقوله من ركाम الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى في ميدان آخر . . بل مباركة متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله للتأليين عليها وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الفرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنمو وتعد جذورها في التربة وفروعها في

القضاء ، وتظلل مساحات أخرى . . ولم يكد يفرغ من ممالك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تمدّ لهذه الأمة الجديدة وتتهبّ البطش بها على تخومها الشمالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن للمركة الأولى — معركة الضمير — قد انتهت ، فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ؛ وهو لا يني لحظة عن مزاولته نشاطه في أعماق الضمير الإنساني . . ومحمد — صلى الله عليه وسلم — قائم على دعوة الله هناك . وعلى للمركة الدائمة في ميادينها للثرفة . في شظف من الميش والدنيا مقبلة عليه . وفي جهد وكد وللمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة . وفي نصب دائم لا ينقطع . . وفي صبر جيل على هذا كله . وفي قيام الليل . وفي عبادة لربه ، وتمريل لقرآنه وتبتل إليه ، كما أمره أن يفعل وهو يناديه : « يا أيها اللزمل . قم الليل لإقليلا . نصفه أوقات من منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولا ثبيلات . إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلا . إن لك في النهار سبعا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب الشرق وللغرب لا إله إلا هو فاعذه وكبلا . واصبر على ما يقولون واهجرم هجرا جميلا » .

وهكذا قام محمد — صلى الله عليه وسلم — وهكذا عاش في للمركة الدائمة للسترة أكثر من عشرين عاما . لا يلبس شأن عن شأن في خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء المألوى للجيل وتلقى منه التكليف الرهيب . . جزاء الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء . .



وشطر السورة الأول يمضى على إقاع موسبق واحد . ويكاد يكون على روى واحد . هو اللام للطلقة للمدودة . وهو إقاع رخي وقور جليل ؛ يتمشى مع جلال التكليف ، وجدية الأمر ، ومع الأحوال المتتابعة التي يرضها السياق . . هول القول الثقيل الذي أسلفنا ، وهول التهديد للروح : « وذرنى وللكذيين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكلا وجيجا ، وطعما ذا غصة وعذابا أليما » . . وهول للوقوف الذي يتجلى في مشاهد الكون وفي أغوار النفوس : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » . . « فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به ؛ كان وعده مفعولا »

فأما الآية الأخيرة الطويلة التي تمثل شطر السورة الثاني ؟ فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول — صلى الله عليه وسلم — وطائفة من الذين معه . والله يمدّه ويمدّم

بهذا القيام لما يمدحهم له ! فنزل التخفيف ، ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التي قدرها في علمه عليهم .. أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهي طويلة وموسيقاها متموجة عريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار : وهي لليم وقبلها مداليه : « غفور رحيم » .

والسورة بشرطها تعرض صفحات من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العاوي الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل ، والصلاة ، وترتيل القرآن ، والتذكر الخاشع المتبتل . والامتثال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والمهجر الجليل للسكدين ، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب للمركة ! . . . وتنتهى بلغة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلويح برحمة الله ومغفرته : « إن الله غفور رحيم » ..

وهي تمثل بشرطها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من البشرية - البشرية الصالحة - ليردها إلى ربها ، ويصبر على أذاها ، ويجاهد في ضاؤها ؛ وهو متجرد من كل مافي الحياة من عرض يفرى ، ولذافة تلهي ، وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذ القارغون !

والآن نستعرض السورة في نصها القرآني الجليل .

« يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انمض منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إننا نلتقي عليك قولا جميلا . إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك في النهار سبعا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه بتقيلا . رب للشرق وللغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » ..

« يا أيها المزمل .. قم .. » . إنها دعوة السماء ، وصوت الكبير للتمال .. قم .. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك ، والعبء الثقيل للقيام لك . قم للجهد والنصب والسكد والنصب . قم قد مضى وقت النوم والراحة .. قم فتيها لهذا الأمر واستمد ..

وإنها لكلمة عظيمة رهية تنزعه - صلى الله عليه وسلم - من دفء الفراش ، في البيت

المادى والخصن الدافى . لتدفع به فى الحضم ، بين الزعزع والأنواء ، وبين الشد والجذب فى خبايا الناس وفى واقع الحياة سواء .

إن الذى يمشى لنفسه قد يمشى مستريحاً ، ولكنه يمشى صغيراً ويموت صغيراً . فأما الكبير الذى يحمل هذا العبء الكبير .. فإله والنوم ؟ وإله والراحة ؟ وإله والقراش الدافى ، والعيش المادى ؟ وللتنازع للمرج ؟ ! ولقد عرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حقيقة الأمر وقدره ، فقال لخديجة - رضى الله عنها - وهى تدعوه أن يطمئن وينام : « مضى عهد النوم يا خديجة ! أجل مضى عهد النوم وماعاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهد الطويل الشاق ! »
« يا أيها الزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا » . .

إنه الإعداد للهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة . . قيام الليل . أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه . وأقله ثلث الليل .. قيامه للصلاة وترتيل القرآن . وهو مد الصوت به وتجويده . بلا تقن ولا تطنر ولا تخلع فى التثنية .
وقد صرح عن وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة . ولكنه كان يقضى فى هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلا ، يرتل فيه القرآن ترتيلا .

روى الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا يحيى ابن سعيد - هو ابن أبى عروبة - عن قتادة ، عن زرارة ابن أوفى ، عن سعيد ابن هشام . . أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أتيتك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال . نعم . قال : أتت عائشة فسألها ، ثم أرجع إلى فأخبرنى بردها عليك . . ثم يقول سعيد ابن هشام : قلت : يأم المؤمنين أنبئنى عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : أئست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان القرآن . فهمت أن أقوم ، ثم بدا لى قيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلت : يأم المؤمنين ، أنبئنى عن قيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : أئست تقرأ هذه السورة : « يا أيها الزمل ! » ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله اقترب قيام الليل فى أول هذه السورة ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا أيها الزمل ! » ؟ قلت : بلى . قاله وسلم - وأصحابه حولا حتى انتفضت أقدامهم . وأمسك الله ختامها فى السبائي عشر شهرا . ثم أزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة .. فهمت

أن أقوم ، ثم بدالى وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلت : يا أبا المؤمنين أنبئني عن وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : كنا نمدله سواكه وطهوره ، فيعته الله كما شاء أن يعته من الليل ، فيتسوك ، ثم يتوضأ ، ثم يصلى ثمان ركعات لا يجلس فيهن ، إلا عند الثامنة ، فيجلس ويندكر به تعالى ويدعو ، ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلى التاسعة ، ثم يقعد فيذكر الله وحده ، ثم يدعوه ، ثم يسلم تسلياً يسمعا - ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك إحدى عشرة ركعة يابى ، فلما أسن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يابى . وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها . وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من نهار ثنقى عشرة ركعة . ولا أعلم نبى الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان ... » (١)

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذى سيزله الله عليه ..

« إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » ...

هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف .. والقرآن فى مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر . ولكنه ثقیل فى ميزان الحق ، ثقیل فى أثره فى القلب : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأىته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » فأزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه ..

وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيما به ، ثقیل ، يحتاج إلى استمداد طويل . وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، ثقیل ، يحتاج إلى استمداد طويل . وإن الاتصال بالملاّ الأعلى وروح الوجود وأرواح الخلق الحية والجامعة على النحو الذى تنبأ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثقیل ، يحتاج إلى استمداد طويل . وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الموانع والجواذب والمغريات ، ثقیل ، يحتاج إلى استمداد طويل .

وإن قيام الليل والناس نيام ، والانتطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها ؛ والاتصاله

(١) وأخرجه مسلم من حديث قتادة .. وهناك أحاديث كثيرة وأقوال متعددة فى صلاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالليل ووتره ، صحت فيها كيفيات متعددة لهذه الصلاة (يراجع زاد المعاد لابن القيم فى هديه صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل)

بالله ، وتلقى قبضه ونوره ، والأنس بالوحدة معه والحلوة إليه ، وترتيل القرآن والسكون ساكن ، وكأنما هو ينزل من اللاأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشرى ولا عبارة ؛ واستقبال إشعاعاته وإيقاعاته في الليل الساجي . . إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل ، والعبء الباهظ والجهد للرب الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل ؛ وينير للقلب في الطريق الشاق الطويل ، ويصمه من وسوسة الشيطان ، ومن اليه في الظلمات الحافة بهذا الطريق للنير .

« إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قِيلاً » . .

« ناشئة الليل » هي ما ينشأ منه بعد المشاء ؛ والآية تقول : إن ناشئة الليل هي أشد وطأً ؛ أى أجهد للبدن ، وأقوم قِيلاً : أى أثبت في الخير (كما قال مجاهد) فإن مغالبة هتاف النوم وجاذية الفراش ، بمد كد النهار ، أشد وطأً وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإشاراً للأنس به ؛ ومن ثم فإنها أقوم قِيلاً ، لأن للذكر فيها حلوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللنجاة فيها شفافيتها . وإنما لتسكب في القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا ، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره . . والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخلة وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأى الأوقات يكون فيها أكثر فتحاً واستعداداً وتهيئاً ، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه .

والله - سبحانه - وهو يد عبده ورسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - ليتلقى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسيم ، اختار له قيام الليل ، لأن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قِيلاً . ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيراً من الطاقة والالتفات :

« إن لك في النهار سبحة طويلاً » . .

فلينفض النهار في هذا السبع والنشاط ، وليخلص لربه في الليل ، يقوم له بالصلاة والله كر :

« وأذكر اسم ربك وتبتل إليه بتبتيلاً » . .

وذكر اسم الله ، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان ، على عدة السجدة للثوية أو الألفية إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان إذا كر ؛ أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها . والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله ، والاتجاه الكلي إليه بالمادة والله كر ، والخالص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحس والشاعر .

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله ، ذكر بعبارة ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله ،
يتجه إليه من يريد الاتجاه :

« رب الشرق والغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخذ وكلا . . »

فهو رب كل متجه . . رب الشرق والغرب . . وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو .
فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة في هذا الوجود ؛ والتوكل عليه هو التوكل على
القوة الوحيدة في هذا الوجود . والانسكال على الله وحده هو الثمرة للباشرة للاعتقاد بوحديته ،
وهيمته على الشرق والغرب ، أى على الكون كله . . والرسول الذي ينادى : قم . . لينهض
بعبء الثقيل ، في حاجة ابتداء للتبتل لله والاعتماد عليه دون سواه . فمن هنا يستمد القوة
والزاد للمبء الثقيل في الطريق الطويل .

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجليل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد
والتعطيل . وأن يحل بينه وبين الكافرين ١ ويعلمهم قليلا . فإن لدى الله لهم عذابا وتنكيلا :
« واصبر على ما يقولون واحجزهم هجرا جميلا . وذرنى وللذين أولى النعمة ومهلهم
قليلا . إن لدينا أنكالا وججيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال ،
وكانت الجبال كشيء مهيل . . إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ،
فمضى فرعون الرسول فأخذناه أخذنا ويلا . فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان
شيا ، السماء منفطر به كان وعده مفعولا . . »

وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة في بدء البعثة ، فإن هذا الشوط
الثاني منها يكون قد نزل متأخرا بعد الجهر بالدعوة ، وظهور المكذبين والتطاولين ، وشدهم
على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى المؤمنين . فأما إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر
السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة ما نال النبي - صلى الله عليه وسلم - من أذى المشركين
وصدم عن الدعوة .

وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر ، بعد التوجيه إلى القيام والذكر ، وهما كثيرا
ما يقتزمان في مدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل ، سواء طريقها
في مسارب الضمير أو طريقها في جهاد اللواتين ، وكلاهما شاق عسير . . نجد التوجيه إلى الصبر .

« فاصبر على ما يقولون » .. مما يفيظ ويحتمق ، « واهجرم هجرا جيلا » .. لاعتاب منه ولا غضب ، ولا هجر فيه ولا مشادة . وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة - وبخاصة في أوائلها .. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر ، ومجرد بلاغ هادئ ، ومجرد بيان منير .

والهجر الجميل مع التناول والتكذيب ، يحتاج إلى الصبر بعد الله كره . والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ، مرة ومرة ومرة ؛ ولعباده المؤمنين برسله . وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده ، والصبر جنته وسلاحه ، والصبر ملجؤه وملاذه . فهي جهاد .. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتنا وضعفها وشرورها ومجملتها وقنوطها .. وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتديريهم وكيدهم وأذامهم . ومع النفوس عامة وهي تنفعي من تكاليف هذه الدعوة ، وتتفقت ، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها . والدعاية لازاد لا إلا الصبر أمام هذا كله ، والله كره وهو قرن الصبر في كل موضع تقريبا ! اصبر على ما يقولون واهجرم هجرا جيلا .. ونخل بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل : « وذرفي وللكذابين أولى النعمة ومهلهم قليلا » .. كلمة يقولها الجبار القهار القوي اللين .. « وذرفي وللكذابين » .. وللكذوبون بشر من البشر ، والذي يهدمهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض « يكن » ولا تزيد !

ذرفي وللكذابين .. فهي دعوى . وما عليك إلا البلاغ . ودعهم يكذبون واهجرم هجرا جيلا . وسأنتولى أنا حربهم ، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذابين ! إنها القاصمة للرزلة للذهلة حين يغلو الجبار ، إلى هذه الخلائق الهينة للضموفة .. « أولى النعمة » مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من الخالقي !

« ومهلهم قليلا » ولومهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت لإقلايلا . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار ! فهي قليل أيا كان الأمد ، ولومضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذي يميل قليلا ويأخذ تسكيلا :

« إن لدينا أنكالا وججيا وطعما ذا غصة وعذبا إلما » ..

والأنكال - هي القيود - والججيم والطعام ذو النصة الذي يمزق الحلق والذباب الأليم .. كلها جزاء مناسب « لأولى النعمة » ! الذين لم يرعوا النعمة ، ولم يشكروا للنعم ، فاصبر يا محمد

عليهم صبرا جريلا وخل بيني وبينهم . ودعهم فإن عندنا قيودا تسكل بهم وتؤذيهم ، وجحبا
تجصمهم وتصلبهم ، وطعاما تلازمه النصة في الحلق ، وعذابا ألبا في يوم مخيف . . .
ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف :

« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » . .
فها هي ذى صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر عجايبها . تترجف وتخاف
وتتفتت وتتهار . فكيف بالناس للمهازيل الضعاف !
ويلفت السياق أمام مشهد الهول للفرع ، إلى المكذبين أولى النعمة ، يذكركم فرعون
الجبار ، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار :

« إنا أرسلنا إليك رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون
الرسول فأخذناه أخذنا ويلا »
هكذا في اختصار يهز قلوبهم ويغلبها خلما ، بعد مشهد الأرض والجبال وهي
ترجف وتهار .

فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا ؟ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوموا هذا
الهول العيب ؟

« فكيف تتقون - إن كفرتم - يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به ؟ » . .

وإن صورة الهول هنا تنتشيق لها السماء ، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها
لنشيب الولدان . وإنه هول ترسم صورته في الطبيعة الصامتة ، وفي الإنسانية الحية . . في مشاهد
ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة . . ثم يؤكدونها تأكيداً . « كان وعده
مفعولا » . . واقعا لاخلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان !

وأمام هذا الهول الذي يتمثل في الكون كما يتمثل في النفس يمس قلوبهم لتذكركم وتخترار
طريق السلامة . . طريق الله . .

« إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » . .

وإن السبيل إلى الله آمّن وأيسر ، من السبيل للرب ، إلى هذا الهول العصيب !
وبينا ترزول هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم -
والهالة المؤمنة المستضفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين . إذ يحسون أن بهم معهم ، يقتل أعداءهم

وينسل بهم . وإن هي إلا مهلة قصيرة ، إلى أجل معلوم . ثم يقضى الأمر ، حيناً يجيء الأجل
ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالسكال والجحيم والعذاب الأليم .
إن الله لا يدع أوليائه لأعدائه . ولو أمهل أعداءه إلى حين . . .

والآن يجيء شطر السورة الثاني في آية واحدة طويلة ، نزلت بعد مطلع السورة بعام على
أرجح الأقوال :

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلاثة ، وطائفة من الذين معك ،
والله يقدر الليل والنهار . علم أن لن نخسوه كتاب عليكم ، فاقراءوا ما نيسر من القرآن :
علم أن سيكون منكم مريض ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون
يقاتلون في سبيل الله . فاقراءوا ما نيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقربوا الله قرصاً
حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله ،
إن الله غفور رحيم » . .

إنها لسة التخفيف الندية ، تسمح على التعب والنصب وللشفقة . ودعوة التيسير الإلهي على
النبي والمؤمنين . وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له . وقد انتضخت أقدامهم من القيام الطويل
للسلاة بقدر من القرآن كبير . وما كان الله يريد لئيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام . إنما
كان يريد أن يسهل للأمر العظيم الذي سيواجهه طوال ما بقى له من الحياة . هو والجموعة
القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه .

وفي الحديث مودة وتطمين : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلاثة
وطائفة من الذين معك » . . إنه رآك ! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك
قبلت في ميزان الله . . إن ربك يعلم أنك وهم تجاف جنوبكم عن المضاجع ؛ وتركتم دفع
القراش في الليلة القارسة ، ولم تسمع نداء للمضاجع للترى وصمت نداء الله . . إن ربك بسطف
عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك . . « والله يقدر الليل والنهار » . . فيطيل من
هذا ويقصر من ذلك . فيطول الليل ويقصر . وأنت ومن معك ماضون يقومون أدنى من
ثلثي الليل ونصفه وثلاثة . وهو يعلم ضعفكم عن اللوالة . وهو لا يريد أن يستكم ولأن يشق
(١٢ - في خلال القرآن [٢٩])

عليكم . إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم ، وخذوا الأمر هينا : « فاقراؤا ما ينيس من القرآن » . . في قيام الليل بلا مشقة ولا عنت . . وهناك - في علم الله - أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة ، ويشق معها القيام الطويل : « علم أن سيكون منكم مرضى » يصعب عليهم هذا القيام « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » . . في طلب الرزق والسكدين فيه ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة . والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم وتقطعوا لمباداة الشأئر انقطاع الرهبان ! « وآخرون يقاتلون في سبيل الله » . . لقد علم الله أن سيأذن لكم في الانتصار من ظلكم بالقتال ، ولإقامة راية للإسلام في الأرض بخشائها البغاة ! خففوا إذن على أنفسكم « فاقراؤا ما ينيس منه » بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد . . واستقيموا على فرائض الدين : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . . وتصدقوا بعد ذلك قرصا لله يبق لكم خيره . . « وأقرضوا الله قرصا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا » . . وأجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم . فالإنسان يقصر ويخطئ . مهما جد وتحرى الصواب : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . .

إنها لمة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة تهيء بدمع من الدعوة إلى القيام ! ولقد خفف الله عن المسلمين ، فجعل قيام الليل لهم تطوعا لا فريضة . أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجي ربه ، في خلوة من الليل وهدأة ، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد . حتى أن قلبه ما كان ينام وإن ناست عيناه . فقد كان قلبه - صلى الله عليه وسلم - دائما مشغولا بذكر الله ، متنبلا لمولاه . وقد فرغ قلبه من كل شيء إلا من ربه . على ثقل ما يحمل على عاتقه ، وعلى مشقة ما يعاني من الأعباء الثقالة . .

« كَلَّا وَالْعَمْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالضُّحَى إِذَا أَشْفَرَ * لَهَا لَوْحْدَى الْكَبِيرِ *
نَذِيرًا لِلْبَشَرِ .

« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ *
إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ؟ *
قَالُوا : لَا نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُنْ نُعْطِ الْمُسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ *
وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ
الشَّافِعِينَ .

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ؟ * كَانَتْهُمْ حُجُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَوَتْ مِنْ
قَسْوَرَةٍ ؟ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً * كَلَّا ! بَلْ لَا يَخَافُونَ
الْآخِرَةَ * كَلَّا ! إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،
هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمُنِيرَةِ » ..

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة
« المزمل » . فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت
بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

قال البخاري ، حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن علي ابن المبارك ، عن يحيى ابن أبي كثير
قال : سألت أبا سلمة ابن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ فقال : « يَا أَيُّهَا الدُّرَّ » ..
قلت : يقولون « اقرأ باسم ربك الذي خلق » فقال أبو سلمة : سألت جابر ابن عبد الله عن
ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي ، فقال جابر : لا أحديثك إلا ما حدثنا به رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم
أر شيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ، ونظرت أمامي فلم أر شيئا ، ونظرت خلفي فلم أر
شيئا ، فرفعت رأسي فראيت شيئا . فأتيته خديجة فقلت : « دثروني وصبا على ماء باردا »

قال : فذثرونى وصبوا على ماء باردا . قال : فنزلت : « يا أيها اللدثر . قم فأندثر . وربك فسكر » ..

وقد رواه مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة . قال : أخبرنى جابر ابن عبد الله ، أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فيينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرقت بصرى قبل السماء ، فإذا لللك الذى جاءنى بحراء ، قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فحبثت منه حتى هويت إلى الأرض فحبثت إلى أهلى فقلت : زمانى ، فذثرونى ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها اللدثر . قم فأندثر ... » - إلى - والرجز فاهجر » قال أبو سلمة : والرجز الأوثان . ثم حمى الوحى وتتابع .. ورواه البخارى من هذا الوجه أيضا .. وهذا لفظ البخارى .

وعلى ابن كثير فى التفسير على هذا الحديث بقوله : « وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله : « فإذا لللك الذى جاءنى بحراء » وهو جبريل ، حين أتاه بقوله ... « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .. ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل لللك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة .. »

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال الطبرانى : حدثنا محمد ابن طى ابن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن ابن بشر البجلي ، حدثنا للماعى ابن عمران ، عن إبراهيم ابن يزيد ، سمعت ابن أبى مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد ابن اللثيرة صنع قريش طعاما ، ففأكلوا منه قال : ماتوا لوفى هذا الرجل فقال بعضهم : ساحر . وقال بعضهم : ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر . وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : بل ساحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه ساحر يؤثر . فبلغ ذلك النبىء - صلى الله عليه وسلم - فغزن ، وقنع رأسه ، وتذثر . فأنزل الله تعالى : « يا أيها اللدثر . قم فأندثر . وربك فسكر » . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر .. »

وتكاد تكون هذه الرواية هى ذاتها التى رويت عن سورة « الزمل » .. مما يجعلنا لانستطيع الجزم بشيء عن أيهما هى التى نزلت أولا . والتى نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

غير أن النظر فى النص القرآنى ذاته يوحى بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى :

« ولربك فاصبر » ربما يكون قد نزل مبكرا في أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة الزمل إلى قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب الشرق والغرب لا إله إلا هو فأغذه وكلا » . . وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - للنهوض بالنبوة الكبرى ، ومواجهة قريش بمد ذلك بالدعوة جهارا وكافة ، مما سيعترب عليه مشاق كثيرة متنوعة ، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسى سابق . . ويكون ما تلا ذلك في سورة للدثر ، وما تلا هذا في سورة للزمل ، قد زلا بمد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم ، وإيذائهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - بالاتهام الكاذب والكيد اللئيم .

لأن هذا الاحتمال لا ينفى الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون كل من اللطمين قد نزل متصلا بما تلاه في هذه السورة وفي تلك ، بمناسبة واحدة ، هي التكذيب ، وإغتمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للكيد الذى كادته قريش ودبرته . . ويكون الشأن في السورتين هو الشأن في سورة القم على النحو الذى يبيناه هناك .



وأيا ما كان السبب وللناسبة فقد تضمنت هذه السورة في مطلعها ذلك النداء المألوف بالتداب النبوي - صلى الله عليه وسلم - لهذا الأمر الجليل ؛ وانتراعه من النوم والتدثر والدفع إلى الجهاد والكفاح والشقة : « يا أيها اللدثر . قم فأنذر » . . مع توجيهه - صلى الله عليه وسلم - إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم ، والاستمانة عليه بهذا الذى وجهه الله إليه : « وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » . . وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك في سورة الزمل !

وتضمنت السورة بمد هذا تهديدا ووعيدا للكافرين بالآخرة ، وبهرب الله الباشرة ، كما تضمنت سورة الزمل سواء : « فإذا نهر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا ، وبين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه سعودا » . .

وتبين سورة للدثر أحد الكذابين يصفته ، وترسم مشهدا من مشاهد كيد - على نحو نما ورد في سورة القم ، وربما كان الشخص الذى هنا وهناك واحدا ، قيل : إنه الوليد ابن المغيرة - (كما سيأتى تفصيل الروايات عند مواجهة النص) وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له :

« إنه فكر وقد . قتل كيف قدر ؟ ثم قتل : كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر . ثم أدير واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » . . ثم تذكر مصيره : « سأليه سقر . وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر . لواحية للبشر . عليها تسعة عشر » . .

وبجانبية مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وما أثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء في أوساط الشركيين وضعاف الإيمان ، تحدث السورة عن حكمة الله في ذكر هذا العدد ، ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله ، واختصاصه بهذا التيب . وهي كوة تلقى ضوءاً على جانب من التصور الإيماني لحقيقة غيب الله للكونون : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب وللمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ هكذا يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وماهى إلا ذكرى للبشر » . .

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة ، ليجمع على القلوب إجماع هذه وتلك في مرض الإيقاظ والتحذير : « كلا والقمر . والليل إذا أدير . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » . .

كما يمرض مقام المجرمين ومقام أصحاب الإيمان ، حيث يترف للكذبيون اعترافاً طويلاً بأسباب استحقاقهم للارتقاء والقيد في يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم الذي لا تنفعهم فيه شفاعاة شافع : « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب الإيمان . في جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سقر ؟ قالوا : لم نك من الصالحين . ولم نك نعظم المسكين . وكنا نخوض مع الخافضين . وكنا نكذب يوم الدين . حتى آتانا اليقين . فانتفهم شفاعاة الشافعين » . .

وفي ظل هذا المشهد المخزي ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستكراً موقف للكذبيين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا الصير ، ويرسم لهم مشهداً ساخراً يثير الضحك والزراية من تفارم الحيوانى الشموس : « فمالهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! » .

ويكشف عن حقيقة الغرور الذي يساورهم فيمنهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح .
 « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صفحا منشرة .. فهو الحسد للئى - صلى الله عليه وسلم -
 والرغبة في أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى : « كلا ! بل
 لا يخافون الآخرة » ..

وفي الختام يحى التقرير الجازم الذى لا مجال فيه : « كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره »
 ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره : « وما يدكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى
 وأهل اللفرة » ..



وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسى الذى كلفه القرآن للجاهلية
 وتصوراتها في قلوب قريش ؟ كما كافح المناد والكيد والإعراض الناشئ عن العمد والمقصد
 بشق الأساليب .. وللشبهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة الزمل ،
 وسورة القلم ، مما يدل على أنها جميعا نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة .. وذلك باستثناء
 الشطر الثانى من سورة الزمل ، وقد نزل بشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول - صلى الله
 عليه وسلم - وطائفة من الذين معه كما تقدم .



وهذه السورة قصيرة الآيات . سرية الجريان . متنوعة الفواصل والتوافى . يتشد إيقاعها
 أحيانا ، ويجرى لاهتا أحيانا ! وبخاصة عند تصور مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر
 ويبس وييسر .. وتصور مشهد سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر .. ومشهد فرارهم كأنهم
 حمر مستنفرة . فرت من قسورة !

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية يتنوع للمشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقا خاصا ؛ ولا
 سببا عند رد بعض التوافى ورجحها بد اتها كقافية الراء الساكنة : للدر . أنذر . فكبر ..
 وعودتها بعد فترة : قدر . يسر . استكبر . سقر .. وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في
 الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله : « فلما لم عن التذكرة معرضين ؟
 كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! » .. ففي الآية الأولى كان يسأل ويستنكر . وفي
 الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا ..

والآن نأخذ في الاستعراض التفصيلي للسورة :

« يا أيها اللدثر . قم فأندرك . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » . .

إنه النداء العلوي الجليل ، للأمر العظيم الثقيل . نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر في الدنيا ، ومن النار في الآخرة ؛ وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان .. وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر - مهما يكن نبيا رسولا - بالبشرية من الضلال والعيان والتمرد والتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصى من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من اللهام في هذا الوجود !

« يا أيها اللدثر . قم فأندرك » .. والإنذار هو أظهر ما في الرسالة ، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون . وفيه تحلى رحمة الله بالباد ، وهم لا ينتصون في ملكه شيئا حين يضلون ، ولا يزيدون في ملكه شيئا حين يهتدون . غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة ، ومن الشر اللويق في الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليضفر لهم ويدخلهم جنته من فضله ! ثم يوجه الله رسوله في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره :

يوجهه إلى تكبير ربه : « وربك فكبر » .. ربك وحده .. فهو وحده الكبير ، الذي يستحق التكبير . وهو توجيه يقرر جانباً من الصور الإيماني لمنى الألوهية ، ومعنى التوحيد .

إن كل أحد ، وكل شيء ، وكل قيمة ، وكل حقيقة . صغير .. والله وحده هو الكبير .. وتواري الأجرام والأحجام ، والقوى والقيم ، والأحداث والأحوال ، والمغان والأشكال ؛ وتمسح في ظلال الجلال والكمال ، لله الواحد الكبير المتعال .

وهو توجيه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعها وأهوالها وأثقالها ، بهذه الصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذي دناهم ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير .. ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور .

ويوجهه إلى التطهر : « وثيابك فطهر » . . وطهارة الثياب كناية في الاستعمال العربي عن طهارة القلب والخلق والعمل . . طهارة القلوب التي تحتويها الثياب ، وكل مايلم بها أو يمسها . . والطهارة هي الحالة المناسبة للتعليق من الملا الأمل : كما أنها الصق شيء بطبيعة هذه الرسالة . وهي بمد هذا وذلك ضرورة للملاسة الإنذار والتبليغ ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء وللداخل والدروب ؛ وما يصاحب هذا ويلبسه من أدران ومقافد وأخلاق وشوائب ، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استغناء اللوئين دون أن يتلوث ، وملابسة للندسين من غير أن يتدنس . . وهي لفظة دقيقة عميقة إلى ملاسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شقى الأوساط ، وشقى البيئات ، وشقى الظروف ، وشقى القلوب !

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات المذاب : « والرجز فاهجر » . . والرسول - صلى الله عليه وسلم - كان هاجرا للشرك ولموجبات المذاب حتى قبل النبوة . فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف ، وهذا الركام من للمعتقدات الشائبة ، وذلك الرجز من الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية . ولكن هذا التوجيه يعنى الفاصلة وإعلان التميز الذي لاصلمح فيه ولا هوادة . فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان . كما يعنى التحرز من دنس هذا الرجز - والرجز في الأصل هو المذاب ، ثم أصبح يطلق على موجبات المذاب - تحرز التطهر من مس هذا الدنس !

ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم اللين بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستغفاره : « ولا تمنن تستكثر » . . وهو سيقدم الكثير ، وسينذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولكن ربه يريد منه ألا يظلم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به . . وهذه الدعوة لاستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تخفله النفس إلا حين تنساه . بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله ؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطايه . فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختار هاله ، ويوقتها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله . لالين والاستكثار .

ويوجهه أخيرا إلى الصبر . الصبر لربه : « ولربك فاصبر » . . وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبت . والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة

الشاقة . معركة الدعوة إلى الله . للمركة للزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ؛ ومع أعداء الدعوة الذين تتوهم شياطين الشهوات وتدفهم شياطين الأهواء ؛ وهي معركة طويلة عنية لازاد لها إلا الصبر الذي يقصد فيه وجه الله ، وينتج به إليه احتسابا عنده وحده .

فإذا انتهى هذا التوجيه الإلهي للنبي الكريم ، أتجه السياق إلى بيان ماينذر به الآخرين ، في لمة توقف الحبس لليوم المسير ، الذي ينذر بمقدمه النذير :

« فإذا نقر في الناقر . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » . .
والنقر في الناقر ، هو مايمر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور . ولكن التعبير هنا أشد إعجاب بشدة الصوت ورنينه ؛ كأنه نقر يصوت ويدوي . والصوت الذي ينقر الأذان أشد وقعا من الصوت الذي تسمعه الأذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه : « على الكافرين غير يسير » . . فهو عسر كله . عسر لايتخلله يسر . ولايفصل أمر هذا العسر ، بل بدعه مجعلا مجعلا يوحى بالاختناق والكره والضيق .. لما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر في الناقر ، فيواجههم هذا اليوم العسير المسير !

وينتقل من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من الكذابين ؛ يبدو أنه كان له دور رئيسي خاص في التكذيب والتبیت للدعوة ؛ فيوجه إليه تهديدا ساحقا ماحقا ، ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التي تبرز من خلال الكلمات كأنها حية شاخصة متحركة للامع والجات :

« ذري ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنيت شهودا ، ومهدت له تمهدا ؛ ثم يطمع أن أزيد اكلا ؛ إنه كان لأياتنا عنيدا . سأرهقه صودا . إنه فكر وقدر . قتل كيف قدر ؟ ثم قتل كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ؟ لا تبق ولا تدر ، لواءة للبشر ، عليها تسعة عشر .. » . .

وقد وردت روايات متعددة بأن للمنى هنا هو الوليد ابن الليرة الخزومي . قال ابن جرير :

حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن عباد بن منصور ، عن عكرمة ، أن الوليد بن النيرة جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ عليه القرآن ، فكانه رقه له ، فبلغ ذلك أباجهل ابن هشام ، فأتاه فقال له : أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا : قال : لم ؟ قال : يطئونك ، فإنك أتيت محمدا تعرض لما قبله (يريد بخبث أن يترك براءه من الناحية التي يعرف أن الوليد أشد بها اعتزا) قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا ! قال : قل في قولك لا يعلم قومك أنك منكسر لما قال ، وأنت كاره له ! قال : فإذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا بقصيدة ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا . والله ! إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليملو وما يملو . . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . . قال : فدعني حتى أفكر فيه . . فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره . فنزلت : « ذرني ومن خلقت وحيدا - حتى بلغ - عليها تسعة عشر » .

وفي رواية أخرى أن قريشا قالت : لئن صبا الوليد ، لتصنن قريش كلها ! فقال أبو جهل أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه . . وأنه قال بعد التفسير الطويل : إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟
هذه هي الواقعة كما جاءت بها الروايات . فأما القرآن فيسوقها هذه الساقاة الحية للثيرة . . يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب .
« ذرني ومن خلقت وحيدا » . .

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعناه خل بيني وبين هذا الذي خلقتني وحيدا مجردا من كل شيء آخر مما يميز به من مال كثير ممدود وبين حاضرين شهود ونعم يتطرب بها ويغتال ويطلب للزبد . خل بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيد . فأنا سأتولى حربي . . وهنا يرتعش الحس ارتعاشه القزع للزلزل ، وهو يتصور انطلاق القوة التي لاحد لها . . قوة الجبار اتها . . لتسحق هذا الخلق المضعوف للسكين المزيل الضئيل ! وهي الرعدة التي يطبقها النص القرآن في قلب القاري والسامع الآمنين منها . فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه ! ويطلق النص في وصف حال هذا الخلق ، وما أتاه الله من نعمه وآلائه ، قبل أن يذكر إعراضه وعناده . فهو قد خلقه وحيدا مجردا من كل شيء حتى من ثيابه ! ثم جعل له مالا كثيرا

ممدودا . ورزقه بنين من حوله حاضرين شهودا ، فهو منهم في أنس وعزوة . ومهد له الحياة
عنيها ويسرها له تيسرا .. « ثم يطعم أن أزيد » .. فهو لا يتقنع بما أوتي ، ولا يشكر ويكتفي ..
أم لعله يطعم في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتابا كما سيجيء في آخر السورة : « بل يريد
كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة » . . فقد كان ممن يحسدون الرسول - صلى الله عليه
وسلم - على إعطائه النبوة .

وهنا يردعه ردعا عنيفا عن هذا الطمع الذي لم يقدم حسنة ولا طاعة ولا شكرا لله برجو
بسيه للزبد :

« كلا ! » ، وهي كلمة رديج وتبكي - « إنه كان لآياتنا عنيدا » . . فبأنه دلائل الحق
وموحيات الإيمان . ووقف في وجه الدعوة ، وحارب رسولها ، وصدها عنها نفسه وغيره ،
وأطلق حوالها الأضاليل .

ويقب على الردع بالوعيد الذي يدل اليس عسرا ، والتهديد مشقة !
« سأرهقه صعودا » ..

وهو تعبير مصور لحركة المشقة . فالصيد في الطريق هو أشق السير وأشد إرهاقا .
فإذا كان دفعا من غير إرادة من الصمد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقا . وهو في الوقت ذاته
تعبير عن حقيقة . فالتى ينحرف عن طريق الإيمان السهل لليسر الودود ، يندب في طريق
وعر شاق مبتوت ؟ ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصعد في السماء ، أو يصعد
في وعر مهلك لا يرى فيه ولا زاد ، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !
ثم يرسم تلك الصورة للبدعة المثيرة للسخرة والرجل يكبد ذهنه أو يصبر أعصابه ! ويقبض
جبينه ! وتكلم ملاحه وقبائه . . كل ذلك ليجد عينا يئيب به هذا القرآن ، وليجد قولا
يقوله فيه :

« إنه فكر وقدر . قتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر .
ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » ..
لحظة لحمة . وخطرة خطرة . وحركة حركة . يرسمها التعبير ، كالوكانت ريشة تصور ،
لا كلمات تعب ، بل كالوكانت فليما متحركا يلتقط للشهد لحظة لحمة !!!
لحظة وهو يفكر ويدبر ومهما دعوة هي قضاء « قتل ! » واستنكار كله استنزاء
« كيف قدر ؟ » ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيهام بالتكرار .

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء.
ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسا ، ويقبض ملامح وجهه بأسرا ، ليستجيع فكره في
هيئة مضحكة !

وبعد هذا المحاض كله ؟ وهذا الخلق كله ؟ لا يفتح عليه شيء .. إنما يدبر عن النور
ويستكبر عن الحق .. فيقول : « إن هذا إلاسحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » !
إنها لمحات حية يشبها التمييز القرآني في الحيلة أقوى مما تثبتها الريشة في اللوحة ؟ وأجل
كما يرضها الفيلم المتحرك على الأنظارا وإنما لتدع صاحبها سخرية الساعرين أبدا الدهر ، وثبتت
صورته الزرية في صلب الوجود ، تملأها الأجيال بعد الأجيال !
فإذا انتهى عرض هذه اللحات الحية الشاخسة لهذا المخلوق للمضحك ، عقب عليها
بالوعيد للفرع :

« سأسلية سقر » .. وزاد هذا الوعيد تهويلا بتجويل سقر : « وما أدراك ما سقر ؟ » ..
إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ! ثم عقب على التجويل شيء من صفتها أشد هولاً :
« لا تبقى ولا تذر » .. فهي تكنس كنسا ، وتبلغ بلما ، وتمحو عوا ، فلا يقف لها شيء ،
ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء !

ثم هي تتعرض للبشر وتلوح : « لواحدة للبشر » .. كما قاله في سورة المارج : « تدعو
من أدبر وتولى » .. فهي تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفرع في النفوس ،
بمنظرها الخفيف !

ويقوم عليها حراس عدتهم : « تسعة عشر » .. لاندرى أهم أفراد من اللاتكة
الغلاظ الشداد ، أم صفوف أم أنواع من اللاتكة و صنف . إنما هو خبر من الله سبدي
شأنه فيما يحيى ..



فأما للؤمنون فقد تلقوا كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه ، وتأدب معه أدب المبد
مع الرب فلم يمد يمارى في خبره وقوله . وأما للشركون فتلقفوا هذا الممد بقلوب خاوية من
الإيمان ، عارية من التوقير لله ، خالية من الجد في تلقى هذا الأمر العظيم . وراحوا يتكفون
عليه ويسخرون منه ، ويتخلونته موضعا للتندر والزحاح .. قال قائل منهم : أليس يتكفل

كل عشرة منكم بواحد من هؤلاء التسعة عشر ١٩ وقال قائل : لا بل اكنفوني أتم أمر اثنين منهم وعلني الباقي أنا أ كفيكموم ١ وبمثل هذه الروح للطموسة للقلقة الفاضية تلقوا هذا القول العظيم الكريم .

عندئذ نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله في الكشف عن هذا الجانب من التيب ، وذكر هذا المدد ، وتردد علم التيب إلى الله ، وتقرر ما وراء ذكر سقر وحراسها من غابة يتبهى للوقف إليها :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر .. »

تبدأ الآية بتقرر حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تحارون فهم للشركون :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة .. »

فهم من ذلك الخلق اللطيف الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله ؟ وقد قال لنا عنهم : إنهم « لا يصون الله ما أمرهم وضمون ما يؤمرون » قرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدر بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة ، كما يسلها الله ، فلا مجال لتعهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر للضعوفين ! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتديره للأمر .

« وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » . .

فهم الذين يشر ذكر المدد في قلوبهم رغبة الجدل ؟ ولا يرفعون مواضع التسليم ومواضع الجدل . فهذا الأمر التبيي كله من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا أخبر الله عنه خبراً فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم ، والأطمئنان إلى أن الخبر في ذكر هذا الطرف وحده ، بالقدر الذي ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه ، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يناهزه . أما لماذا كانوا تسعة عشر (أي : كان مدلول هذا المدد) فهو أمر يعلمه الله الذي .

ينسق الوجود كله ، ويخلق كل شيء بقدر . وهذا المدد كثيره من الأعداد . والذي ينبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أى عدد آخر وعلى أى أمر آخر بنفس الاعتراض . . لماذا كانت السماوات سبعا ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجن من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب : لأن صاحب الخلق والأمر يريد وفعل ما يريد ! هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور . .

« ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الدين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب وللمؤمنون » . .

فهؤلاء وهؤلاء سيجدون في عدة حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان . فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئاً عن هذه الحقيقة ، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها . وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيماناً . لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقياً مباشراً ؛ وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنساً بالله . . وستشمر قلوبهم بحكمة الله في هذا المدد ، وتهديره الدقيق في الخلق ، فتزيد قلوبهم إيماناً . وتثبت هذه الحقيقة في قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله .

« وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ » . .

وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثراً في مختلفين في القلوب المختلفة . . فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون ، والذين آمنوا يزيدون إيماناً ، إذا بالذين كفروا وضاف القلوب المناقون في حيرة يتساءلون : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ » . . فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب . ولا يسلون بحكمة الله للطفة في تهدير كل خلق : ولا يطعنون إلى صدق الخبر والخبر الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . .

« كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » . .

كذلك . بذكر الحقائق وعرض الآيات . فتلقاها القلوب المختلفة تلقياً مختلفاً . ويهتدي بها فريق وفق مشيئة الله ؛ ويضل بها فريق حسب مشيئة الله . فكل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله للطفة التي ينتهي إليها كل شيء . وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد

مزدوج الهدى والضلال ؛ فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقهم بهذا الاستعداد الزدوج ، وبسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك ، في حدود المشيئة المطلقة ، ووفق حكمة الله للكنونة .

وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل مايقع في هذا الوجود إليها تصورا كاملا واسع للدلول ، يعنى المقول من الجدل الضيق حول مايسمونه الجبر والإرادة . وهو الجدل الذى لا ينتهى إلى تصور صحيح ، بسبب أنه يتناول للسألة من زاوية ضيقة ، ويضمها في أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحدودة ؛ بينما هو مجال قضية من قضايا الألوهية غير المحدودة !

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال . وحدد لنا نهجا نسلكه فتهتدى ونسعد ونقوز . وبين لنا تهوجا نتحرف إليها فضل ونشقى ونحسر . ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئا ، ولم يهينا القدرة على علم شيء وراء هذا . وقال لنا : إن إرادتى مطلقة وإن مشيئى نافذة . . فلينا أن نمالج — بقدر طاقتنا — تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشية النافذة . وأن نلزم النهج الهادى وتجنب التهج المضللة . ولا نتشغل في جدل عقيم حول مالم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب للكنون . ومن ثم ننظر فترى كل ماأفقه للتكلمون في مسألة القدر على النحو الذى تكلموا به جهدا ضائعا لاطائل وراءه لأنه في غير ميدانه . .

إننا لانعلم مشيئة الله للنية بنا ، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذى كتبه على نفسه . وعلينا إذن أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا ، وأن ندع له هو غيب مشيئته بنا . والذى سيكون هو مشيئته ، وعندما يكون سنعرف أن هذه مشيئته لأجل كونه ؛ والذى سيكون وراءه حكمة يعرفها العلم بالكل للطلق . . وهو الله وحده . . وهذا هو طريق المؤمنين في التصور ومنهجه في التفكير . . .

« وما يعلم جنود ربك إلا هو » . .

فهي غيب ، حقيقتها . ووظيفتها . وقدرتها . . وهو يكشف عما يريد الكشف منه من أمرها ، وقوله هو الفصل في شأنها . وليس لقائل بمده أن يجادل أو يحاكم أو يحاول معرفة مالم يكشف الله عنه ، فليس إلى معرفة هذا من سبيل . .

« وماهى إلا ذكرى للبشر » . .

« وهى » إما أن تكون هى جنود ربك ، وإما أن تكون هى سقر ومن عليها . وهى من جنود ربك . وذكرها جاء لينبه ويحذر ؛ لالتكون موضوعا للجدل والمحاكمة والقابوب للؤمنة هى التى تمتع بالذكى ، فأما القابوب الضالة فتتخذها محاكمة وجدلا !

ويقب على هذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق التيب ، ولناهج التصور الهادية والضلالة . . يقب على هذا بربط حقيقة الآخرة ، وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك ، بطواهر الوجود المشبودة فى هذا العالم ، والتى يمر عليها البشر غافلين ، وهى تشى بتقدير الإرادة الخالقة وتديرها ، وتوحى بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصدا وغاية ، وحسابا وجزاء :
« كلا والقمر . والليل إذ أدبر : والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر » . .

ومشاهد القمر ، والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر . . مشاهد موحية بذاتها . تقول للقلب البشرى أشياء كثيرة ؛ وتهمس فى أعماقه بأسرار كثيرة ؛ وتستجيش فى أمواره مشاعر كثيرة . والقرآن يمس بهذه الإشارة السريمة مكامن هذه المشاعر والأسرار فى القابوب التى يغاطها ، على خبرة بمدخلها ودروبها !

وقل أن يستيقظ قلب لشهد القمر حين يطلع وحين يسرى وحين يغيب . . ثم لا يعبى عن القمر شيئا يمس . له به من أسرار هذا الوجود ! وإن وقفة فى نور القمر أحيانا لتفصل القلب كما لو كان يستحم بالنور !

وقل أن يستيقظ قلب لشهد الليل عند إدباره ، فى تلك الهدأة التى تسبق الشروق ، وعندما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق . . ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا للشهد وتذب فى أعماقه خطرات رفاة شفاقة .

وقل أن يستيقظ قلب لشهد الصبح عند إسفاره وظهوره ، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وفتح وانتقال شعورى من حال إلى حال ، يجعله أهد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذى يشرق فى الضمائر مع النور الذى يشرق فى النواظر .

والله الذى خلق القلب البشرى يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب فى بعض الأحيان ، وكأنها تحلقه من جديد .

وراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات مافى القمر، ومافى الليل، ومافى الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك، وينبه إليها العقول. ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة، والتنسيق الإلهي لهذا الكون، بتلك الدقة التي يحير تصورهما المقول. ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبية القائلين لأقدارها العظيمة، ودلالاتها المثيرة. يقسم على أن «سقر» أو الجنود التي عليها، أو الآخرة ومافيا، هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنفردة للبشر بما وراءهم من خطر:

«إنها لإحدى الكبر، نذيرا للبشر»...

والقسم ذاته، وعتوياته، وللقسم عليه بهذه الصورة... كلها مطارق تطرق قلوب البشر بنصف وشدة، وتنسق مع النقر في الناقور، وما يتركه من صدى في الشموخ. ومع مطلع السورة بالباء اللووظ: «يا أيها الدثر» والأمر بالانذار: «قم فأندر»... فالجو كله هر وطرق وخطر!!



وفي ظل هذه الإيقاعات للشيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها؛ وبدع للنفس أن تختار طريقها ومصيرها؛ ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها:

«لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس بما كسبت رهينة»...

فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها، يتقدم بها أو يتأخر، ويكرمها أو يهينها. فهي رهينة بما تكسب، مقيدة بما تفضل. وقد بين الله للنفس طريقه لتسلق إليه على بصيرة، وهو إعلان في مواجهة للشاهد الكونية للوحية، ومشاهد سقر التي لا تبقى ولا تذر... له وقمة وله قيمته!

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت، للقيدة بما فعلت، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقاب، وإرسالهم من القيود، وتحويلهم حق سؤال الجبرمين عما اتهم بهم إلى هذا الصير:

«إلا أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون عن المجرمين: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من اللعين، ولم نك نعلم للسكين، وكنا نخوض مع الخافضين، وكنا نكذب بيوام الدين، حتى أتانا اليقين»...

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاقهم من الرهن والقيد موكل إلى فضل الله الذى يبارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك فى هذا الموقف وعرضه يلس القلوب لمسة مؤثرة . يلس قلوب المجرمين للكذابين ، وهم يرون أنفسهم فى هذا الموقف اليمين ، الذى يترفون فيه فيطيلون الاعتراف ، بينا للؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم فى الدنيا ، ولا يبالونهم ، فى موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن للفوز فى الموقف : « ماسلككم فى سقر؟ » . . . ولس قلوب للؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون فى الأرض ، وهم يحسدون أنفسهم اليوم فى هذا المقام الكريم وأعداءهم للمستكبرين فى ذلك المقام المهين . . وقوة المشهد تلقى فى نفوس القرقيى أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون . . وتطوى صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى !

والاعتراف الطويل القصل يتناول الجرائر الكثيرة التى انتهت بالمجرمين إلى سقر ، يترفون بها هم بأنستهم فى ذلة المستكين أمام المؤمنين :
« قالوا : لم نك من المصلين » . . . وهى كناية عن الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة فى كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويبرز صاحبها عن صف المؤمنين .

« ولم نك نعلم المسكين » . . . وهذه تلى علم الإيمان ، بوصفها عبادة الله فى خلقه ، بمد عبادته . سبحانه . فى ذاته . وبدل ذكرها بهذه القوة فى مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التى كان القرآن يواجهها ، وانقطاع الإحسان للفقير فى هذه البيئة القاسية ، على الرغم من الفخر بالكرم فى مواضع المفاخرة والاختيال ، مع تركه فى مواضع الحاجة والمطغ الخالص البرى .
« وكنا نخوض مع الخافضين » . . . وهى تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان ، وأخذها مأخذ المزول واللعب والحوض بلا مبالاة ولا احتفال . وهى أعظم الجذو وأخطر الأذى فى حياة الإنسان ؟ وهى الشأن الذى ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أى شأن آخر من شؤون هذه الحياة . فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوءها يمشى فى طريق الحياة . فكيف لا يقطع فيها برأى ولا يأخذها مأخذ الجد ؟ ويخوض فيها مع الخافضين ، ويلب فيها مع اللاعبين ؟
« وكنا نكذب بيوم الدين » وهذه أس البلىا . فالذى يكذب بيوم الدين تغفل فى يده .

جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، وضيق في حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ؛ ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير ، فلا ينطمن إلى هذه العواقب ، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير .. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للأخرة ومصيره فيها .. وينتهي من ثم إلى شر مصير .

والجريمون يقولون : إننا ظللنا على هذه الأحوال . لانصلي ، ولانظمم للسكين ، ونغوض مع الحاشئين ، ونكذب يوم الدين ..

« حق أنانا اليقين » .. اللوث الذي يقطع كل شك وينهى كل ريب ، ويفصل في الأمر بلا مرد .. ولا يترك مجالاً لندم ولاتوبة ولا عمل صالح .. بهذا اليقين ..
ويقلب السياق على الموقف السيء للهين ، يقطع كل أمل في تعديل هذا المصير :
« فما تنفعهم شفاعة الشافئين » ..

فقد قضى الأمر ، وحق القول ، وقرر المصير ، الذي يليق بالجريمين للترفين ! وليس هناك من يشفع للجريمين أصلاً . وحتى على فرض مالا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافئين !

وأمام هذا الموقف للهين للثيوس منه في الآخرة ، يردم إلى موقفهم في الفرصة المتاحة لهم في الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف ؛ وهم يسدون عنها ويرضون ، بل يفرون من الهدى والحير ووسائل النجاة للعروضة عليهم فيها ، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والسجب من أمرهم القريب :

« فللم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستغفرة ، فرت من قسورة ؟ » ..

ومشهد حمر الوحش وهي مستغفرة تفر في كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه .. مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة . مضحك أشد الضحك حين يشبهه الآدميون ! حين يخافون ! فكيف إذا كانوا إنما يفرون هذا النار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر ، لأنهم خائفون مهذبون بل لأن مذكراً يذكركم برهبهم وبمصرهم ، ويهد لهم القرصة ليتقوا ذلك الموقف الزرى للهين ، وذلك للمصير المصيب الأليم ؟ !

إنها الريشة للبدعة ترسم هذا للشهد وتسجله في صلب الكون ، تملأ النفوس ، فتضجل

وتستكشف أن تكون فيه ، وروح النافرون للعرضون أنفسهم يتوارون من الحجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصور الحى النيف !

تلك هيئتهم الحارجية . « حمر مستغفرة ، فرت من قسوة » ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، وما يتلجج فيها من الشاعر :

« بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى محمداً منشرة » . .

فهو الحمد للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يختاره الله ويوحى إليه ، والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة ، وأن يؤتى محمداً تنشر على الناس وتملئ . . ولا يد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد ابن عبد الله ، فقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » . . ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحق الذي ينلى في الصدور ، والذي يكشف عنه القرآن ، وهو يملئ ذلك الشماس والنفار !

ثم يستمر في رسم صورة النفوس من داخلها ، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحمد ، ويذكر سببا آخر للإعراض والجحود . وهو بردع في نفوسهم ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقى وحى الله وفضله :

« كلا ! بل لا يخافون الآخرة » . .

وعدم خوفهم من الآخرة هو الذي ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة . ولو استثمرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن للريب !

ثم يردعهم مرة أخرى ، وهو يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة ، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير :

« كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره » . .

إنه . هذا القرآن الذي يرضون عن جماعه ، وينفرون كالجر ، وهم يضمرون في أنفسهم الحمد لحمد ، والاستمثار بالآخرة . . إنه تذكرة تنبه وتذكر . فمن شاء فليذكر . ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة ، أو من سقر ومهانة . .

وبعد أن يثبت مشيئتهم في اختيار الطريق يقبب بطلاقة للشيئة الإلهية ، وعودة الأمور إليها في النهاية . وهى الحقيقة التى يحرص القرآن على تقريرها فى كل مناسبة لتصحيح التصور الإيمانى من ناحية طلاقة للشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير ، وراء جميع الأحداث والأمور :

« وما يذكرُونَ إلا أن يَشَاءَ اللهُ ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .

فكل ما يقع فى هذا الوجود ، مشدود إلى للشيئة الكبرى ، يضى فى اتجاهها وفى داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحدهم خلقه ما يتعارض مع مشيئته ، ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله ، وهى التى أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه ، فهو يضى بكل ما فيه وكل من فيه فى إطار من تلك الشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد .

والله ذكر توفيق من الله يسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء . فإذا علم من البعد صدق النية وجهه إلى الطاعات .

والبعد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه . ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته فى التوفيق بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته المطلقة .

. والذى يريد القرآن أن يطبعه فى حس السلم هو طلاقة هذه للشيئة ، وإحاطتها بكل مشيئة ، حتى يكون التوجه إليها من البعد خالصا ، والاستسلام لها مطلقا . . فهذه هى حقيقة الإسلام القلبية التى لا يستقر فى قلب بدونها . وإذا استقرت فيه كيفته تكييفيا خاصا من داخله ، وأنشأت فيه تصورا خاصا يحكم إليه فى كل أحداث الحياة . . وهذا هو التصود ابتداء من تقرير طلاقة للشيئة الإلهية وشمولها عقب الحديث عن كل وعد بجنة أو نار ، وبهدى أو ضلال .

فأما أخذ هذا الإطلاق ، والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار ، فهو اقتطاع لجانب من تصور كلى وحقيقة مطلقة ، والتخيز بها فى درب ضيق مغلق لا يتهى إلى قول مريح . لأنها لم تنجىء فى السياق القرآنى لئلا هذا التخيز فى الدرب الضيق للتلقا

« وما يذكرُونَ إلا أن يَشَاءَ اللهُ » . . فهم لا يصادمون بمشيئتهم مشيئة الله ، ولا يتحركون فى اتجاه ، إلا بإرادة من الله ، تهدمهم على الحركة والاتجاه .

والله « هو أهل التقوى » . . يستحقها من عباده . فهم مطالبون بها . .
« وأهل المغفرة » . . يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .
والتقوى تستأهل المغفرة ، والله — سبحانه — أهل لها جميعا .

بهذه التسيجة الخافضة تحتم السورة ، وفي النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم ، أن
يشاء بالتوفيق إلى الله كر ، والتوجيه إلى التقوى ، والتفضل بالمغفرة .
« هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .

سُورَةُ الْقِيَامَةِ مِمْكَيةً وَأَيَاتُهَا ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ • وَلَا أَنفُسِ الْنَفْسِ الْوَّامَةِ • أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ لَا تَجْمَعَ عِظَامَهُ • بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ • بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ • يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ • فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ • وَخَسَفَ الْقَمَرُ • وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ • يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَعَرُ • كَلَّا لَا وَزَرَ • إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ • يُكَلِّبُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ • بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ • وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرَهُ • لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانُكَ لَتَجَعَلَ بِهِ • إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ • فَإِذَا قُرَأْنَاهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ •

« كَلَّا ! بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ • وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ • وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ • إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ • وَوُجُودَ يَوْمَئِذٍ بِآيِرَةٌ • تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ •

« كَلَّا ! إِذَا بَلَغَتِ الْقَرَّاقِ • وَقِيلَ : مَنْ رَاقِ ؟ • وَعَلَى أَنَّهُ الْفِرَاقِ • وَالْفَتَرِ السَّاقِ بِالسَّاقِ • إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ • فَلَا صَدَقَ وَلَا حَلَّ • وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى • ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى •

« أَوَلَى لَكَ قَاوِلَى • ثُمَّ أَوَلَى لَكَ قَاوِلَى • أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُنْزَلَ سُدَى ؟ • أَلَمْ يَكُ نَفْطَةً مِنْ مِثْقَلِ يَمْتِى ؟ • ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَضَلَقَ فَمَسْوَى ؟ • فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ : الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ؟ • أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْفِيَ الْمَوْتَى ؟ •

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشرى من الحقائق وللؤثرات والصور وللشاهد ، والإيقاعات والسمات ، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه .. تحشدها بقوة ، في أسلوب خاص ، يجعل لها طابعا قرآنيا مجزا ، سواء في أسلوب الأداء التصيرى ، أو أسلوب الأداء اللوسقى ، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شمورى قوى ، تصب مواجته ويصب التفلت منه أيضا !

إنها تبدأ في الآيتين الأولين منها بإيقاع عن القيامة ، وإيقاع عن النفس : « لأقسم يوم القيامة ولأقسم بالنفس اللوامة » . ثم يستطرد الحديث فيها متملقا بالنفس ومتملقا بالقيامة ، من المطلع إلى الحتام ، زواج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهى . وكأن هذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . وكأنه اللازمة الإيقاعية التى تترد إليها كل إيقاعات السورة . بطريقة دقيقة جميلة ..

من تلك الحقائق الكبيرة التى تحشدها هذه السورة في مواجهة القلب البشرى ، وتضرب بها عليه حصارا لا مهرب منه .. حقيقة الموت القاسية الرهيبة التى تواجه كل حى ، فلا يملك لها ردا ، ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعا . وهى تتكرر فى كل لحظة ، وبواجهتها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ؛ ويرتقب الجميع منها موقفا واحدا .. لاجيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل .. مما يوحى بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئا . ولا مفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا .. وهذا هو الإيقاع الذى تمس به السورة القلوب وهى تقول : « كلا إذا بلغت التراقي ، وقيل : من راق ؟ وظن أنه القراق . والتفت الساق بالساق .. إلى ربك يومئذ المساق » ..

ومن تلك الحقائق الكبيرة التى تعرضها السورة ، حقيقة النشأة الأولى ، ودلائها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى ، وعلى أن هناك تديرا فى خلق هذا الإنسان وتقديرا .. وهى حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتناوبها فى صنعة مبدعة ، لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يدميها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتمارون فيها . فهى قاطعة فى أن هناك إلها واحدا يدبر هذا الأمر ويقدره ؛ كما أنها بينة لا ترد على يسر النشأة الآخرة ، وإعلاء قوى بضرورة النشأة الآخرة . تمشيع التقدير والتدبير الذى لا يترك هذا الإنسان سدى ، ولا يدع حياته وعمله بلا وزن ولا حساب .. وهذا هو الإيقاع الذى تمس السورة به القلوب وهى تقول فى أولها : « أحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه ؟ » ثم تقول فى آخرها : « أحسب الإنسان أن يترك

سدى ؟ ألم بك نطفة من منى ينى ؟ ثم كان علقه خلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ..

ومن للشاهد للثورة التى تحشدتها السورة ، وتواجه بها القلب البشرى مواجهة قوية . . مشهد يوم القيامة ومايجرى فيمن انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة فى مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول فى صميم الكون ، وفى أغوار النفس وهى تروغ من هنا ومن هناك كالقأر فى اللصيدة ! وذلك ردا على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة فى شك واستبعاد ليومها للتيب ، واستهانة بها ولجأج فى الضجور . فيجىء الرد فى إقاعات سرية ، ومشاهد سرية ، ومضات سرية : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل : إيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ : أين للفر ؟ كلا ! لاوزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولوالقى معاذيره ! » . .

ومن هذه الشاهد مشهد للؤمنين للطمئنين إلى ربهم ، للتطمئين إلى وجهه الكريم فى ذلك الهول . ومشهد الآخرين للقطوعى الصلة بالله ، وبالرجاء فيه ، المتوقعين عاقبة ماأسلفوا من كفر ومصيبة وتكذيب . وهو مشهد يمرض فى قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن . وهو يمرض ردا على حب الناس للماجلة ، وإهمالهم للآخرة . وفى الآخرة يكون هذا الذى يكون : « كلا ! بل تحبون الماجلة ، وتندرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يغفل بها فاقرة ! » . .

وفى ثنايا السورة وحفاها تلك ومشاهدها تترض أربع آيات تحتوى توجها خاصا للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتلميا له فى شأن تلقى هذا القرآن . ويبدو أن هذا التلميح جاء بمناسبة حاضرة فى السورة ذاتها . إذ كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استدكار الوحي فقرة فقرة فى أثناء تلقيه ؛ وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاءه هذا التلميح : « لا تحرك به لسانك لتسجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » . . وجاء هذا التلميح ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده . . كل أولئك موصول إلى صاحبه . ودوره هو ، هو التلقى والبلاغ . فليطمئن

بالا ، وليتلق الوحى كاملا ، فيجده فى صدره متقوسا ثابتا . . وهكذا كان . . فأما هذا التعليم فقد ثبت فى موضعه حيث نزل . . أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض كان ؟ ولأى أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته ثبتت فى صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب . . ودلالة إثبات هذه الآيات فى موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موجبة على حقيقة لطيفة فى شأن كل كلمات الله فى أى اتجاه . . وفى شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التى أوحى بها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يُخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرر والوقار !



وهكذا يشعر القلب - وهو يواجه هذه السورة - أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لاملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته يعلم الله وتديره . فى النشأة الأولى وفى النشأة الآخرة سواء . بينا هو يلهو ويلب ويلعب ويتفر ويتبطر : « فلا صدق ولا صلي . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى » . .

وفى مواجهة تلك الحشود من الحقائق وللؤثرات والسمات والإيهامات يسمع التهديد للقفوف :
« أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فيكون له وقعه ومناه !

وهكذا تاملج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولجوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم فى هذا الشأن . شأن القيامة . وشأن النفس . وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذى لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذى تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت فى سجل الكون الثابت . وفى صلب هذا الكتاب الكريم .



وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لجرد البيان . وهى فى نسق السورة شئ آخر . إذ أن تناسلها فى السياق ، وللزوجة بينها هنا وهناك ، ولسمة القلب بجانب من الحقيقة مرة ، ثم العودة إليه بالجانب الآخر بمدققة . . كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآنى فى مخاطبة القلب البشرى ؛ بما لا يبلغ إليه أسلوب آخر ، ولا طريقة أخرى . .
فلنأخذ فى مواجهة السورة كما هى فى سياقها القرآنى الخاص :



« لا أقسم يوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟
بلى قادرين على أن نسوي بنانه ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، يسأل : أيان يوم القيامة ؟ فإذا
برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر .. يقول الإنسان يومئذ : أين للفر ؟ كلا
لاوزر . إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الإنسان على نفسه
بصيرة ، ولو ألقى مآذيره .. »

هذا التلويح بالقسم مع المدلول عنه أوقع في الحس من القسم للبشر ؛ وهذا الوقع هو المتعود
من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذي يتكرر في مواضع مختلفة من
القرآن .. ثم تبرز من وراءه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة .

وحقيقة القيامة سبغت عنها الكثير في مواضع في السورة . فأما النفس اللوامة ففي التفسيرات
للمأثورة أقوال متنوعة عنها . . فمن الحسن البصري : إن اللؤم من الله ما رآه إلا يوم نفسه :
ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يحضى قدما ما يباب
نفسه . . وعن الحسن : ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يوم نفسه يوم القيامة . .
وعن عكرمة : تلوم على الخير والشر : لو قلت كذا وكذا ! كذلك عن سيد ابن جبير . .
وعن ابن عباس : هي النفس اللؤومة . وعنه أيضا : اللوامة للذمومة . وعن مجاهد : تندم على مافات
وتلوم عليه . . وعن قتادة : الفاجرة . . وقال جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه
بظاهر النزول أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على مافات .

ونحن نختار في معنى « النفس اللوامة » قول الحسن البصري : « إن اللؤم من الله ما رآه
إلا يوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يحضى
قدما ما يباب نفسه » . .

فهذه النفس اللوامة التيقة الخافضة للتوجهة التي تحاسب نفسها ، وتلفت حولها ،
وتبين حقيقة هواها ، وتخدر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها مع
القيامة . ثم هي الصورة القابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان التي يريد أن يفجر ويحضى
قدما في الفجور ، والذي يكذب ويتولى وينهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون
تلوم ولا تخرج ولا مبالاة !

« لا أقسم يوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » . . على وقوع هذه القيامة ، ولكنه

لما عدل عن القسم ، عدل عن ذكر القسم به ، وجاء به في صورة أخرى كأنها ابتداء لحديث
بمد التنبيه إليه بهذا للطلع للوقت :

« أيعجب الإنسان أن لن نجعل عظامه ؟ بل قادرين على أن نسوي بنانه » . .
وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام ألبالية ،
الذهابة في التراب ، للتفرقة في الثرى ، لإعادة بث الإنسان حيا ! ولعلها لا تزال كذلك في بعض
النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحسبان بدم جمع العظام مؤكدا وقوعه :
« بلى قادرين على أن نسوي بنانه » . . والبنان أطراف الأصابع ؛ والنس يؤكده عملية جمع
العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان أو هي
كناية عن إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه ، وإكثاله بحيث لا تضيع منه بنان ، ولا تختل عن
مكانها ، بل تسوي تسوية ، لا ينقص معها عضو ولا شكل هذا العضو ، مهما صغر ودق !
ويكتفى هنا بهذا التقرير للمؤكد ، وسيجيء في نهاية السورة دليل آخر من واقع النشأة
الأولى . إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية في هذا الحسبان ، وتوقع عدم جمع
العظام . . إن هذا الإنسان يريد أن يفجر ، ويعقى قنما في الفجور ، ولا يريد أن يصد
شيء عن فجوره ، ولأن يكون هناك حساب عليه وعقاب . ومن ثم فهو يستبعد وقوع البث ،
ويستبعد مجيء يوم القيامة :

« بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ؟ » . .
والسؤال بآيان - هذا اللفظ المديد الجرس - يوحي باستبعاده لهذا اليوم . وذلك تمشيا
مع رغبته في أن يفجر ويمضى في فجوره ، لا يصد شبح البث وشبح الآخرة . . والآخرة
لجام للنفس الراغبة في الشر ، ومصد للقلب المحب للفجور . فهو يحاول إزالة هذا المصد ،
وإزالة هذا اللجام ، لينطلق في الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب .
ومن ثم كان الجواب على التهم يوم القيامة واستبعاد مواعدها ، سرما خاطفا حاسما ،
ليس فيه ريث ولا إبطاء حتى في إيقاع النظم ، وجرس الألفاظ . وكان مشهدا من مشاهد
القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية ، والمشاهد الكونية :
« فإذا برق البصر . وخنق القمر ، وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين
المقر ؟ » . .

فالبصر يخطف ويتقلب سريما سريما قلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره والشمس تفتن بالقمر بد اقتراق . ويختل نظامهما الفلكي المهود ، حيث يفترط ذلك النظام الكوني الحقيقي .. وفي وسط هذا الدعر والاضلال ، يتسائل الإنسان المرعوب : « أين المفر ؟ » ويبدو في سؤاله الارتباك والفرع ، وكأنما ينظر في كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه ، مأخوذ عليه !

ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذنه ، والرجة إليه ، وللتقرب عنده ؟ ولا مستقر غيره :

« كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ اللستقر » ..

وما كان يرغب فيه الإنسان من اللضى في العجور بلا حساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوبا ، وسيذكر به إن كان نسيه ، ويؤخذ به بمد أن يذكره ويراه حاضرا :

« ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » ..

بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراه من آثار هذا العمل خيرا كان أم شرا . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثارا تضاف لصاحبها في ختام الحساب ! ومهما اعتذر الإنسان بشق المآذير عما وقع منه ، فلن يقبل منها عذر ، لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها . فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها :

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ..

وبما يلاحظ أن كل شيء سريع قصير : الفقر . والقواصل . والإيقاع اللوسقي . والشاهد الحافظة . وكذلك عملية الحساب : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » هكذا في سرعة وإجمال . . ذلك أنه رد على استعطالة الأمد ، والاستخفاف بيوم الحساب !

ثم تسمى الآيات الأربعة الخاصة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في شأن الوحي وتلقى هذا القرآن :

« لا تحرك به لسانك لتسجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا يأنه » ..

وبالإضافة إلى ماقلناه في مقدمة السورة عن هذه الآيات، فإن الإيحاء الذي تركه في النفس هو تكفل الله للطلق بشأن هذا القرآن : وحيا وحفظا وحما وبيانا ؛ وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته . ليس للرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمره إلا حمله وتبليغه . ثم لطف الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى إليه ؛ وأخذه مأخذا جديا الخالص، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعو إلى متابعة جبريل عليه السلام في التلاوة آية آية وكلمة كلمة يستوفى منها أن شيئا لم يفته ، ويثبت من حفظه له فيما بعد ! وتسجيل هذا الحادث في القرآن للتأوله قيمته في تعميق هذه الإيحاءات التي ذكرناها هنا وفي مقدمة السورة بهذا الخصوص .



ثم مضى سياق السورة في عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة ، فيذكرهم بحقيقة نفوسهم وما يتلج فيها من حب للدنيا والشغال ، ومن إهمال للأخرة وقلة احتفال ؛ ويواجههم بموقفهم في الآخرة بعد هذا وما ينتهي إليه حالهم فيها . ويعرض لهم هذا الموقف في مشهد حى قوى الإيحاء عميق الإيقاع :

« كلا . بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ؛ وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن فعل بها فاقرة » . .

وأول ما يلحظ من ناحية التناسق في السياق هو تسمية الدنيا بالعاجلة في هذا الموضع . فضلا عن إيحاء اللفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها وهو الإيحاء المقصود - فإن هناك تناسقا بين ظل اللفظ وظل الموقف السابق للمترض في السياق ، وقول الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - « لا تحرك به لسانك لتعجل به » . . فهذا التحريك وهذه العجلة هي أحد ظلال السمة البشرية في الحياة الدنيا . . وهو تناسق في الحس لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآني في الطريق !

ثم نخلص إلى الموقف الذي يرميه هذا النص القرآني الفريد :

« وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » . .

إن هذا النص يشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها ؛ كما يسجن الإدراك عن تصورهما بكل حقيقتها . ذلك حين يمد للوعودين السعداء بمحالة من السعادة لاتشبهها حالة . حتى تتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم !

هذه الوجوه الناضرة .. نضرها أنها إلى ربها ناظرة ..

إلى ربها .. ؟ فأى مستوى من الرفعة هذا ؟ أى مستوى من السعادة ؟

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلحمة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس ،
تراها في الليلة القمرء . أو الليل الساجي . أو الفجر الوليد . أو الظل للديد . أو البحر العباب .
أو الصحراء المناسبة . أو الروض البهج . أو الطلعة البية . أو القلب النبيل . أو الإيمان
الواثق . أو الصبر الجليل .. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود .. فتضمرها النشوة ،
وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة . وتتوارى عنها أشواك الحياة ،
وما فيها من ألم وقبح ، وهمة طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء ..

فكيف ؟ كيف بها وهي تنظر - لا إلى جمال صنع الله - ولكن إلى جمال ذات الله ؟

ألا إنه مقام يحتاج أولا إلى مد من الله . ويحتاج ثانيا إلى تثبيت من الله . ليعلمك الإنسان
نفسه ، فيثبت ، ويستمتع بالسعادة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يتصور حقيقتها إدراكا !
« وجوه يومئذ ناضرة .. إلى ربها ناظرة » ..

وما لها لا تنظر ؟ وهي إلى جمال ربها تنظر ؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض . من طلعة بهية ، أو زهرة ندية ،
أو جناح رفاف ، أو روح نبيل ، أو قمل جميل . فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملاحه ، فيبدو
فيها الوضوء والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال . مطلقا من كل ما في الوجود
من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك اللقاه ، إلا وقد خلصت
من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك للرتقى الذي يمزج على الخيال كل شائبة لا فيها حولها قط ،
ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ماسوي النظر إلى الله ..

فأما كيف تنظر ؟ وبأى جارية تنظر ؟ وبأى وسيلة تنظر ؟ .. فذلك حديث لا يخطر
على قلب يحسه طائف من القرح الذي يطلقه النص القرآني ، في القلب للؤمن ، والسعادة التي
يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والإنطلاق !

فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تمانق هذا النور الفائق بالقبح والسعادة؟ ويشغلونها
بالجلد حول مطلق ، لا تدركه القول للقيدة بألوفات العقل ومقرواته ؟ !

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو قطع عظم الرجاء في ثقافتها بالحقيقة المطلقة يومذاك . وقبل هذا الانطلاق ميمز عليها أن تصور — مجرد تصور — كيف يكون ذلك الغناء .

وإذن قد كان جدلاً ضالماً ذلك الجدل الطويل للديد الذى شغل به للمزلة أنفسهم ومعارضهم من أهل السنة والتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك اللقائم . لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ؟ ويتحدثون عن الإنسان للثقل بمقررات العقل في الأرض ؟ ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال .

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة . فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تغير طبيعة الكلمات . قال الكلمات ليست سوى رموز يختلف ما رمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان . فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات ، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات . ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا ؛ فلنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات ؟ ! فلنتطلع إلى فيض السعادة القاهر الهادئ ، وفيض الفرح للقدس الطهور ، الذى ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الوقف على قدر ما نملك . ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض ؟ فهذا التطلع ذاته نعمة . لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم . .

« وجوه يومئذ بأسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » ..

وهى الوجوه الكالحة للتفضة التيمسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماسا . وهى التى يشغلها ويحزننها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعا أن تحمل بها الكرامة القاصمة للظهر ، المحطمة للفقار . . الفاقرة . وهى من التوقع والتوجس في كرب وكلوحة وتقبض وتنقيص . .

فهذه هى الآخرة التى يذرونها ويهملونها ؟ ويتجهون إلى الساجدة يحجونها ويحفلونها . ووراءهم هذا اليوم الذى تختلف فيه المصائر والجلود ، هذا الاختلاف الشاسع البعيد ! ! ! من وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ بأسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! ! !

وإذا كانت مشاهد القيامة . . إذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، وقال الإنسان يومئذ أين للقر . ولا مفر . وإذا اختلقت للماثر والجودود ، ذلك الاختلاف الشاسع البعيد ، فكانت وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ..

إذا كانت تلك للشاهد تستمد قوتها وإقناعها في النفس ، من قوة الحقيقة الكامنة فيها ، وقوة الأداء القرآني الذي يشخصها ويحييها ، فإن السورة بعد عرض تلك للشاهد تقرب وتقرب حتى تنس حس المحابطين بمشهد آخر حاضِر واقع مكرور ، لا تمر لحظة حتى يواجههم في هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل !

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي . الموت الذي يفرق الأحبة ، ويعضى في طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راعب ولا لحوف خائف ! الموت الذي يصير الجارية بنفس السهولة التي يصير بها الأقزام ، ويهجر بها المتسلطين كما يهجر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجبره :

« كلا ! إذا بلغت التراقي ، وقيل : من راقٍ ؟ وظن أنه التراقي ، والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ الساق » . .

إنه مشهد الاحتضار ، يواجههم به النص القرآني كأنه حاضِر ، وكأنه يخرج من ثنایا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة !

« كلا إذا بلغت التراقي » . . حين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير ، وتكون السكرات المذهبة ، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار . . وتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب : « وقيل : من راقٍ ؟ » لعل رقيقة تميد . . . وتوهم المكروب من السكرات والنزع . . « والتفت الساق بالساق » . . وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذي يساق إليه كل حي في نهاية المطاف : « إلى ربك يومئذ المساق » . .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق . وكل آية ترسم حركة . وكل قورة تخرج لحة . وحالة الاحتضار ترسم ويرسم معها الجسزج والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية للريرة ، التي

لا دافع لها ولا راد . . ثم تظهر النهاية التي لا مفر منها . . « إلى ربك يومئذ
للساق » . .

ويسدل الستار على المشهد الفاجع ، وفي العين منه صورة ، وفي الحس منه أثر ، وعلى الجو
كله وجوم صامت مرهوب .

وفي مواجهة المشهد المكروب لللهوف الجاد الواقع يمرض مشهد اللاهين المكذبين ، الذين
لا يستمدون بعمل ولا طاعة ، بل يقدمون المصيبة والتولى ، في عبث ولهمو ، وفي اختيال
بالمصيبة والتولى :

« فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى » ١ . .
وقد ورد أن هذه الآيات تفي شخصاً معيناً بالذات ، قيل هو أبو جهل « عمرو ابن هشام » . .
وكان يهيم أحياناً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسمع منه القرآن . ثم يذهب عنه ،
فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقول ،
ويسد عن سبيل الله . . ثم يذهب مختالاً بما فعل ، غفورا بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل
شيئاً يذكرو . .

والتعبير القرآني يهكم به ، ويسخر منه ، ويشير السخرية كذلك ، وهو يصور حركة اختياله
بأنه « يتمطى » ١ يطم في ظهره ويتعجب تعجباً ثقيلاً كرهها ١
وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوة إلى الله . . يسمع ويعرض ، ويتغنى في الصد عن سبيل
الله ، والأذى للذلة ، ويمكر مكر السيء ، ويتولى وهو غفور بما أوقع من الشر والسوء ،
وبما أفسد في الأرض ، وبما صد عن سبيل الله ، وبما مكر لديه وعقيدته وكاد ١
والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد :

« أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . .

وهو تمييز اصطلاحى يتضمن التهديد والوعيد ، وقد أمسك رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - بخناق أبي جهل مرة ، وهزه ، وهو يقول له : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك
فأولى » . . فقال عدو الله : أتوعدنى يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً . وإنى لأعز
من منى بين جبلها ١ ١ فأخذ الله يوم بدر يدي المؤمنين بحمد - صلى الله عليه
وسلم - ورب محمد القوى القهار للتكبر . ومن قبله قال فرعون لقومه : « ما علمت لكم

من إله غيري » .. وقال : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ .. ثم آخذني الله كذالك .

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوات بمنزلة بشيرته وبقوته وبعظمته ؛ وعصيا شينا ؟ وينسى الله وأخذه . حتى يأخذه أهون من بموضة ، وأقرب من ذبابة .. إنما هو الأجل للوعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر .

وفي النهاية يمس القلوب بحقيقة أخرى واقعية في حياتهم . لها دلالتها على تدبير الله وتحذيره لحياة الإنسان . ولها دلالتها كذلك على النشأة الآخرة التي ينكرونها أهد الإنسان . ولا نفر من واجبتها ، ولا حيلة في دفع دلالتها :

« أيعجب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني عني ؟ ثم كان علقة فخلق نسوي ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ..

وهذا للمقطع الأخير العميق الإقناع ، يشتمل على لفتات عميقة إلى حقائق كبيرة . ما كان مخاطبون بهذا القرآن يخطرونها على بالهم في ذلك الزمان . وأولى هذه اللفتات تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير في حياة الإنسان :

« أيعجب الإنسان أن يترك سدى » ..

فلقد كانت الحياة في نظر التوم حركة لاعلة لها ولاهدف ولاغاية .. أرحام تدفع وقبور تبلغ .. وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان .. فأما أن يكون هناك ناموس ، وراء هدف ، ووراء الهدف حكمة ؟ وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدره ، وأن ينتهي إلى حساب وجزاء ، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء .. أما هذا التصور الدقيق المتناسق ، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، فعمل كل شيء بقدر ، ونتهي كل شيء إلى نهاية .. أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم . في ذلك الزمان .

والذي يميز الإنسان عن الحيوان ، هو شعوره بإتصال الزمان والأحداث والغايات . وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني ، ومن الوجود كله من حوله . وإرشاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود التاموس ، وإرتباط الأحداث والأشياء

بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة ، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل . ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه . ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثا ولا تتركهم سدى .

وهذا هو التصور الكبير الذى نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد ، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك ، وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التى عرقتها الفلسفة قديما وحديثا ^(١) .

وهذه اللمسة : « أحسب الإنسان أن يترك سدى » .. هى إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشرى ، التى تلفت وتستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب ، التى تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة للوجود كله .

وفى غير تمقيد ولا غموض يأتى بالدلائل الواضحة البسيطة التى تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى . . إنها دلائل نشأتها الأولى :

« ألم يك نطفة من مئى مئى ؟ ثم كان علقه خلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟ » .

لما هذا الإنسان ؟ مم خلق ؟ وكيف كان ؟ وكيف صار ؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ؟

ألم يك نطفة صغيرة من الماء ، من مئى مئى وبراقي ؟ ألم تتحول هذه النطفة من خلية واحدة صغيرة إلى علقه ذات وضع خاص فى الرحم ، تعلق بجداره لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فمن ذا الذى ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذى أودعها هذه القدرة ؟ ومن ذا الذى وجهها هذا الاتجاه ؟

ثم من ذا الذى خلقها بعد ذلك جنينا متدلا منسق الأعضاء ؟ مؤلفا جسمه من ملايين الخلايا من الخلايا الحية ، وهو فى الأصل خلية واحدة مع بويضة ؟ والرحلة للديدة التى قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوى . وهى أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته . والتغيرات التى تحدث فى كيانها فى الرحلة الجنينية أكثر وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث فى رحلته من مولده إلى مماته ! فمن ذا الذى قاد هذه الرحلة للديدة ، وهو خليفة صغيرة ضعيفة ، لا تغفل لها ولا مدارك ولا تجارب ؟

(١) كتاب : فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث أوجو التوفيق لإخراجه)

ثم في النهاية . من ذا الذي جعل من الخلية الواحدة .. الذكر والأنثى ؟ . . أى إرادة كانت لهذه الخلية في أن تكون ذكرا ؟ وأي إرادة لتلك في أن تكون أنثى ؟ أم من ذا الذي يزعم أنه تدخل فعاد خطواتهما في ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار ؟

إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة للدبرة التي قادت النطفة للراقة في طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير . . « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » . .
وأمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضا على الحس البشرى ، يحىء الإيقاع الشامل لمحنة من الحقائق التي تعالجها السورة :

« أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ » . .

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيى الموتى !

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على النشأة الأخرى !

بلى ! سبحانه ! وما يملك الإنسان إلا أن يفتش أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضا .

وهكذا تنتهى السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم ، القوى العميق ، الذى يعلا الحس ويفيض ، بحقيقة الوجود الإنسانى وما وراءها من تدبير وتقدير . .

سُورَةُ الْاِنْسَانِ مَكِّيَّةٌ وَاَيَاتُهَا ٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكَورًا ؟ * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا .

« إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا * إِنَّا الْأَبْرَارَ يُشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّامِعَ عَلَى حُبِّهِ يَمْسِكُنَا وَمَتْنًا وَاسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا يُدُّ مِنْكُمْ جَزَاءٌ وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا جَبُوتًا قَمَطِيرًا .

« فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُشْكَبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا تَحْمَسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَعْقُفُهَا تَذَلُّلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِنْ فَضِيَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَذَانِ الْمُخَلَّدُونَ ، إِذَا رَأَوْهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ نِعْمًا وَمِثْلًا كَافِيًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ

سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَامُ رَبِّهِمْ شَرَّابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا .

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعِ مِنْهُمْ آيَاتًا أَوْ كُفُورًا * وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا .

« إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْمَآجِلَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْنَهُمْ تَبَدِيلًا .

« إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاوُرْنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ، وَالْأَفْئَالِ الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » .

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية . ولكنها مكية ؟ ومكيها ظاهرة جدا ، في موضوعها وفي سياقها ، وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائمة بمكيها . بل نحن نلح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن للكي . . تنى بهذا صور النجم الحسية للفصلة الطويلة ، وصور العذاب القليظ ، كما يشىء به توجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ؟ مما كان يتزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة ، مع إسهال للتركيب وتثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الحق الذى نزل عليه ، وعدم الليل إلى ما يدعون به . . كما جاء في سورة القلم ، وفي سورة المزمل ، وفي سورة الدثر ، مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة . . واحتمال أن هذه السورة مدنية - في نظرنا - هو احتمال ضعيف جدا ، يمكن عدم اعتباره !

والسورة في مجموعها هتاف رضى ندى إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وإبغاء رضاء ،

سوتذكر نعمته ، والإحساس بفضل ، واعطاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته في الخلق والإيمان والابتلاء والإملاء . .

وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري : أين كان قبل أن يكون ؟ من الذي أوجده ؟ ومن الذي جعله شيئا مذكورا في هذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ » . .

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله في خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » . .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » . .

وبعد هذه اللسات الثلاثة للوحي ، وما تثيره في القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء ، ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هذه اللسات الثلاثة تأخذ السورة في الملتفات للإنسان وهو على مفترق الطريق لتحذيره من طريق النار . وترغيه في طريق الجنة ، بكل صور الترغيب ، وبكل هوائف الراحة والتنازع والتميم والتكريم : « إنا أمتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . إن الأبرار يشرون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله فجرونها كصجيرا » . .

وقبل أن تمضي في عرض صور اللذات ترسم سمات هؤلاء الأبرار في عبارات كلها انمطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك التميم الهانيء الرغيد : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام - على حبه - مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » . .

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالمزائم والتكاليف ، الخاضعين من اليوم لبوس القمطرير ، الحزين للطعمين على حاجتهم إلى الطعام ، يتخون وجه الله وحده ، لا يريدن شكورا من أحد ، إنما يتقون اليوم لبوس القمطرير !

تعرض جزاء هؤلاء الخاضعين الوجيلين للطعمين للؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والتميم اللين الرغيد : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا ظهيرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت

قطوفها تذليلًا . وبطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديرًا . ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زيجيلًا ، عينا فيها تسمى سلسيلًا . وبطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا . وإذا رأيت ثم رأيت نيبا وملكا كبيرا . عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا .

إذا انتهى معرض النعم اللين الرغيد للطمئن الهناء الودود ، أتجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتثبيته على الدعوة - في وجه الإعراض والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ؛ والاتصال بربه والاعتماد منه كما طال الطريق : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلًا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ..

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابا ؛ والذي يخافه الأبرار ويشقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله ، الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ؛ لولا فضله عليهم بالقاء ، تخفى مشيئة الابتلاء . ويوضح لهم في الحتام بمابقة هذا الابتلاء : « إن هؤلاء يحبون العاجلة وينفون وراءهم يوما تظيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا عتينا بدلنا أثمالم تبديلا . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما نشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليا حكيمًا . يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » .

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتحريره في هذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتتمم بيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحى بذلك البدء وهذا الحتام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير ، لا ينبغي منه أن يمحى الإنسان في استهتاره . غير واعي ولا مدرك ، وهو مخلوق ليتلى ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين للطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة من صور النعيم ، وهو نعيم حسي في جملة ، وممه القبول والتكريم ، وهو يتفصيله هذا وحسبته يوحى بكميته ، حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية ، عديدي التعلق

يحتاج الحواس ، يهرم هذا اللون ويجهم ، ويشير تطعيم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من اللتاع يشير تطلع صنف من الناس ، ويصلح جزاء لهم يرضى أعمق رغباتهم . والله أعلم بخلقهم ما يصلح لهم وما يصلح قلوبهم ، وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ما هو أسمى منه وأرق كالذي جاء في سورة القيامة : « ونجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .. والله أعلم بما يصلح للباد في كل حال .

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه ميمًا بصيرًا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » ..

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير ؛ ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتأملها ؟ ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئا من الشعور باليد التي دفنته إلى مسرح الحياة ، وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ؟ إنها إلهامات كثيرة تبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا اللقار . وهي إلهامات رفيعة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى :

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان . كيف تراه كان ؟ . والإنسان مخلوق مفرور في نفسه وفي قيمته ، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمى « الإنسان » .. حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني . وتضرب في تصورات شتى لهذه اللحظة التي لم يكن عليها إلا الله ؛ والتي أضافت إلى الكون هذه الخليفة الجديدة ، القدر أمرها في حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدر وهي تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ؟ وتعدده لدوره ، وتمد له دوره ؛ وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ؛ وتهيء له

الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ؛ وتتابه بعد ذلك في كل خطوة ،
ومعها الحيط الذي تشده به إليها مع سائر خطوط هذا الكون الكبير ا
ولإمحاءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص في الضمير . . . ينتهي منها القلب إلى
الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، في للنشأ وفي الرحلة وفي المسير .
فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى :

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبثله فجعلناه ممبعا بصيرا » . .
والأمشاج : الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر
وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثة الكامنة في النطفة ،
والتي يثلثها مايسمونه علميا « الجينات » وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة للجنس
الإنسان أولا وللصفات الجينية الماثلة أخيرا . وإليها يميز سير النطفة الإنسانية في رحلتها
لتكوين جنين إنسان ، لاجنين أى حيوان آخر . كما تميز إليها وراثة الصفات الخاصة في
الأسرة . . . ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى . .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج ، لاعتبا ولا جزافا ولا تسلي ، ولكنه خلق ليبتلى
ويجتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ماهو ؟ ومااختباره ؟ وماعمره اختباره ؟ ولكن المراد أن
يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن ترتب عليه آثاره للقدرة في كيان الوجود ، وأن تبعه
آثاره للقدرة . ويميز وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله ممبعا بصيرا . أى زوده بوسائل الإدراك ، ليستطيع التلقى والاستجابة . وليدرك
الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويحتار الابتلاء وفق ما يختار . .

وإذن فإن إرادة الله في امتداد هذا الجنس وتكرار أفراده بالوسيلة التي قدرها ، وهي
خلقته من نطفة أمشاج . . كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة . . كان
وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستمداد للتلقى والاستجابة ، وللعرفة
والاختيار . . وكان كل شيء في خلقه وترويده بالمدارك وابتلائه في الحياة . . بمقدار ا

ثم زوده إلى جانب المعرفة ، بالقدرة على اختيار الطريق ، وبين له الطريق الواصل . ثم
تركه ليختاره ، أو ليضل ويضد فيها وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله :

« إنا هدينا السيل : إما غافرا وإما كفورا » . .

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب الملتئذ ، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، فأراد ربه له أن يكون شيئاً مذكوراً . ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقوة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار .. الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب للؤمن في هذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الكفور . بهذه الصيغة للوغة في الدلالة على الكفران .

ويشعر الإنسان بمجديّة الأمر ودقته بعد هذه اللغات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وأنه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة لحاسب عليها . وأنه هنا ليتلى ويختار الابتلاء . فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لافي فترة لب ولهو وإيهال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار . بذلك الرصيد من التأملات الرفيعة العميقة ، كما يخرج منها مقل الظاهر بالنبعة والجد والوقار في تصور هذه الحياة ، وفي الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظراته إلى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .



ومن ثم يأخذ في عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر أو طريق الكفران .

فأما ما ينتظر الكافرين ، فيجمله إجمالاً ، لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر في الصورة والإيقاع . وظل الاحتاف للفرى بالنعيم للريح . فأما المذاب فيشير إليه في إجمال :
« إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » . .

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، ونارا تنسمر يلقى فيها بالمسلسلين للنوليين ا
ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم :
« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله فجربوها
نضجيراً » . .

وهذه العبارة تعيد أن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه في كأس تتعرف من عين نضج لهم نضجيراً ، في كثرة ووفرة . . وقد كان المرب ممزوجون كؤوس الخمر بالكافور حيناً وبالزنجبيل حيناً زيادة في التلذذ بها ، فهام أولاء يملكون أن في الجنة شراباً

طهورا بمزجها بالكافور ، على وفر وسمه . فأما مستوى هذا الشراب فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا ، وأن لذة الشعور به تتضاعف وترق ، ونحن لاعتلاك في هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعا للذة للتعاطع هناك . فهي أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم في الآية الأولى « الأبرار » ويسمهم في الآية الثانية « عباد الله » . . .
إيناسا وتكريرا وإعلانا للفضل تارة ، وللقرب من الله تارة ، في معرض التيمم والتكريم .
ثم يصرّف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا اللذات :

« يوفون بالندى ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطمعون الطعام على حبه — مسكينا ويتيا وأسيرا . إنا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبودا وقطورا » . . .

وهي صورة وضيئة شفافة لقلوب غلصة جادة عازمة على الوفاء لله بكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضعاف ، وإيثار على النفس ، وتخرج وخشية لله ، ورجبة في رضاه ، وإشفاق من عذابه بتمه التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل .

« يوفون بالندى » يفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما ألزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جدا خالصا لا يحاولون التفلت من تبعاته ، ولا التقصي من أعبائه ، ولا التخلي عنه بصد اعتزاه . وهذا معنى أنهم يوفون بالندى . فهو أعم من المعنى العرفي للتبادر من كلمة « الندى » .

« ويخافون يوما كان شره مستطيرا » . . . فهم يدركون صفة هذا اليوم ، الذي يفتش شره ويصيب الكافرين من للتصيرين والسيئين . فيخافون أن ينالهم شيء من شره . وهذه صفة الأنبياء ، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف ، الخائفين من التقصير والقصور ، مهما قدموا من القرب والطاعات .

« ويطمعون الطعام — على حبه — مسكينا ويتيا وأسيرا » . . .

وهي تصور شعور البر والطف والخير مثلا في إطعام الطعام ، مع حبه بسبب الحاجة إليه . فمثل هذه القلوب لا يقال عنها : إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف للحوارج على اختلاف أنواعهم ، إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام ، ولكنها تؤثر به للحوارج .

وهذه اللغة تشي بقسوة البيئة في مكة بين الشركين ؟ وإنما كانت لانفضى بشيء للمحايير الضمايف ؟ وإن كانت تبدل في مجالات للفاخرة الشيء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطمعون الطعام بأريحية نفس ، ورحمة قلب ، وخلص نية . واتجاه إلى الله بالعمل ، يحكيه السياق من حالهم ، ومن منطوق قلوبهم .

« إنما نطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطريرا » .

فهي الرحمة الفائقة من القلوب الرقيقة الرفيعة ، تتجه إلى الله تطلب رضا . ولا تبتغي بها جزاء من الخلق ولا شكرا ، ولا تصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تنقي بها يوما عبوسا شديد البؤس ؛ تنوقه وتحشاه ، وتتقيه بهذا الوفاء . وقد دلهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عليه وهو يقول : « اتق النار ولو بشق تمر » . .

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة ، ووسيلة الإشباع لحاجات المحايير . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تغير بحسب البيئات والظروف ، فلا تظل في هذه الصورة البدائية المباشرة . إلا أن الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب ، وحيوية العاطفة ، والرغبة في الخير ابتغاء وجه الله ، والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو شئ من منافع الحياة !

ولقد تنظم الضرائب ، وتعرض التكاليف ، وتخصص للضمان الاجتماعي ، ولإسفاف المحايير ، ولكن هذا إنما يفي بشرط واحد من مزايا الاتجاه الإسلامي الذي ترمز إليه تلك الآيات ، والذي توخاه بفريضة الزكاة . . هذا الشطر هو كفاية حاجة للمحتاجين . . هذا شطر . . والشطر الآخر هو تهذيب أرواح الباذلين ، ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شطر لا يجوز إغفاله ولا التهرب من شأنه فضلا على أن تتقلب المعايير فيوصم ويقبح ويشوه ، ويقال : إنه إذلال للاخذين وإفساد للواهبين .

إن الإسلام عقيدة قلوب ، ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتفي بشرطى التربية التي يقصد إليها هذا الدين .

ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لتلك الشعور الكريم .

« فواقم الله شر ذلك اليوم ولقام نصرته وسرورا » . .

يملأ السباق بذكر وقائهم من شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه ، ليطمئنتهم في الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نصرة وسرورا ، لا يوما عبوسا قططرا . جزاء وفاقا على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونصرة مشاعرهم .

ثم يخفى بعد ذلك في وصف منافع الجنة التي وجدوها :

« وجزامم بما صبروا جنة وحريرا » . . جنة يسكنونها وحريرا يلبيسونه .

« متسكنين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا » . . فهم في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ في غير حر ، ندى في غير برد . فلاشمس تلهب الأنفاس ، ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن هول : إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شمس أخرى من نظائرها . . وكفى !

« ودانية عليهم ظلالها . وذلت قطوفها تذليلا » . . وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يجتد إليه الخيال !

فهذه هي الهيئة العامة لهذه الجنة التي جزي الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة للرخصة اللطيفة الوضيئة في الدنيا . . ثم تأتي تخصيصات للأنعام والخدمات . . « وبطواف عليهم آنية من فضة ، وأكواب كانت قوارير . قوارير من فضة قدروها تحديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسيلا » . .

فهم في متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجوارائق .. يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة ، وفي أكواب من فضة كذلك ، ولكنها خفة كالقوارير ، كما لم تهده الأرض في آنية الفضة . وهي بأحجام مقدرة تحديرا يحقق للتذوق والجمال . ثم هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور . وهي كذلك عملا من عين جارية تسمى سلسيلا ، لشدة عدوتها واستساغتها لدى الشاربين !

وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم مخلصان صباح الوجوه ، لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تدرهم السن ؛ فهم مخلصون في سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا وهناك كالقؤل للثور :

« وبطواف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا » . .

(١٥٠ - في ظلال القرآن [٢٩])

ثم يجعل السياق خطوط النظر ، ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر :
« وإذا رأيت - ثم - رأيت نعيًا وملكا كبيرا » . .

نعيًا وملكا كبيرا . هو الذي يعيش فيه الأبرار للقربون عباد الله هؤلاء . على وجه
الإجمال والمعموم !

ثم يخص مظهرًا من مظاهر النعيم ولللك الكبير ؛ كأنه تحليل لهذا الوصف وتفسير :
« عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق » ، وحلوا أساور من فضة وسقام ربهم شربًا
طهورا » . .

والسندس الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك اللبطن . . وهم في هذه الزينة
وهذا اللتاع ، يتلقون كله « من ربهم » فهو عطاء كريم من مط كريم . وهذه تضاف إلى
قيمة ذلك النعيم !

ثم يتلقون عليه الود والتكريم :

« إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » . .

يتلقون هذا النطق من اللام الألى . وهو يعدل هذه اللناهم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى
فوق قيمتها . .

وهكذا ينتهي ذلك المرض الفصل والمتاف للوحى للقلوب ، المتاف إلى ذلك النعيم الطيب
والقرار من السلاسل والأغلال والسعير . . وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق
مؤد إلى السعير !



وبعد انتهاء هذا المتاف إلى الجنة ونعيمها الحق الرغد ، يمالج حالة اللشركين اللصرين
على العناد والتكذيب ، اللذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيسامون عليها الرسول - صلى الله
عليه وسلم - لعله يكف عنها ، أو عما يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبى - صلى الله عليه وسلم -
وقفة للمؤمنين به وإيمانهم ، والصد عن سيل الله ، والإعراض عن الخير والجنة والنعيم . .
بين هذا كله يحى القطع الأخير فى السورة يمالج هذا اللوقف بطريقة القرآن الكريم :
« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا -
واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ! ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » . .

وفي هذه الآيات الأربعة تسكن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا ، وأن يستمتعوا تمقا كاملا ، وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يواجه للشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه في نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أسير كثيرا . فلأن عقيدة الشرك للهلهلة التي كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصدون بها هكذا للعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت للملابسات التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك للمعارضة العنيدة ، التي شهدت بها الروايات التاريخية ، وحكاها القرآن في مواضع منه شتى .. كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة ، وما يتلبس بها كذلك من مصالح مادية .. هي العنصر الأول الذي يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان ، في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة . ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائنها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد للمقاومة والتماد والتأبي على العقيدة الجديدة ، ومافيا من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لاتسمع بانطلاق الفرائز والشهوات ؛ ولا بالحياة العابثة الحاجة للطلقة من كواجب الأخلاق .

وهذه الأسباب - سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والصالح ، وما يتعلق منها بالإنفس والمادة وصور الحياة التقليدية ، وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية - كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى ، وهي هي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل . وهي تمثل العناصر الثابتة في معركة العقيدة ، التي تجعلها معركة عنيدة لاتنتهي من قريب ؛ وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعرس التكاليف .

ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلا في الحقيقة الكبيرة الكامنة في تلك الآيات ، وملابسات نزولها على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهي ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله ، في أي أرض وفي أي زمان ا

لقد تلقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التكليف من ربه لينذر ، وقيل له : « يا أيها المذنب . قم فانذر » .. فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة ؛ وتثير في نفوسهم التشبث بما هم عليه - على شعورهم بوهنه وهلمته -

وتقدم إلى العناد الشديد ، ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكاتبهم ومصالحهم .
ومألوف حياتهم ، ولذائذهم وشهواتهم . - إلى آخر ماتهم هذه الدعوة الجديدة أهد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صوراً شتى ، في أولها إنشاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة ، ومحاولة قتلها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها - صلى الله عليه وسلم - بشق التهم والأساليب . كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد . فنجح الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من قتل الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - طرقاً شتى من الإغراء - إلى جانب التهديد والإيذاء - ليلتقي بهم في منتصف الطريق ؛ ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ؛ ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرضيه ويرتضونه ؛ كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق عند الاختلاف على الصالح والمفاسد وشؤون هذه الأرض لليهود (١) .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشبهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل !

والنبي - صلى الله عليه وسلم - ولو أنه رسول ، حفظه الله من الفتنة ، وعصمه من الناس .. إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف : والله يعلم منه هذا ، فلا بدعه وحده ، ولا بدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .
وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا المون وللد وتوجيه :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً » .

وهي الفتنة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة ، وينبوع حقيقتها .. إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذي نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر ، ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا ينبوع . وكل ما عدا هذا المصدر لا يبتلى عنه ، ولا يستمد منه ، ولا يستمر لهذه العقيدة منه شيء ، ولا يختلط بها منه شيء .. ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعي إليها ، وهو كلفه ، وهو نزل القرآن عليه .

(١) يراجع في هذا الجزء تفسير سورة الفلم : « ودوا لو تبصرون فيمنون » ..

ولكن الباطل يتجسس ، والكفر ينفض ، والأذى يصيب المؤمنين ، والفتنة ترصد لهم ؟ والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه ، فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشتمهم الذى يلجون فيه ! ثم هم يمرضون للصالحه ، وقسمه البلد بلدين ، والاتقاء فى منتصف الطريق . . وهو عرض يصيب رده ورفضه فى مثل تلك الظروف العصية !

هنا تجيء اللفظة الثانية :

« فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثما أو كفورا » . .

إن الأمور مرهونة بقدرة الله . وهو يعمل الباطل ، وعلى الكفر ، ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتحجيس . . كل أولئك لحكمة يلعبها ، يجرى بها قدره ، وينفذ بها حكمه . . « فاصبر لحكم ربك » . . حتى يجيء موعده للرسوم . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يضل ، والكفر يتفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذى نزل به القرآن عليك . اصبر ولا تستمع لما يمرضونه من الصالحه والاتقاء فى منتصف الطريق على حساب العقيدة : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » . . فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الاتقاء بهم فى منتصف الطريق ! وحين يمرضون عليك ما يظنونهم يرضيك ويفريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان ، وباسم شهوة اللال ، وباسم شهوة الجسد . فيمرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء ، حتى يكون أخفى من أغنام ، كما يمرضون عليه الحسنات الفاتتات ، حيث كان عتبة ابن ربيعة يقول له : « أرجع عن هذا الأمر حتى أزوجهك ابنتى ، فإنى من أجل قريش بنات ! » . . كل الشهوات التى يمرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة فى كل أرض وفى كل جبل !

« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا » . . فإنه لا لقاء بينك وبينهم ؟ ولا يمكن أن تهاجم قطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التى تفصل منهيك عن منهيهم ، وتصورك للوجود . كله عن تصورهم ، وحقك عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، ونورك عن ظلماتهم ، وممرتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة وقوى الإغراء ، وامتد الطريق . .

ثم مضى السباق في تأكيد الاقتراق بين منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، ومن تضاعة اهتمامهم ، وسفر تصوراتهم . . يقول :

« إن هؤلاء يحبون العاجلة فيندرون وراءهم يوما ثميلا » . .

إن هؤلاء ، القريبى للطامع والاهتمامات ، الصغار للطلاب والتصورات . . هؤلاء الصغار الزهيدى الذين يسترقون فى العاجلة ويندرون وراءهم يوما ثميلا . ثميلا بتأخيه . ثميلا بوزنه فى ميزان الحقيقة . . إن هؤلاء لا يطاعون فى شيء ولا يتبعون فى طريق ؛ ولا يلتقون مع المؤمنين فى هدف ولا غاية ، ولا يؤبه لهم فيه من هذه العاجلة ، من ثراء وسلطان ومتاع ، وإنما هى العاجلة ، وإنما هو للثنا القليل ، وإنما هم الصغار الزهيدون !
ثم توحى الآية بفغلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة ، ويندرون اليوم الثقيل الذى ينتظرم هناك بالسلاسل والأغلال والسمر ، بيد الحساب الصير !

فهذه الآية استطراد فى تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين معه ، فى مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

يتلو ذلك التهنيت من أمرهم عند الله الذى أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجرى بها قدره القديم :

« نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » . .

وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يمتزون بقوتهم ، بمصدر هذه القوة ، بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا - وهم فى حالة الضعف والقلة - إلى أن واهب القوة هو الذى يتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما قرر فى قوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة ، هى التى تجرى وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

« وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » . . فهم لا يجوزون الله بقوتهم ، وهو خالقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم .. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومته . وهو قضاؤه وحكمته ..

ومن هنا تكون الآية استطرادا في تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ؛
وتفريدا لحقيقة موقعهم وموقفه الآخرين .. كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين في العاجلة ،
المقترين بقوة أمرهم ، ليذكروا نعمة الله ، التي يتبطرون بها فلا يشكرونها ؛ وليשמروا
بالابتلاء السكمن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذي قرزه لهم في مطلع السورة .

ثم يوقظهم إلى القرصة المتاحة لهم ، والقرآن يمرض عليهم ، وهذه السورة منه تذكرة لهم :
« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » ..

ويمقب على هذه الفتنة بإطلاق للشبهة ، ورد كل شيء إليها ، ليكون الاتجاه الأخير إليها ،
والاستسلام الأخير لحكمها ؛ وليبدأ الإنسان من قوته إلى قوتها ، ومن حوله إلى حولها ..
وهو الإسلام في حكمه وحقيقته :

« وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليا حكيمًا » ..

ذلك كي تمل قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، للتصرف القهار ، فتعلم كيف تتجه إليه
وتستسلم لقدره .. وهذا هو مجال هذه الحقيقة التي تجري فيه في مثل هذه النصوص . مع
تبرير ما شاء الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ؛ والاتجاه إلى هذا أو ذلك
وفق مشيئة الله ، الملم بحقيقة القلوب ، وما أعان به العباد من هبة الإدراك واللمعة ، وبيان
الطريق ، وإرسال الرسل ، ونزول القرآن ... إلا أن هذا كله ينتهي إلى قدر الله ، الذي يلجأ
إليه للتسليم ، فيوقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يبرف في قلبه حقيقة القدرة للسيطرة ، ولم
يلجأ إليها لتأمينه وتيسره ، فلا هدى ولا ذكر ، ولاتوفيق إلى خير ..

ومن ثم فهو :

« يدخل من يشاء في رحمة ، والظالمين أعد لهم عذابا أليًا » ..

فهي المشيئة المطلقة تصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل في رحمة من يشاء ، بمن
يتجشئون إليه ، يطلبون عونه على الطاعة ، وتوفيقه إلى الهدى .. « والظالمين أعد لهم عذابا أليًا » .
وقد أملى لهم وأملهم ليتجهوا إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الحتم يلثم مع الطمع ، ويصور نهاية الابتلاء ، الذي خاق الله له الإنسان من نطفة
أشج ، ووجه السمع والأبصار ، وهداه السيل إما إلى الجنة وإما إلى نار ..

سُورَةُ الْأَمْرُ سَلَاتٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَسْمَاُهَا ٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالْأَمْرُ سَلَاتٍ مُرْفَا * فَالْمَاصِفَاتِ عَصْفَا * وَالنَّائِثِرَاتِ نَشْرَا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْفَا *
فَالْمَقِيبَاتِ ذِكْرَا * عَذْرَا أَوْ نَذْرَا * إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَوَاقِعُ .

« فَإِذَا السَّحَابُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُصِفَتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ
أُقْفِتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ؟ * وَيَلَّ
يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !

« أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نَنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ ؟ كَذَلِكَ نَعْمَلُ بِالْجَانِئِينَ *
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !

« أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ؟ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ؟ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ؟ *
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ؟ * وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !

« أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ؟ * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِغَاتٍ
وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ؟ * وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !

« أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ! * أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ *
لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَفْنَى مِنَ النَّهَبِ ! * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ *
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !

« هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَلِقُونَ * وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ قَيْمَتُهُمْ * وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !
 « هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ * وَالْأَوَّلِينَ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ *
 وَيَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !
 « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَائِكَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا
 بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !
 « كُلُوا وَامْتَنِعُوا قُلِيلًا * إِنَّكُمْ تَجْرُمُونَ * وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !
 « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكَمُوا لَا يَقْرَءُونَ * وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَاذِبِينَ !
 « قَبَائِئِرُ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟ » .

هذه السورة حادة اللامع ، عنيفة للشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار .
 وهي تنفث القلب وقمة الهاكة الرهبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات
 والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهم للسنة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول
 والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب للذنب لفتحة كأنها من نار : « وبل
 يومئذ للكاذبين » !

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب
 تعقيب للاعها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة للكررة في سورة « الرحمن » عقب عرض كل نعمة من
 نعم الله على العباد : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. كما تذكرنا باللازمة للكررة في سورة
 « القمر » عقب كل حلقة من حلقات العذاب : « فكيف كان عذابى ونذر ؟ » .. وبكرارها
 هنا على هذا النحو يعطى السورة ممة خاصة ، وطمايحها .. حادا ..

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متباعدة القوافي . كل مقطع بقافية .

ويعود السياق أحيانا إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه اللقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص ، وعنقها الخاص . واحدة إثر واحدة . ومايكاد يفتق من إيقاع حق يماجله إضغاع آخر ، بنفس النصف وبنفس الشدة .

ومنذ بداية السورة والجو عاصف متأثر بشهد الرياح أو لللائكة : الرسائل عرفا . العاصفات عسفا .. الناشرات نشرنا فالقارقات فرقا . الملقيات ذكرا ، عذرا أونندرا . . وهو افتتاح يلتمس مع جو السورة وظلها عام الالتئام .

وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها .. وهذا نموذج منها . كما اختار إطارا من الضحى والليل إذا سعى لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في « سورة الضحى » وإطارا من الماديات الضابغة الصاخبة المثيرة للفتار لمشاهد بثمره القيور وتحصيل مافي الصدور في سورة « والماديات » .. وغيرها كثير (١) .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا اللطع ، يمثل جولة أو رحلة في عالم، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات وللشاعر والحواطر والتأثرات والاستجابات .. أعرض بكثير جدا من مساحة العبارات والكلمات ، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى ! والجولة الأولى تقع في مشاهد يوم الفصل . وهي تصور الاقترانات السكونية الهائلة في السماء والأرض ، وهي للوعد التي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر : « فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للكافرين ! » .

والجولة الثانية مع مصارع النابرين ، وما تشير إليه من سنن الله في المكذبين : « ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبهم الآخرين ؟ كذلك فعل بالجرميين . ويل يومئذ للكافرين ! » .. والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحى به من تقدير وتدير : « ألم تخلقكم من ماء مهين ؟ فجلنا في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ قدرنا فنعلم القادرون . ويل يومئذ للكافرين ! » ..

والجولة الرابعة في الأرض التي تضم أبناءها أحياء وأمواتا ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء الحي : « ألم نجعل الأرض كفافا ؟ أحياء وأمواتا ، وجعلنا فيها رواسي شاذحات وأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للكافرين ! » ..

(١) يراجع فصل التاسق الثاني في كتاب : التصوير الفني ..

والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ! لا ظليل ولا ينفى من اليبس . إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جملة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين ، ومزيد من التأنيب والترذيل : « هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتدون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدهم . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الثامنة مع المتقين ، وما أعد لهم من نعيم : « إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة التاسعة خطفة سرية مع المكذبين في موقف التأنيب : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة العاشرة خطفة سرية مع المكذبين في موقف التكذيب : « وإذا قيل لهم : اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات : « فبأى حديث بمدح يؤمنون ؟ » ..



وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها . فأما الإطفاقي الموضوعية في السورة فقد تكرر وروزها في سور القرآن - والمكية منها بوجه خاص - ولكن الإطفاقي القرآنية تفرض من جوانب متعددة ، وفي أضواء متعددة ، وبطووم ومذاقات متعددة ، وفق الحالات النفسية التي تواجهها ، ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التي يلمها منزل هذا القرآن على رسوله ، فتبدو في كل حالة جديدة ، لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة .

وفي هذه السورة جدقة في مشاهد جهنم . وجدة في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كأن هناك جدقة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . خاصة اللامع . لأذعة المذاق . لاهثة الإيقاع !

والآن نستعرض السورة في سياقها القرآني بالتفصيل :

« والمرسلات عرفا . فالماصات عصفا . والناشرات نشرأ . فالقارقات فرقا . فالمقيات
ذكرا : عذرا أو ندرا . . إن ماتوعدون لواقع » . .

القضية قضية القيامة التي كان يصر على للشركيين تصور وقوعها ؛ والتي أكدها لهم القرآن
الكريم بشقئ للؤكدات في مواضع منه شقئ . وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم ،
وإقرار حقيقتها في قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها ، ثم
لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعا . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة
السموية ، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الإنسانية . وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة ،
وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها جميعا .. ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل
الثابت لتقريرها في القلوب والعقول .

والله سبحانه يقسم في مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصفية القسم
توحى ابتداء بأن مايقسم الله به هو من مجاهيل النيب ، وقواه للكنونة ، للؤثرة في هذا
الكون وفي حياة البشر . وقد اختلف السلف في حقيقة مدلولها . فقال بعضهم : هي الرياح
إطلاقا . وقال بعضهم هي للملائكة إطلاقا . وقال بعضهم : إن بضها يبنى الريح وبضها يبنى
للملائكة . . مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها . وهذا التعموض هو أنسب شيء
للقسم بها على الأمر النبي المكنون في علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المثيرة واقعة
ومؤثرة في حياة البشر .

« والمرسلات عزفا » . . عن أبي هريرة أنها الملائكة . وروى مثل هذا عن مسروق
وأبي الضحى ومجاهد في إحدی الروایات ، والسدى والريبع ابن أنس ، وأبي صالح في رواية
(والمنى حيثند هو القسم بالملائكة المرسة أرسالا متواليه ، كأنها عرف القرس في إرسالها
وتتابها) .

وهكذا قال أبو صالح في الماصفات والناشرات والقارقات والمقيات . . إنها الملائكة .
وروى عن ابن مسعود . . المرسلات عرفا . قال : الريح . (والمنى على هذا أنها المرسة
متواليه كعرف القرس في امتدادها وتتابها) وكذا قال في الماصفات عصفا والناشرات نشرأ .
وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وتادة وأبو صالح في رواية .

وتوقف ابن جرير في الرسائل عرفا هل هي لللائكة أو الرياح . وقطع بأن الماصفات هي الرياح . وكذلك الناشرات التي تنشر السحاب في آفاق السماء .
وعن ابن مسعود : « فالقارقات فرقا فالملقيات ذكرا ، عنرا أو نذرا » يعنى لللائكة .
وكذا قال : ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والريح ابن أنس والسدى والثوري بلا خلاف .
فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل . وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعداد إلى الخلق وإنذار .

ونحن نلمح أن التهويل بالتجويل ملحوظ في هذه الأمور المقسم بها كالشأن في الداريات ذروا . وفي النازعات غرقا .. وأن هذا الخلاف في شأنها دليل على إيهامها . وأن هذا الإيهام عنصر أصيل فيها في موضعها هذا . وأن الإيهام المجهل في التلويح بها هو أظهر شيء في هذا اللقار . وأنها هي بذاتها تحدث هزة شعورية يلجأ جرسها وتتابع لرقاعها ، والظلال المباشرة التي تلقها . وهذه الانتفاضة والمزة اللتان تحدثهما في النفس هما أليق شيء بموضوع السورة واتجاهها .. وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة ، كالذي يمسك بخناق أحد فيهم هزا ، وهو يستجوبه عن ذنب ، أو عن آية ظاهرة بسكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد : « ويل يومئذ للكذابين » ..



بعد ذلك نجىء الحسرة العنيفة بمشاهد الكون للثقلية في يوم الفصل الذي هو الموعد المضروب للرسل لمرض حصيلة الرسالة في البشرية جميعا :

« فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت . لأى

يوم أجلت ؟ يوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للكذابين » ..
يوم تطمس النجوم فيذهب نورها ، وتفرج السماء أى تشق ، ونسف الجبال فهي هباء ...
وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكونى في سور شتى من القرآن . وكلها توحى بانقراض عقد هذا الكون المنظور ، انقراضا مصحوبا بقرعة ودوى وانفجارات هائلة ، لاعهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التي يستولونها ويروعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والبصاوق .. وما إليها .. فهذه أشبه شيء — حين تقاس بأحوال يوم الفصل — بلهب الأطفال التي يفرقونها في الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشرى على الإطلاق !

وإلى جانب هذا الهول في مشاهد الكون ، تعرض السورة أمرا عظيما آخر مؤجلا إلى هذا اليوم .. فهو موعد الرسل لمرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال . فالرسل قد آتت لهذا اليوم وضرب لها للوعد هناك ، لتقديم الحساب الختامى عن ذلك الأمر العظيم الذى يرجع السماوات والأرض والجبال . للفصل فى جميع القضايا المعلقة فى الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الكلمة الأخيرة التى تنتهى إليها الأجيال والقرون .. وفى التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم ، يوحى بشخامة حقيقته حتى تتجاوز مدى الإدراك : « وإذا الرسل آتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ » .. وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله ، الذى يرجع هول النجوم المطموسة والسما للشقوق والجبال للمنسوفة . ألقى بالإيقاع العريب ، والإنذار الخفيف :

« فويل يومئذ للكافرين ! » ..

وهذا الإنذار من العزز الجبار ، فى مواجهة الهول السائد فى الكون ، والجلال اللائل فى مجلس الفصل يحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير فى اللوعد المضروب لهم .. هذا الإنذار فى هذا الأوان له طمعه وله وزنه وله وقته المزول الرهيب ..

ويسود بهم من هذه الجولة فى أهوال يوم الفصل ، إلى جولة فى مصارع النابرين : الأولين والآخرين ..

« ألم نهلك الأولين ؟ ثم تتبعهم الآخرين ؟ كذلك فعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمعكدين ! » ..

هكذا فى ضربة واحدة تكشف مصارع الأولين وهم حشود . وفى ضربة واحدة تكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تتبدى للمصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقا بسنة الله فى الوجود : « كذلك فعل بالمجرمين » ! فهى السنة الماضية التى لا تخيد .. وبينما المجرمون يتوقعون مصراعا كصارع الأولين والآخرين ، يحمى السماء بالهلاك . ويحمى الوعيد بالثبوت : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

ومن الجولة في المصارع والأشلاء ، إلى جولة في الإنشاء والإحياء ، مع التقدير والتدبير ،
لصغير ولل كبير :
« ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجلنا في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ قدرنا نعم القادرون .
ويل يومئذ للمكذبين » . .

وهي رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يحملها هنا في لسات ممدودة . ماء مهين .
يودع في قرار الرحم للكين . إلى قدر معلوم وأجل مرسوم . وأمام التقدير الواضح في تلك
النشأة ومراحلها الدقيقة يحيى التنقيب للوحي بالحكمة العليا التي تتولى كل شيء بقدره في
إحكام مبارك جميل : « قدرنا نعم القادرون » وأمام التقدير الذي لا يغفل منه شيء يحيى
الوعيد للمعهود : « ويل يومئذ للمكذبين » . .

ثم جولة في هذه الأرض ، وتقدير الله فيها حياة البشر ، وإبداعها الخصائص البيرة
لهذه الحياة :

« ألم نجعل الأرض كفافاً ؟ أحياء وأمواتاً ؟ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء
فراثاً ؟ ويل يومئذ للمكذبين » .

ألم نجعل الأرض كفافاً تحتضن فيها أحياء وأمواتاً . « وجعلنا فيها رواسي شامخات »
ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتتحدر عنها مساقط الماء العذب . أفيكون
هذا إلا عن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هذا يكذب للمكذبون ؟ : « ويل يومئذ
للمكذبين » . .

وعندئذ - بعد عرض تلك للشاهد ، وامتلاء الحسن بالتأثرات التي تسببها في الشاعر -
ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين للمكذبين ،
ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذي كانوا به يكذبون ، في تأنيب مرير وإيلام عسير :
« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا نسف
من اليب . إنها ترمي بشرور كالعصر . كأنه جملة سفر . ويل يومئذ للمكذبين » . .
ذهبوا طلقاء بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ؟ إنه

انطلاق خير منه الارتهان .. « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » .. فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود . « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب » .. إنه ظل لدخان جهنم تمتد السنة في ثلاث شعب . ولكنه ظل خير منه الوهج : « لا ظليل ولا يئس من الذهب » .. إنه ظل خائق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلا امتدادا للتهمك ، وتعمية بالظل لتكشف عن حر جهنم ! انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التي تنطلقون إليها . فلاحاجة إلى ذكر اسمها .. « إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر » .. فالشرر يتابع في حجم البيت من الحجر . (وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضروري أن يكون في ضخامة مانهد الآن من قصور) فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر ؟
وفي اللحظة التي يستغرق فيها الحس بهذا المول ، يحى التقيب للمهود : « ويل يومئذ للمكذبين » .

ثم يستند في استكمال الشهد بعد عرض المول للمادى في صورة جهنم ، برض المول النفس الذي يرض السم والكتظم ..

« هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتدون » ..

فالمول هنا يمكن في السم الزهيب ، والنكبت الرعب ، والحشوع للهب ، التي لا تبخله كلام ولا يقطعه اعتذار . قد اقتضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار : « ويل يومئذ للمكذبين » ! .. وفي مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم وماذروهم .. واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك - على ما قال ابن عباس رضى الله عنهما - ولكنه هنا شبت هذه القطعة السامنة الرهبة ، لمناسبة في اللوثف وظل في السباق .

« هذا يوم الفصل جمناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين » ..

هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار . وقد جمناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فديروهم ، وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ! ولا تدبر ولا قدرة . إنما هو السم الكظيم ، على التأنيب الأليم .. ويل يومئذ للمكذبين ! ..

(١٦ - في ظلال القرآن [٢٩])

فلذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين ، أتجه الخطاب بالتكريم للمتقين :

« إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ا » . .

إن المتقين في ظلال .. ظلال حقيقة في هذه المرة لا ظل ذي ثلاث شب لا ظليل ولا ينفق من الذهب ا وفي عيون من ماء لا في دخان خائق يبعث الظلم الحرور . « وفواكه مما يشتهون » . . وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسى التكريم الماوى على مرأى ومسمع من الجوع : « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين » . وبالطاف هذا التكريم من الملى العظيم « ويل يومئذ للمكذبين ا » . . يقابل هذا النعيم والتكريم ا



وهنا تعرض في خبطة سرية رقعة الحياة الدنيا الى طورت في السياق ~~سلفاً~~ في الأرض مرة أخرى . وإذا التبكيت والترذيل بوجهان للمجرمين ا

« كلوا وتمتوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ا » . .

وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة في قترتين متواليتين ، وفي مشهدين معروضين كأنهما حاضران في أوان ، وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجهاً للمتقين في الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين في الدنيا . وكأنما يقال لهم : اشهدوا الفارق بين اللوقين . . وكلوا وتمتوا قليلاً في هذه الدار ، لتجرموا وتمذبوا طويلاً في تلك الدار . . « ويل يومئذ للمكذبين ا » .



ثم يتحدث معجبا من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون :

« وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين ا » . .

مع أنهم يصرون هذا التبصير ، وينذرون هذا النذير ..

« فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » . .

والذى لا يؤمن بهذا الحديث الذى يهز الرواسى ، وبهذه الهزات التى تنزل الجبال ،

لا يؤمن بحديث بعده أبدا . إنما هو الشقاء والتعاسة والصير البائس ، والويل المدخر لهذا
الشيء المتعوس !

إن السورة بذاتها ، بيناتها التيميرى ، وإيقاعها للوسيقى ، ومشاهدها النيفة ، ولذعها
الحاد . . إنها بذاتها حملة لا يثبت لها قلب ، ولا يتاسك لها كيان .
فسبحان الذى نزل القرآن ، وأودعه هذا السلطان !

تم الجزء التاسع والعشرون ، ويليهِ الجزء الثلاثون
مبدوءاً بقوله تعالى : « هم يتساءلون »

كتب للمؤلف

- ١ - في ظلال القرآن (في ثلاثين جزءاً) دار إحياء الكتب العربية
- ٢ - العدالة الاجتماعية في الإسلام (طبعة خامسة) » » » »
- ٣ - معركة الإسلام والرأسمالية (ثانية) دار الإخوان للطباعة والصحافة
- ٤ - السلام العالمي والإسلام (ثانية) مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعبدين
- ٥ - دراسات إسلامية (أولى) مكتبة لجنة الشباب للسلم
- ٦ - التصوير الفني في القرآن (رابعة) دار المعارف
- ٧ - مشاهد القيامة في القرآن (ثالثة) » »
- ٨ - المدينة المسحورة (ثانية) » »
- ٩ - النقد الأدبي : أصوله ومناهجه (ثانية) دار الفكر العربي
- ١٠ - أشواق (أولى) دار سعد مصر بالفعالة
- ١١ - طفل من القرية (» ») لجنة النشر للجامعيين
- ١٢ - الألفاظ الأربعة (بالاشتراك مع إخوته) » » »
- ١٣ - القصص الدينية (بالاشتراك مع الأستاذ السحار) » » »
- ١٤ - الشاعلي المجهول (شعر) ... نقد
- ١٥ - كتب وشخصيات (نقد) ... »
- ١٦ - مهمة الشاعر في الحياة (») ... »
- ١٧ - نقد كتاب مستقبل الثقافة (») ... »

الكتب التالية

- (١) نحو مجتمع إسلامي
- (٢) أمريكا التي رأيت
- (٣) حلم القجر (شعر)
- (٤) قافلة الرقيق (شعر)

Bibliotheca Alexandrina



0593929